

موقع ومنتديات  
مكتبتنا

# المساكين

مصطفى صادق الرافعي

ضبط وتقديم

أ.د. / محمد علي سلامة

استاذ النقد الأدبي

كلية الآداب جامعة حلوان





ربما عابوا السموّ الأدبي بأنه قليل  
ولكن الخير كذلك  
وبأنه مخالف .. ولكن الحق كذلك  
وبأنه محير .. ولكن الحسن كذلك  
وبأنه كثير التكاليف  
ولكن الحرية كذلك

عبد الرحمن ماجدي

  
الصحوة  
ALSAHOH

دار الصحوة للنشر والتوزيع  
48 شارع مجلس الأمة - القاهرة  
تليفون وفاكس +202 279 43 594  
بريد إلكتروني  
Daralsahoh@gmail.com

Friday  
19 Feb. 2010  
Riyadh

# كتاب المسالك

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

ضبطه وصححه وحقق أصوله

محمد سعيد العريان

ضبط وتقديم

أ. د. محمد علي سلامة

أستاذ النقد الأدبي ووكيل كلية الآداب

جامعة حلوان



## • تقديم:

تعانق السرد الأدبي بالفلسفة الإيمانية

يتمتع الرافعي بقدره سردية غريبة وبديعة، فغرابتها تنتج من طرقها موضوعات بسيطة عادية أو كما يظنها الناس هكذا، ولكنه يلبسها ثوباً كبيراً عميقاً حتى لا تكاد تعثر على قارئها، وبديعة في الوقت نفسه لأن الناتج منها يكون مؤثراً أعمق الأثر فيمن يقرأها ويستوعبها، ذلك أن اللغة التي يكتبها بها الرافعي تنتمي إلى ذلك الطراز الفصيح والمعبر من لغتنا، والذي كان سائداً في عصر الازدهار الثقافي والأدبي، ويمكن أن نصغها باللغة الجاحظية نسبة إلى أسلوب الجاحظ أديب العربية الأكبر في مجال النثر الأدبي.

ونظن أن الرجل اقتفى أثره حتى في اختيار موضوعاته التي يكتب فيها، وقد أشار إلى شيء من هذا في المقدمة التاريخية التي صدر بها كتابه «أوراق الورد» يقول: «ولقد كتب شيخنا وأدينا الكبير «الجاحظ» رسالة في العشق والنساء وهي ضمن مجموعة رسائله، فكان والله كالذي يلبس ملكة الجمال في هذا العصر مرقعة قذرة»، وهو إن كان ينحى عليه باللائمة في هذه الرسالة بالذات (ربما ليثبت تفرده وتميزه حتى عن أبلغ الكتاب «الجاحظ») إلا أن تعبيره «أدينا وشيخنا» يوحى للقارئ المدقق بمدى تأثير الرافعي به واقتفاء أثره موضوعاً وتعبيراً.





ربما رأى الرافعى أنه يتميز عن الجاحظ وغيره من ناحية إلباس الموضوعات ثوباً فلسفياً، ولكن الحقيقة أن الجاحظ فعل هذا وأكثر، ومن يريد أن يعرف ذلك فعليه أن يقرأ البخلاء الذى يعد نموذجاً فريداً فى الكتابة» حين يتحدث عن نواذر تبدو للقارئ أمراً بسيطاً ولكنه فى النهاية يخرجها موضوعاً فلسفياً عميقاً من خلال تعبيره الأدبى الراقى واستطراداته التوضيحية التى تحقق البعدين؛ فهم الموضوع، وعمقه الفلسفى.

وفى تصديره للكتاب يحكى سعيد العريان قصة تأليف الكتاب وزمنه، حيث يشير إلى شيخ مهلهل هو الشيخ على من منية جناح من أعمال دسوق، وكان ذلك فى وقت اشتداد الأزمة الاقتصادية المصاحبة للحرب العالمية الأولى، وفى مثل هذه الأوقات يظهر الفارق البعيد بين الغنى والفقر، وما يصاحب ذلك من سلوكيات لا تمت للإنسانية بصلة، فالغنى يستغل الأزمة أكبر استغلال ولا يشعر بأى عاطفة أو إحساس إنسانى تجاه المجموع الفقير، كما تشتد الأزمة النفسية للفقراء، وهذا من شأنه أن يحرك النفوس الحساسة، والأدباء ذوى التوجه الإنسانى العالى نفسياً وأدبياً فيعبرون عنها.

وأظن ما جاء فى كتاب المساكين المطروح أمامك أيها القارئ هو خلاصة شعور إنسانى عال أراد به الكاتب أن يصبر الفقراء على أزمته، يواسيهم، ويدعمهم، حتى لا يؤدى ذلك إلى تفكيرهم فى التخلص من حياتهم، وقد أشار إلى ذلك فيما كتبه عن غرض تأليف الكتاب حيث يقول: «وأما بعد، فإنى قد وضعت هذه



الأوراق، وكتبت فيها عن الفقر، وما هو من باب الفقر، لا لمحوه ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه؛ ثم كتبت عن الغنى وما إليه، لا رغبة في إفساده على أهله، ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله».

ولا شك أن هذا الكلام هو من وحي اللحظة الراهنة وقت تأليف الكتاب كما أشرت سابقاً، ففيه تصبير وتوجيه، وفيه عزاء ونصح وإرشاد وكأنه يحاول أن يأخذ بيد الناس حتى يصلوا إلى بر الأمان من هذه الأزمة الطاحنة التي تدور رحاها بينهم.

يرأفح الرفاعى بين السرد الفنى وهو أسلوب القصص، وبين التعبير الأدبى الرصين والعمق الفكرى والفلسفى، فالكتاب يتضمن عشر مقالات وفصلاً أخيراً معه هو صاحب المساكين؛ تدور تسع منها حول الشيخ على الذى اتخذ رمزاً يحاوره ويحادثه، ويضع على لسانه من المقولات الفلسفية والدينية العميقة التى توحى لقارئها ولأول وهلة أن هذا الكلام هو كلام الرفاعى نفسه، فكأن الشيخ على هذا شخصية درامية مبتكرة، يحرك الأحداث التى يريد الرفاعى أن يعلق عليها، سواء بذكر الموضوع أو بحكاية قصة من القصص التى فيها عظة وعبرة، وتعطى دلالة معينة لها علاقة بالموضوع المراد التحدث فيه مثل قصة «مسكينة! مسكينة!» عن تلك الفتاة البائسة الجائعة التى أغاثها طفل فقير مثلها من الجوع بعد أن كانت فى طريقها للانتحار والموت يأساً من عدم الحصول على لقمة عيش تقيتها، وضافت بها السبل فينقذها الطفل





مما همت به بطعام كان قد أعدده لنفسه ، وذلك بالرغم من خوفه أن يؤدي هذا إلى عقابه الشديد من أمه .

ويطرح جانباً آخر وهو موقف المرأة الغنية التي ضنت على الفتاة المسكينة بأى إحسان ، وكأنه يعقد مقارنة بين عنصرى الأزمة : الفقير والغنى ، وإن كان فى النهاية يعلق تعليقه التأملى الدينى نتيجة لهذه القصة ، وياليتها تركها تعبر عن نفسها .

وحتى فى المقالتين اللتين لم يذكر فيها الشيخ «على» كانت روحه ترف عليها ، والأولى كانت فى رثاء قريب له ، والثانية تمثل الفصل الأخير الذى يعد تعقيباً على الموضوع كله .

واللافت للنظر أيضاً فى هذا الكتاب أن الرافعى ينهل من كل ثقافة بنصيب فهو يأخذ من القرآن ومن السنة ويأخذ من معارف المتصوفة والفلاسفة ، ويأخذ من العلماء والمتأدبين بل إنه أيضاً يذكر نصاً من الإنجيل والكتاب المقدس ، وكل ذلك فى موضعه من التعبير ، لا تراه يحشره حشراً ، بل يأتى عفواً مما يدل على ثقافة موسوعية ثقفتها الرافعى ، فلم يتوقف عند لون بعينه من ألوان الثقافة ، وإنما تتدفق المعانى على قلمه ليحبر عما تكنه خزينته اللغوية والمعرفية .

قارئ هذا الكتاب سيجد هذا وأكثر ، وإن كان الرافعى قد صدر كتابه بأنه لن يفهمه إلا المساكين ، فإنى أظن أن الأغنياء أيضاً سيفهمونه لأنه واضح الرسالة إليهم ، خاصة وأنه ذكر فى أولى



الصفحات حديثين لرسول الله ﷺ فيهما كل المعاني الإنسانية الرفيعة، كما أن العبارة التي اقتبسها من ديوجينيس الكلبي ذات معنى ورسالة إلى الأغنياء «ينبغي أن تقدر ثروة الإنسان لا بأمواله ومستغلاته، بل بعدد الأشياء التي يستطيع أن يعيش غير محتاج إليها» وكأنه يريد أن يقول للأغنياء بل للناس جميعاً أن يعرفوا أن الإنسان يعرف بأعماله وليس بما يملك، ولن يتمكن من العمل الجيد إلا إذا تخلص من عبء رغبة التملك.

هكذا يقدم الرافعي نفسه لقارئه أديباً ومفكراً وفيلسوفاً وإنساناً.

ملاحظة أخيرة: قمنا بتمييز تعليقات محمد سعيد العريان، في الهامش، بوضع (\*) أمامها، أما تعليقات الرافعي فبقيت كما هي، بالأرقام العادية.

د. محمد علي سلامة

أستاذ النقد الأدبي ووكيل كلية الآداب- جامعة حلوان

\*\*\*





مصطفى صادق الرافعي

مولده:

ولد مصطفى صادق الرافعي على ضفاف النيل في قرية بهتيم من قرى محافظة القليوبية بمصر في يناير عام ١٨٨٠م، لأبوين سوريين؛ حيث يتصل نسب أسرة والده بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقہ في الدين. وقد وفد من آل الرافعي إلى مصر طائفة كبيرة اشتغلوا في القضاء على مذهب الإمام الأكبر أبي حنيفة النعمان حتى آل الأمر أن اجتمع منهم في وقت واحد أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية؛ وأوشكت وظائف القضاء أن تكون حكرًا عليهم، وقد تنبه اللورد كرومر لذلك وأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية البريطانية.

أما والد الرافعي الشيخ عبد الرزاق سعيد الرافعي فكان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم المصرية، وقد استقر به المقام رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية، وهناك كانت إقامته حتى وفاته، وفيها درج مصطفى صادق وإخوته لا يعرفون غيرها، ولا يبغون عنها حولا.

أما والدته فهي من أسرة الطوخي وتُدعى «أسماء» وأصلها من سكن أبوها الشيخ الطوخي في مصر قبل أن يتصل نسبهم



بآل الرافعى . وهى أسرة اشتهر أفرادها بالاشتغال بالتجارة  
وضروبها .

### ثقافته وأدبه:

لهذه الأسرة مورقة الفروع ينتمى مصطفى صادق الرافعى ،  
وفى فنانها درج ، وعلى الثقافة السائدة لأسرة أهل العلم نشأ ؛  
فاستمع من أبيه أول ما استمع إلى تعاليم الدين ، وجمع القرآن  
حفظاً وهو دون العاشرة ، فلم يدخل المدرسة إلا بعدما جاوز  
العاشرة بسنة أو اثنتين ، وفى السنة التى نال فيها الرافعى الشهادة  
الابتدائية وسنه يومئذ ١٧ عاماً أصابه مرض التيفود ، فما نجا منه إلا  
وقد ترك فى أعصابه أثراً ووقراً فى أذنيه لم يزل يعانيه حتى فقد  
حاسة السمع وهو بعد لم يجاوز الثلاثين .

وكانت بوادر هذه العلة هى التى صرفته عن إتمام تعليمه بعد  
الابتدائية . فانقطع إلى مدرسته التى أنشأها لنفسه وأعد برامجها  
بنفسه ، فكان هو المعلم والتلميذ ، فأكبَّ على مكتبة والده الحافلة  
التي تجمع نوادر كتب الفقه والدين والعربية ؛ فاستوعبها وراح  
يطلب المزيد ، وكانت علتة سبباً باعد بينه وبين مخالطة الناس ،  
فكانت مكتبته هى دنياه التى يعيشها وناسها ناسه ، وجوها جوه  
وأهلها صحبته وخلانه وسمّاره ، وقد ظل على دأبه فى القراءة  
والاطلاع إلى آخر يوم فى عمره ، يقرأ كل يوم ٨ ساعات لا يكمل  
ولا يمل كأنه فى التعليم شاد لا يرى أنه وصل إلى غاية .





## نتاجه الأدبي والفكري:

استطاع الرافعي خلال فترة حياته الأدبية التي تربو على خمس وثلاثين سنة إنتاج مجموعة كبيرة ومهمة من الدواوين والكتب أصبحت علامات مميزة في تاريخ الأدب العربي.

## دواوينه الشعرية:

كان الرافعي شاعراً مطبوعاً، بدأ قرص الشعر وهو في العشرين، وطبع الجزء الأول من ديوانه في عام ١٩٠٣ وهو بعد لم يتجاوز الثالثة والعشرين، وقد قدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته. وتألّق نجم الرافعي الشاعر بعد الجزء الأول، واستطاع بغير عناء أن يلفت نظر أدباء عصره، واستمر على دأبه فأصدر الجزأين الثاني والثالث من ديوانه. وبعد فترة أصدر ديوان النظرات، ولقى الرافعي حفاوة بالغة من علماء العربية وأدبائها قلّ نظيرها، حتى كتب إليه الإمام محمد عبده قائلاً: «أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل».

## كتبه النثرية:

قلّ اهتمام الرافعي بالشعر عما كان في مبتدئه؛ وذلك لأن القوافي الشعرية تضيق عن شعوره الذي يعبر عن خلجات نفسه



وخطرات قلبه ووحى وجدانه ووثبات فكره، فنزع إلى النشر محاولاً إعادة الجملة القرآنية إلى مكانها مما يكتب الكتاب والنشء والأدباء، وأيقن أن عليه رسالة يؤديها إلى أدباء جيله، وأن له غاية هو عليها أقدر، فجعل هدفه الذى يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارساً يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وينفخ فى هذه اللغة روحاً من روحه، يردّها إلى مكانها ويرد عنها فلا يجترئ عليها مجترئ، ولا ينال منها نائل، ولا يتندر بها ساخر إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف دخيلته. فكتب مجموعة من الكتب تعبر عن هذه الأغراض عُدت من عيون الأدب فى مطلع هذا القرن. وأهمها:

١- تحت راية القرآن: المعركة بين القديم والجديد: وهو كتاب وقفه -كما يقول- على تبيان غلطات المجددين الذين يريدون بأغراضهم وأهوائهم أن يبتلوا الناس فى دينهم وأخلاقهم ولغتهم، وهو فى الأصل مجموعة مقالات كان ينشرها فى الصحف فى أعقاب خلافه مع طه حسين الذى احتل رده على كتاب «فى الشعر الجاهلى» معظم صفحات الكتاب.

٢- وحى القلم: وهو مجموعة من مقالاته النقدية والإنشائية المستوحاة من الحياة الاجتماعية المعاصرة والقصص والتاريخ الإسلامى المتناثرة فى العديد من المجلات المصرية المشهورة فى مطلع القرن الماضى مثل: الرسالة، والمؤيد، والبلاغ، والمقتطف، والسياسة، وغيرها.



٣- تاريخ الأدب العربي: وهو كتاب في ثلاثة أجزاء، الأول: في أبواب الأدب والرواية والرواة والشواهد الشعرية، والثاني: في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وأما الثالث: فقد انتقل الرافعي إلى رحمة ربه قبل أن يرى النور؛ فتولى تلميذه محمد سعيد العريان إخراجه؛ غير أنه ناقص عن المنهج الذي خطه الرافعي له في مقدمة الجزء الأول.

٤- حديث القمر: هو ثاني كتبه النثرية، وقد أنشأه بعد عودته من رحلة إلى لبنان عام ١٩١٢، عرف فيها شاعرة من شاعرات لبنان (مى زيادة)، وكان بين قلبيهما حديث طويل، فلما عاد من رحلته أراد أن يقول فكان «حديث القمر».

٥- كتاب المساكين: وهو كتاب قدّم له بمقدمة بليغة في معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنساني، وهو فصول شتى ليس له وحدة تربطها سوى أنها صور من الآلام الإنسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال. وقد أسند الكلام فيه إلى الشيخ على الذي يصفه الرافعي بأنه: «الجيل الباذخ الأشم في هذه الإنسانية التي يتخبطها الفقر بأذاه»، وقد لقي هذا الكتاب احتفالاً كبيراً من أهل الأدب حتى قال عنه أحمد زكي باشا: «لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير وهيجو كما للفرنسيين هيجو وجوته كما للألمان جوته».





٦- رسائل الأحران: من روائع الراقعي الثلاثة؛ التي هي نفحات الحب التي تملك قلبه وإشراقات روحه، وقد كانت لوعة القطيعة ومرارتها أوحى إليه برسائل الأحران التي يقول فيها: «هي رسائل الأحران لا لأنها من الحزن جاءت؛ ولكن لأنها إلى الأحران انتهت؛ ثم لأنها من لسان كان سلمًا يترجم عن قلب كان حربًا؛ ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيًا إلى قبر».

٧- السحاب الأحمر: وقد جاء بعد رسائل الأحران، وهو يتمحور حول فلسفة البغض، وطيش القلب، ولؤم المرأة.

٨- أوراق الورد.. رسائله ورسائلها: وهو طائفة من خواطر النفس المنشورة في فلسفة الحب والجمال، أنشأه الراقعي ليصف حالة من حالاته ويثبت تاريخًا من تاريخه، كانت رسائل يناجي بها محبوبته في خلوته، ويتحدث بها إلى نفسه أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى، ويترسل بها إلى طيفها في جلوة الأحلام.

٩- على السَّفود: وهو كتاب لم يكتب عليه اسم الراقعي وإنما رمز إليه بعبارة إمام من أئمة الأدب العربي؛ وهو عبارة عن مجموعة مقالات في نقد بعض نتاج العقاد الأدبي.

الراقعي ومعاركه الأدبية:

كان الراقعي ناقدًا أدبيًا عنيفًا حديد اللسان والطبع لا يعرف



المداراة، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس، وكان فيه حرص على اللغة كما يقول: «من جهة الحرص على الدين إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة بأحدهما إلا بقيامهما معاً». وكان يهاجم خصومه على طريقة عنتره، يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع، فكانت له خصومات عديدة مع شخصيات عنيدة وأسماء نجوم في الأدب والفكر والثقافة في مطلع القرن، فكانت بينه وبين المنفلوطي خصومة ابتدأها هذا الأخير بسبب رأى الرافعي في شعراء العصر. وكانت له صولات مع الجامعة المصرية حول طريقة تدريس الأدب العربي، وجولات أخرى مع عبد الله عفيفي وزكي مبارك. على أن أكثر معاركه شهرة وحدة هو ما كان بينه وبين طه حسين، وبينه وبين العقاد، بل لعلها أشهر وأقسى ما في العربية من معارك الأدب.

#### خصومته مع طه حسين:

كانت هذه الخصومة بسبب كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» الذي ضمته رأيه في أن جُلّ الشعر الجاهلي منحول، وهي مقولة خطيرة تنبه لها الرافعي؛ فحمل عليه حملة شعواء في الصحافة المصرية واستعدى عليه الحكومة والقانون وعلماء الدين، وطلب منهم أن يأخذوا على يديه وأن يمنعوه من أن تشيع بدعته بين طلاب الجامعة، وترادفت مقالاته عاصفة مهتاجة تفور



بالغيظ والحمية الدينية والعصبية للإسلام والعرب، كأن فيها معنى من معاني الدم، حتى كادت هذه الحملة تذهب بـ«طه» وشيعته؛ إذ وقف معقود اللسان والقلم أمام قوة قلم الرافعي وحجته البالغة، وقد أسرّ «طه» هذا الموقف للرافعي، فما سنحت له سانحة ينال بها من الرافعي إلا استغلها كي يرد له الصاع صاعين. غير أن الرافعي كان يقارعه حجة بحجة ونقداً بنقد حتى توفي -رحمه الله.

#### خصومته مع العقاد:

وكان السبب فيها كتاب الرافعي «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» إذ كان العقاد يرى رأياً مخالفاً لما يرى الرافعي، وقد نشبت بينهما لذلك خصومة شديدة تجاوزت ميدانها الذي بدأت فيه، ومحورها الذي كانت تدور عليه إلى ميادين أخرى؛ جعلت كلا الأديبين الكبيرين ينسى مكانه، ويغفل أدبه ليلغو في عرض صاحبه، ويأكل لحمه من غير أن يرى ذلك معابة عليه، وكان البادئ الرافعي في مقالاته «على السفود» التي جمعها له في كتاب صديقه إسماعيل مظهر، وتوقفت المعركة بينهما فترة وجيزة ما لبثت أن اشتعل أوارها مرة أخرى عندما نشر العقاد ديوانه «وحي الأربعين» فكتب الرافعي نقداً لديوانه، تلقفه العقاد بالسخرية والتهكم والشتم والسباب، ولم تزل بينهما الخصومات الأدبية حتى توفي الرافعي رحمه الله.





وفاته:

توفي الرافعي في مايو سنة ١٩٣٧ عن عمر يناهز ٥٧ عاماً وكان الرافعي إذ ذاك ما يزال يعمل كاتباً ومحصلاً مالياً في محكمة طنطا، وهو العمل الذي بدأ به حياته العملية عام ١٩٠٠ م.

\*\*\*



## فاتحة (\*)

محمد سعيد العريان

كان الرافعي - رحمه الله - شاعر النفس، مرهف الحس، رقيق القلب، قوى العاطفة، يرى المنظر الأليم فتتفاعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه، وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسها الحياء، لقد كان الرافعي يقرأ فيما يرد إليه مع بريد قرائه كثيراً من المأسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل .

ولقد وقعت الحرب العالمية الأولى واستعرت نارها فى الميادين البعيدة، لا يبلغ إلينا منها نارٌ ولا دخان ولا يراق دم، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمتربة أقل عديداً من ضحاياها هناك فى الميدان . . .

كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام؟ رباه! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى - وأنا غلام بعد - أستدعى النجار لعمل عندنا، فوجدته جالساً فى أهله يأكلون كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء، تتسابق

(\*) انظر كتابنا «حياة الرافعي» .

أيديهم إليه في نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصة  
بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية . . . !

هكذا كان يعيش نصف الشعب في تلك الأيام السود، مما فعل  
القحط والغلاء، لأن أقوات الشعب قد حُمِلت إلى الميدان لتخزن  
في دار المؤن وقتاً ما لتقذفها من بعدُ قنابل المحاربين وتذروها رماداً  
في الهواء . . . !

ونظر الرافعي حوالياً فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع،  
فاحتبس الدمع في عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه .

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة، والبؤس تعدد  
ألوانه، وتشكل صورته، وتتشد آثاره، والرافعي دائم الحديث إلى  
نفسه وهو يحمل من هم الشعب في قلبه الكبير، حتى امتلأ الإناء  
يوماً ففاض . . .

\*\*\*

في بعض اللحظات التي تفيض فيها النفس بالألم، يحس  
الإنسان كأنه شيء له في نظام الكون إرادة وتدير، وأن من حقه أن  
يقول للمقدور: لماذا أنت في طريقي . . . ؟ فتراه في بعض نجواه  
يتساءل: ربّ لم كتبت علىّ هذا . . . ؟ لماذا حكمت بذلك . . . ؟  
لماذا قدّرت وقضيت . . . ؟ ما حكمتك فيما كان . . . ؟ ألم يكن  
خيراً لو كان ما لم يكن . . . ثم يتوب إلى نفسه ويفيء إلى الحق،  
فيعود معترفاً يقول: رب، لقد ظهر حكمك، ودقت حكمتك،  
فمغفرة وعمراً . . . !



وتظل حكمة الله مطوية في ظلمات الغيب، لا يتنورها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع في قلبه نور الحكمة، أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم أبداً في حيرة وضلال . . .

في لحظة من تلك اللحظات، أغمض الرافعي عينيه وراح يفكر، وفي رأسه خواطر يموج بعضها في بعض، ثم فاءت نفسه، فرفع رأسه وهو يقول: «رب، ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك . . .!» وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء . . .

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً، ويسرق بعضهم أقوات بعض، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت، فدمعت عيناه ولكنه كان يبتسم، وعاد يقول: «حكيم أنت يا رب! ليتهم وليتنى . . . ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس! . . . كل شيء في هذا الكون العظيم يجري على قدر منك وتدبير حكيم!» .

ثم شرع يؤلف كتابه «المساكين» .

\*\*\*

أخرج الرافعي كتابه هذا في سنة ١٩١٧، وهو الكتاب الرابع مما ألف في المنشور، وثاني ما ألف في أدب الإنشاء، ويعرف به الرافعي في الصفحة الأولى منه فيقول: هو كتاب «أردتُ به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس . . .» .



وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف  
الإنسانى يقول فيها:

«هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقعة  
جديدة . . . فقد والله بليت أثواب هذا الفقر ، وإنها لتسدل على  
أركانه مزقاً متهدلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلفّقها بخيوط من  
الدمع ، ويمسكها برقع من الأكباد ، ويشدها بالقطع المتنافرة من  
حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخبية إلى هم ، وأقبح من الفقر  
ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية ، أو  
المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى  
الأولين . . .» .

وللكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة تربط بين أجزائه إلا أنه  
صور من آلام الإنسانية كثيرة الألوان ، متعددة الظلال ، تلتقى عندها  
أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان  
المستغيث ، فهنا صورة «الشيخ على» الرجل الذى يعيش بطبيعته  
فوق الحياة وفوق الناس ، لأنه يعيش فى نعمة الرضا ، وإلى جانبه  
قصة الغنى الذى حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه  
صاحبه الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع ، فوهب  
لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذا ، وهذه . . . من  
صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع!

وأول أمر الرافعى فى تأليف كتاب المساكين أنه كان فى زيارة  
أصهاره فى «منية جناح» فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ على هذا



رجل يعيش وحده، ليس له حبيب يمسك درهماً، ولا جسد يمسك ثوباً، ولا دار تؤويه ولا حقل يغل عليه، يجوع فيهبط على أول دار تلقاه، يتناول ما يمسك رمقه، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق، رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس، وآمال الحياة. . . ولقيه الرافعي واستمع إلى خبره، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد، لم ينطق فيه أحد بكلمة.

ويصف الرافعي الشيخ علي فيقول:

« . . . هو حليم لنفسه، غضوب لنفسه، وكذلك هو في الخفة والوقار، والضحك والعبوس، والزهو والانقباض، وفي كل ضدين منهما لذة وألم، كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يحيط بها إلا الماء فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هي فيه، فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى ويتحاشونه رافة ورحمة، ويتحاماهم أنفة واستغناء، ثم إن مسه الأذى من رقيق أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه، فيألم وكأن ألمه مرض طبيعي، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمغص بطنه

بالداء أو يمغص ظهره بالعصا!



وهو والدنيا خصمان فى ميدان الحياة؛ غير أن أمرهما مختلف جداً، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به . . .

« . . . وهو رجل سدت فى وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء، فكأنه فى الأرض بطل خيالى يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التى لا تغلوها مادة الأرض ولا مادة الجسم، فهى تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف، وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة فى الجسم أو سعة فى المال أو فضل فى المنزلة، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف . .

« . . . فهو من أجهل الناس فى الدنيا وأجهل الناس بالدنيا . . . وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق، وإن هوت عليه بألوان الخبز والديباج حسبك مائناً لم ترَ قط نضارة البرسيم وألوان الربيع . . . »

هذا هو الشيخ على الذى أوحى إلى الرافعى كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردّه إلى إلهامه، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح .

وقد فرغ الرافعى من كتاب المساكين فى سنة ١٩١٧؛ وفرغ الشيخ على من دنياه بعد ذلك بقليل، ولكن روحه ظلت تعمل فى نفس الرافعى وتملى عليه وتلهمه رأى إلى آخر أيامه بعد ذلك



بعشرين سنة، والواقع أن الرافعي كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضا فيما لا طاقة له به، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله. وإيمانه ذلك هو الذي كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى فى أصعب أوقاته وأحرج ساعاته، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام.

\*\*\*

كتاب المساكين الذى يقول عنه المرحوم أحمد زكى باشا:  
 «لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما  
 للفرنسيين هيجو. وجوته كما للألمان جوته» . . .  
 . . . وهو كتاب اجتمع على إخراجه سببان: أهوال الحرب  
 التى حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء، والشيخ على  
 الجناحى.

محمد سعيد العريان

\*\*\*





إلى صاحب المساكين

لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز  
شكسبير وهيجو كما للفرنسيين  
هيجو وغوته كما للألمان غوته

أحمد زكي باشا



## من كمال النبوة وأخلاق سيد الخلق

كان رسولُ الله ﷺ يقول في بعض دُعائه :

«اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا وَأَمِتْنِي مَسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ». فقال له أنسُ بنُ مالكٍ رضى الله عنه : يا رسول الله إنك لتكثُر من هذا الدعاءِ قال : «يا أنسُ: إن رحمةَ الله لا تُفارقهم طرفَةَ عينٍ»<sup>(١)</sup>.

وخيرٌ عليه الصلاة والسلام أن يكون له مثلُ أحدٍ<sup>(٢)</sup> ذهبًا فقال :  
«لا يا ربُّ، أجوع يومًا فأدعوك، وأشبع يومًا فأحمدك!».

\*\*\*

(١) ذلك بأنهم مادة الأخلاق والعواطف، فهم في الإنسانية كالجيش يقذف به في المهالك لأنه وحده مادة النصر، وعلى هذا من رحمة الله بالناس أنهم في الناس.

(٢) جبل بالمدينة.





### صفحة من الغيب

لما أجمعتُ النيةَ على طبع هذا الكتاب طبعته الأولى ، رأيت فيما يرى النائم أنى فى دار الطبع التى اخترتها له وقد سألتنى جامع الحروف أن أكتب المقدمة لبدأ منها ، فكتبتها ثمّةً ودفعتها إليه ، ثم استيقظت وما برحتُ تدور على لسانى ، وتالله إن خَرَمْتُ<sup>(١)</sup> منها حرفاً ، وهذه هى بنصها وكأنها فاتحة الكتاب من قلم الغيب :

«هذا كتاب المساكين، فمن لم يكن مسكيناً لا يقرؤه لأنه لا يفهمه<sup>(٢)</sup>، ومن كان مسكيناً فحسبى به قارئاً والسلام».

الرافعى

(١) أى ما نقصت .

(٢) قل أن يوجد فى أهل الفهم رجل واحد لا تفهمه طبيعة الحياة الدنيا أنه مسكين .



صفحة من الحكمة

قال الفيلسوف ديوجينيس الكلبي - وهو ذاك الذي رآه الإسكندر الأكبر فقال فيه «لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجينيس» - :

«ينبغي أن تقدر ثروة الإنسان لا بأمواله ومستغلاته، بل بعدد الأشياء التي يستطيع أن يعيش غير محتاج إليها<sup>(١)</sup>» .

\*\*\*

(١) يريد الفيلسوف أن ما نملكه في الحقيقة هو ما نملك أن نستغنى عنه، لأن ما نحتاج إليه بصرفنا في وجوهه وأسبابه فهو يملكنا مصلحاً إن قل ومفسداً إن كثر، وعلى أيهما فهو شاغل عن الانصراف إلى سواه بالانصراف إليه .  
وحكمة الفيلسوف تنظر إلى القول المأثور: «القناعة كنز» .  
ومن بديع قول هذا الحكيم: يكون الأسد حبيساً في قفصه، ولكن الحبس لن يجعله عبداً لمن يطعمه .



## مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وضعتُ هذا الكتاب من إحدى عشرة سنة (\*) ولو استوى في أحد عشر قرناً ثم كتبت له يومئذ مقدمة لكان هو هو كما أصفه اليوم، كتاب ليس له قبل وليس له بعد، فهو دائر مع النهار والليل على معنى آخره في الإنسانية أوله معنى، إذا قلت فيه إنه يجيء مع كل مولود فقد قلت إنه لا يموت مع أحد من الموتى.

ستقرأ في الكتاب وصف «الشيخ علي» الذي أسندت إليه الكلام، وجعلته فيما أستوحيه كالخيط من شعاع السماء تهبط عليه تلك المعاني التي خلد عليها جمال الخلد، «فالشيخ علي» هذا هو رمز في كل دهر لثبات الجوهر الإنساني على تحوّل الأزمنة في أشكالها المختلفة، ومن ثم تعيش مع الإنسانية معاني هذا الكتاب، فهو من روحها صورة وحلية وجاذبية، ومن عجيب الحكمة أنه ما من نبي أو حكيم أو شاعر يترجم إلى لسان الحياة ما هو أسمى من الحياة إلا استمد ذلك من مساكين الحياة الخاصة، هم أبدأ السحابة المستوية المخيلة لمطر العواطف (1) على جذب الروح الإنسانية في

(\*) كتب المؤلف هذه المقدمة سنة ١٩٢٩.

(١) المثلثة التي يؤمل فيها المطر.



الأرض، ولعلمهم لذلك يتراكمون في الحياة من سواد كالغمام،  
ويتشققون من نار كالبروق، ويجلجلون برعود يثنون فيها،  
ويتبجسون بمطر يبكون به<sup>(١)</sup>.

وأعجب من ذلك أنك لا تجد من شيء يحدث من ذي نفسه مثل  
هذا الأثر<sup>(٢)</sup> إلا أجمل الجمال في أقوى الحب، فكأن أعظم البؤس  
وأعظم الجمال صورتان لحكمة إلهية واحدة وإن اختلف منظر  
ومنظر، والسماء تغير بلون التراب في رأى العين حين لا تحمل إلا  
ماء المزن الصافى.

\*\*\*

يزعمون أننا في عصر العلم وفي دهر القانون، ويريدون أن  
يسلبوا الناس إيمانهم، كأن الإيمان هو مشكلة الإنسانية، مع أنه لا  
حل لمشكلتها إلا به، إن مسألة الغنى والفقر وما كان من بابهما لا  
يحلها العلم ولا القانون، إذ هي من مواد القضاء والقدر في إنشاء  
الآلام والأحزان وأضدادها التي تقابلها، وما دام فوق الإنسانية من  
السماء قوة لا تُحد، وتحت الإنسانية من القبر هوة لا تسد، فلا نظام  
إلا على تصريف النفس أمراً ونهياً، وتأويل الحياة معنى وغاية، فإن  
لم يكن الشأن في ذلك مقررأ في الغريزة على جهة الإيمان، فلن

(١) جلجلة الرعد، دويه، وتبجس الماء: تفجره واستعماله في المطر هنا مبالغة  
في انتزاع الوصف.

(٢) يقال: فعل كذا من ذي نفسه ومن ذات نفسه: أى طبعاً لا تكلفاً.





يكون العلم والقانون على ظاهر النفس إلا ثورة بما فى باطنها، ولن يبرح الناس على ذلك بعضهم من بعض كالهارب منه وهو مضطر إليه، أو كالمضطر إليه وهو هارب منه، وكل من كل فى معنى من معانى النفس لا إنسانية فيه .

ما زاد العلماء على أن خلقوا فى ساعدى الحياة هذه العجلة البخارية وذلك العصب الكهربائى، فمن لم يستطع أن يتوقى ضربة الحياة المدنية بعدة من قوة وعناد من المال، طاحت به فدكته ذلك الخسف ووضعته من الناس موضع الحبة من الرحى الدائرة فما بينه وبين أن ينهار موضع يستمسك عليه، وإنما هذا الموضع هو إيمان المؤمن إذ يعطف على الضعفاء أو يسعد أو يبر بما كتب عليه أن يرق لهم من ذات نفسه ويتحنى ويتوجع .

ومتى كان العلم والدين يقومان جميعاً على تنظيم الطبيعة فى مادتها وإنسانيتها، لم تجر الإنسانية إلا على ناموس بقاء الأصلح فى الجهتين «فإذا تخلى بها العلم وحده فلن تجرى أبداً إلا على ناموس بقاء الأصلح فى ظاهرها لإيجاد الأفسد فى باطنها» .

لن يفلح الإنسان للحياة الطيبة - ما دام بهذا التركيب الذى لن يتغير - إلا إذا وازن بين بيئته التى هو يوجهها وبين طباعه التى هى توجهه . فقيد أشياء فى قيودها، وأطلق أشياء من قيودها، وجمع فى متبواً نفسه حداً بحرية ودينياً بعلم، بيد أن طغيان العلم فى هذه



المدنية قد مرد عن طباع<sup>(١)</sup> الإنسان وشمائله فى كل موضع من الحياة لا تكافئه فيه قوة الدين، فإذا هو يزين الشهوات، وإذا الشهوات تطوع المغامرة، وإذا المغامرة تجلب المنازعة، وإذا المنازعة تدفع إلى الحرص، وإذا الحرص يتصرف بالحيلة، وإذا الحيلة تهلك التقوى، وكان فى تقوى الإنسان إيمانه، وكان فى إيمانه رحمته، وكان فى رحمته الأثير الإنسانى الذى تعيش فيه الروح، وعلى ذلك يقع فى الإنسان من النقص بمقدار ما يزيد له العلم، فإذا هو منحدر إلى السقوط، مقبل على المحق، راجع إلى الحيوانية بأكثر مما يحتمل تركيبه منها، أو لا يرى الناس أن تفوق أمة على أمة لم يعد فى هذه المدنية إلا معنى من معانى القدرة على أكلها . . . !

ومضى العلم على شأنه ذاك حتى جعل الإنسان آلة من آلاته التى غمر بها الدنيا، فأصبح من لا إيمان له يتعسف خسائسه<sup>(٢)</sup> لا يدري أين يؤم منها وأين يقف، فلا يتسفل بقوة إنسان ولا بضراوة وحش، ولكن بقوة آلة من الآلات الكبرى ودقتها وسرعتها وإتقانها . . . حتى لا رذيلة من رذائل هذه المدنية إلا هى مفضنة فى تركيب على نسق الأمور المخترعة، وكأن الآلات العمياء ما زادت إنسانها شيئاً إلا أن قالت له كن أعمى . . . وكان المدنية الملحدة ما عدت أن جعلت الوحشية تعمل أعمالها الفظيعة بتأنق وتمدن . . .

(١) أى مرن عليها واستمر وبلغ منها الغاية التى تخرجها من جملة ما عليه الطبع الإنسانى الكريم.

(٢) بتخبط فيها على غير هدى.



نسى الناس الإيمان أو انسخلوا منه، فإذا أيديهم تموج بأسباب الفضائل<sup>(١)</sup> لا تحكمها ولا تضبطها، وما كان الإيمان الصحيح إلا التقوى<sup>(٢)</sup>، ولا كانت هذه التقوى إلا عملاً من أعمال الإرادة غايته إيجاد الغرائز العليا في الإنسان بالأسلوب الذي لا تخلق الغريزة العملية في النفس إلا به، وعلى النحو الذي لا تصلح في الحياة إلا عليه.

أظهر آثار الإيمان<sup>(٣)</sup> تحديد الغايات الإنسانية وتنسيقها والملاءمة بينها، فإن إطلاق الغاية لكل إنسان على شأنه وسبيله كيف درت معيشته<sup>(٤)</sup> وكيف دارت أهواؤه -يجعل طرق الناس متداخلة متعادية فيقطع بعضها على بعض ويقوم سبيل في وجه سبيل، فلا تحل عقدة إلا من حيث تقرض أختها، ولا يتخلص خيط من خيوط اللذات الملتبسة المتشابكة إلا قاطعاً متقطعاً معاً؛ وأنت إذا بحثت عن الوحدة التي تحاول ضم الإنسانية المتنافرة وردها إلى مرجع واحد، لم تجدها في غير إيمان المؤمنين؛ فهو أبداً يقابل في كل نفس ما

(١) ماجت اليد بالشئ: إذا اضطربت به، كأن أيديهم لا تضبط أسباب الفضائل من ضعفها عنها.

(٢) الإسلام كله في كلمة التقوى كما بيناه مفصلاً في كتابنا (إعجاز القرآن) فانظره، وكلمة التقوى من معجزات هذا الدين، لقد قال (هسكلي) قسيم دارون الشهير: «إن الدين هو إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه في الحياة» وكل هذا من قول أستاذ القرن التاسع عشر، وكل ما سبقه به الفلاسفة والحكماء، وكل ما جاء وما سيجيء هو من معالي (التقوى) في الإسلام، لا تضيق الكلمة عن شئ منه.

(٣) سيأتيك فيما تقرأ من الكتاب كلام كثير عن الإيمان وفلسفته.

(٤) كتابه عما تتفق به أسباب العيش وتجتمع وتركو.



تطغى به الحياة على أهلها، ولا عمل له إلا أن يحذف الزيادات الضارة بالإنسان من بيئته، وبالبيئة من إنسانها، وهو بهذا حائل في كل مجتمع بين أن تنقلب أسباب السمو العقلي فتعود من أسباب الدناءة والخسة .

وإنما محل الإيمان من أهله فوق محل الحكومة ممن تحكمهم! فهو الأمر والنهى بلغة الدم والعصب؛ وهذه الغايات التي تتألف من أجلها الحكومات: كآمن الناس ونظامهم وحریتهم وسعادتهم، هي أنفسها محكومة بمسائل تأتي من ورائها في طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم، فإن لم تكن في النفوس من الدين أصول تأمر وتحكم، وفي الطبائع من اليقين أصول تستجيب وتخضع، رجعت الحكومة في الناس أداة مسلطة لا تغنى كبير غناء في الخير والشر، إذ يحتاج الخير أبداً إلى قوتها تحميه، ويحتاج الشر أبداً إلى قوتها تستنقذه، ومتى لم يكن الخير إلا بالقوة فاحتياجه إليها شر، ومتى لم يكف الشر عن القوة فاحتياله عليها شر مثله، فإذا تضعضت من الأديان هذه الدعائم الراسية، وفرط من الإنسانية هذا الفارط الذي ليس في الأرض كفاء منه - لم تجد حسنة في حكومة من الحكومات إلا معها من طبيعتها سيئة، ولم تجد سيئة إلا هي سيئتان، فلن تكون الحياة حينئذ إلا تعقيداً أشد التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى، ومن حقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة .

والغنى القادر على متع الحياة ولذاتها هو دائماً في فلسفة العاجز قادر بلا قدرة، كما أن الفقير الضعيف هو دائماً عند نفسه عاجز بلا





عجز ، ولا أدل على ذلك من تعبيرهم عن معناه بالكلمة التي تشبه أن تكون هي أيضاً معنى بلا معنى . . . . . وهي الحظ . فلا بد للناس من الحدود التي تبني بين كل ضدين من أحوال الإنسانية جداراً يعطف نفساً على نفس بالرحمة ، ويرد قوة عن قوة بالصبر ، ويكف عادية عن عادية بالتقوى ، ويحقق عوامل التوازن بين أسباب الاضطراب في الجماعات المتصادمة ، ليقر كل مضطرب في حيز إن لم يمسه فيثبت فيه لم يفله فيعدو على سواه .

فإذا عملت المدنية على هدم هذه الحدود وتركت قوة الإيجاب في طبيعة الحياة بغير قوة سلبية من الإيمان في طبيعة النفس ، كشفت للإنسان عيوبه ببلاغة من تعبير شهواته فزادتها رسوخاً فيه ، كما تقول للص : إنك لتسرق وستصبح غنياً تمر يدك في الذهب تنفق وتستمتع على ما تشتهي . . . . . فما يراك قلت له : لا تكن لصاً وتعفف ، بل قلت له كن غنياً واستمتع ، ويومئذ يغبرُّ البؤس ويقشعر الفقر كما نرى لعهدنا في الأمم التي فشا الإلحاد فيها ، فليس من بعد إلا أن يتحول الفقر عن صورته البيضاء في سكب الدمع إلى صورته الحمراء في سفك الدم ، وكان سؤلاً فيعود اغتصاباً ، وكان الأسفل فيرجع الأعلى ، وكان يفرضه الحق فإذا هو الحق نفسه . والله لكأن المسكين في هذه المدنية هو الجزء اللئيم الذي طرده الغنى من نفسه وتبرأ منه وأمات ما بينه وبينه ، فإذا هما اعترضتا في مذهب من مذاهب الحياة ، نفر الغنى كأنما يرى قبره يدنو منه ، وأطبق عليه البائس بمعاني النعمة واللعنة يقول له : ما أنا إلا لؤمك أنت !



إن من الشجر شجرة تنبت في القفر تعتصر ماءها من بين رمل وحجر، وتمتص غذاءها من لؤم الجذب، فإذا حان أن يزهر عودها شوك فلا يكون في عقده ونبره<sup>(١)</sup>، إلا شوك شوك، فإذا ازدرعوها في الخصب وخضلها الماء<sup>(٢)</sup> وسأغت لها الطبيعة، ثم حان أن يزهر عودها، ملسه كرم الأرض<sup>(٣)</sup> فإذا في موضع كل شوكة زهرة كأنها كلمة الحد، وكذلك مثل الفقير بين الملحد والمؤمن!

ترى أ يخرج الإنسان في هذه المدينة من عصر العقل إلى عصر القلب، أم هو منحدر من عصر عقله إلى عصر معدته، ثم إلى<sup>(٤)</sup> . . . ؟

وكان على هذه الأرض أغنياء مؤمنون فيها من كرم الحس شبه الفقر، ومساكين مؤمنون لهم من كرم الصبر شبه الغنى، فهل تنقلب المدينة من الغنى المحض والفقر المحض إلى مادة تخلق اللحم الحى وأخرى لا تخلق له إلا الظفر الحى . . . ؟

وكان اختراع الإنسان في المادة الجامدة، أفتراه يجيء يوم على الناس يكون أعظم اختراع فيه للإنسان الأخير أن يعيد إلى الأرض إنسانها الأول الكريم؟

**مصطفى صادق الرافعي**

(١) النبر: النشوء الذي في العود.

(٢) بلها الماء.

(٣) نعمته وأدمجته وأزالت نتوءه.

(٤) تحت العدة: الأمعاء.



## مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقرَ من صفحاته مرقعةً جديدةً . . . فقد والله بليتُ أثواب الفقر وإنها لتسدل على أركانه مزقاً متهدلةً<sup>(١)</sup> يمشى بعضها في بعض ، وإنه ليلفّقها<sup>(٢)</sup> بخيوط من الدمع ، ويمسكها برقع من الأكباد ، ويشدُّ بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخبية إلى هم ؛ وأقبحُ من الفقر أن لا يظهر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى<sup>(٣)</sup> الأولين .

وأنت فر بما رأيتَ الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا مسحة الدينار ، وعليه من نضرة هذه الحياة ألوان الجنة ، والنار . . .<sup>(٤)</sup> وما تشك فى أنه واسع البسطة ، عريض النعمة ، طيب المكسبة ، وهو على ذلك رقعة خلّق<sup>(٥)</sup> فى أذيال الفقر يجررها على أقدار الحياة وأدناسها ، ولو نطق له الغنى لقال : دعنى ، فما كل ذى متربة فقير ،

(١) أى قطعاً مسترخية .

(٢) لفق الثوب : ضم شقة منه إلى شقة .

(٣) أى الأفكار الساقطة ، مما هو مبعث الجريمة والرديلة .

(٤) كناية عن الأعمال التى تؤدى إليهما معاً .

(٥) بالية ، والكلمة للمؤنث والمذكر .



ولا كل ذي مشرة غنى<sup>(١)</sup>، والفضائل قائمة في الدنيا بالصغار والفقراء، ولكن من نكد الدنيا أن عنوانها هم الكبراء وحدهم؛ على أن أكثر هؤلاء لا تكون منهم في كل أمة إلا الطبقة المنحطة انحطاطاً... عالياً... فالناس مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقر إذ حاصروه، من جهاته الأرضية وقد ترامت، وضيّقوا من حدوده السماوية وقد تراحت<sup>(٢)</sup>، وإنما هو طبقة معنوية فوق الأرض وإنما هو أسلوب خاص في نظام الكون، ولا سبيل إلى التنقيح والتحرير في أساليب الله نصرها عن معانيها، أو نتكذب في تأويلها، أو نردّ عليها ما ليس منها، وإنما الشأن كلّهُ أن نحسن الفهم عن أوضاع القدرة الإلهية بمقدار ما نستبين فيها من الحكمة، فإن في ذلك صلاح أنفسنا، وما جعل الله في سبيل المصلحة والمفسدة إلا من أفهامنا، حتى إن الأدمغة لتعدّ من أكبر العلل في أمراض التاريخ الإنساني، وربما كانت العلة الكبرى في طائفة من الطوائف صورة أثرية لأكبر رأس فيها.

فإن نحن أسأنا الفهم أو ذهبنا به المذاهب أو أفسدنا من تأويل حكمة الله أو غيرنا أو بدّلنا، فذاك واقع بنا لا يعدونا، وما يستولى على الكون من جهلنا اضطراب ولا تحلق به آفة في وضع من أوضاعه، وإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

(١) المثرة: ما يكون سبباً لتكثير المال.

(٢) ترامت وتراحت: بمعنى اتسعت.





وما دام فى هذه الدنيا من المادة أو المعانى يُحتاج إليه أو يتوهم  
أحد أنه محتاج إليه ، فى الدنيا الفقر .

وما دام للناس رغبة يتنافسون فيها أو يرفعون من شأنها  
بالمنافسة ، فثمَّ الحسد .

وما دام فى الغيب أيام وآمال وفى الدنيا فقر وحسد ، فهناك  
الطمع .

وما دام لهؤلاء الناس من أشياءهم ما تحملهم أخلاقهم على  
الظنَّ به ، أو يكون سبيله من الطبيعة أن يُظنَّ به ، وفيهم الفقر  
والحسد والطمع ، فثمَّ خبءُ السوء والرذيلة الماحقة وثمَّ البخل ؛  
وإن البخل وحده لفى حاجة إلى نبيَّ يصلحه !

هذه أخلاق أعرقت فيها الإنسانية ولا بد منها ومن فروعها حتى  
يظنَّ الناس ناسًا لا ملائكة ولا شياطين ، فإن من عجيب حكمة الله  
أنه لا صلاحَ للعالم إلا بالفساد الذى فيه .

بيد أن فى كل شر جهة من الخير أو جهة تتصل بالخير ، فإذا  
صلاح فهمه صلاح هو أيضاً أو كأنه صلاح لظهور حكمته والوقوف به  
عند حد الشر الطبيعى ، وهو الشر الذى لا بد منه .

فليكن الفقر والحسد والطمع والبخل ، ولكن برضا يمنع  
السخط ، وسكون يكسر شرَّة النفس ، ورفق لا يعنفُ على الحق ،



واعتدال يقرُّ كل شيء على حدّه<sup>(١)</sup>، يومئذ يجد الإنسان في كل نزوة من نزوات جنونه شيئاً من الحكمة، أو على الأقل شيئاً يمكن من بعض الوجوه أن يسمى في باب المنفعة الإنسانية: حكمة.

\*\*\*

ولقد كان الفقر عرباناً يوم كان آدم في الأرض وليس عليه إلا ما خصف من ورق الجنة<sup>(٢)</sup>، وعاش دهرًا تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب ويمرح في ثياب بيضاء من أشعة القمرين؛ إذ لم يكن يعرفه أحد بعد ولا استطار به سماع السوء<sup>(٣)</sup> في الأحياء، بل كان عنصراً مجهولاً في غيث الطبيعة، ولم يكن لهذا الإنسان يومئذ من المعانى الفقرية... غير شعور طبيعي لا زيغ في تأويله عن الطبيعة، وهو شعور المعدة القوية المعصوبة التي لا تحتل الشعر والخيال وفنون الكذب العقلي، ولا تشعر إلا لتطلب، ولا تطلب إلا ما تجد، ومتى وجدت وانطفأ نهمها<sup>(٤)</sup> فليس إلا قوة الجسم وانبساط النفس وحمد الله في كل ضرب من ضروب الجمال في الخليقة.

ثم كانت عداوة ابني آدم إذ قرباً قرباناً من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وفتحت الصفحة الأولى من تاريخ الدم الإنساني في الأرض، فكان البغض أول سطورها، وجاء من بعده الفقر،

(١) عندنا أن الفضائل شهوات محدودة، والرذائل شهوات مطلقة، وأن السعادة الممكنة أن نجعل كل شيء في حدّه.

(٢) خصف الورق على بدنه: ألزقها وأطبقتها عليه ورقة ورقة.

(٣) أى الذكر بالسوء.

(٤) النهم: إفراط الشهوة في الطعام.



وخطت بعد ذلك سطوراً وسطوراً كلها يلتقى إلى هذين المعنيين، يومئذ عرف هذا الفقر وأصبح يتلبس في كل إنسان بمعنى يلائمه، إذ لم تعد الحياة هي الحياة بل الوسائل التي يدفع بها الموت، ومنها نفسه، فصار البغض وسيلة، والحسد وسيلة، والطمع وسيلة، والقتل وسيلة، وكل ذلك لأن الإنسان فقير بمعنى من معاني الفقر، وما البغض إلا فقر من المحبة، ولا الحسد إلا فقر من الثقة، ولا الطمع إلا فقر من العقل.

وإن أردت العجب فاعجب لهذه الطباع الإنسانية إذ يحاول كل امرئ أن لا يفهم من معنى الفقر إلا ما يمكن أن يجريه على الناس كافة، حتى لا يكون هو وحده المبتلى في نفسه الممتحن في سعادته، وحتى يجد مادة العزاء من حيث التمسها، فالفقر على ذلك هو العوز إلى المال، وهذه بلية عليها يحيا الناس وعليها يموتون، ولقد كان الفقر قبل أن يكون المال، ثم وجد المال فما منع أن يلقي أهله الأغنياء من هموم الدنيا وبأساء الحياة ما لو استطاعوا لافتدوا من عذابه كل ما في أيديهم ولو أن لهم طلاع الأرض<sup>(١)</sup> ذهباً، ووجد المال فما منع الفقر أن يخولهم الله من رحمته التي لا تفارقهم طرفة عين ما لا يحبون أن لهم به من الدنيا ولا الدنيا كلها<sup>(٢)</sup>.

(١) أي ملء الأرض.

(٢) كانت معدة «مورغان» الأمريكي صاحب الملايين الكثيرة ضعيفة فجعل مائة ألف جنيه لمن يشفيها. ورأى الأطباء أن ينتزعوها ويبدلوه منها معدة كلب، فخشى الهلاك وأبى، فمعددة الرجل الفقير هي في جوفه أئمن من مائة مليون جنيه في يد ذلك المسكين، وهي الكنز لا هذا المال الذي لا يشتري معدة.



دخل بعض الفقراء<sup>(١)</sup> على الرشيد العباسي وتاجه يومئذ سبيكة العصر الذهبي في تاريخ الإسلام، والإسلام يومئذ ترتجف به دفناً الشرق والغرب وكان الشمس والقمر يتلأآن على أرجاء ملكه ذهباً وفضة<sup>(٢)</sup>، وكان في يد الرشيد كأس ماء وقد رفعها إلى فمه، فلما أبصر ذلك الملك الذي لا يملكه شيء أمسك ثم قال له: عظني! قال، أرايت يا أمير المؤمنين لو مُنعت عنك هذه الشربة التي في يدك، أفكنت تطلبها بكل ملكك؟ قال: نعم! قال: أفرأيت لو شربتها ثم امتنع خروجها منك، أكنت تفتدى من عاقبة ذلك بكل ملكك؟ قال: نعم! قال الرجل الصالح: فانظر يا أمير المؤمنين، ما قيمة مُلك لا يساوي عند قدر الله شربة ولا . . . ولا بولة . . .!

وكذلك يحاول الناس أن لا يخطئوا الرأي فيما يستحبونه أو يطمثون به، وكأنهم لذلك يحاولون أن لا يصيبوا الحق فيما يكرهون أو ينفرون منه، فكلهم سواء في ابتغاء السعادة المتوهمة التي لا يستحيل أن تتفق، ولكنها مع ذلك لا تتفق، إذ يريد كل امرئ على غير ما يناسب تكوينه الإنساني . . . وهم بعد على سواء من خشية الفقر، كأن فقرهم بين أعينهم، فلا تبرح أو هامهم تنتجى<sup>(٣)</sup> بمعانيه وهمومه، ثم لا تبرح تنمى بها حتى صار الفقر في

(١) هم الصوفية، ولقب الفقير أشرف ألقابهم لأنهم أهل الحقيقة.

(٢) رأى الرشيد يوماً سحابة تمر في السماء فقال: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك!

(٣) أي تتناجى! ويقال: فلان فقره بين عينيه: إذا كان دائماً يخشاه فلا يقنع ولا بهناً، وهو ألام الفقر، وكثيراً ما يكون في ألام الأغنياء.





أنفسهم غير الفقر في نفسه ، وقد علم الله أنه ما من إنسان إلا وفي تكوينه معانى كثيرة منه ، على أن السعادة الممكنة أو التى يمكن أن تسمى سعادة ، إنما يكون زمامها الحس ، إذ هو الوسيلة لإدراك الجمال وتعرفُ المواضع المعنوية فى المادة والاهتداء فى صنع الله إلى أسرار الحكمة ، وليس من لذة يصيبها الإنسان فيسميها لذة إلا وهى شىء معنوى يجىء من طريق الحس فيشعر هذا الإنسان أن فيه معنى لم يكن فيه ، وكأن اتصال شىء من سر النفس أو قدرتها بشىء من سر الطبيعة أو قدرتها هو السعادة .

غير أن العجيب الذى ما يقضى منه عجباً أن ذلك الحس كلما نضج واستمر<sup>(١)</sup> كان أشد إدراكاً للآلام منه للذات ، حتى أن الرجل الرقيق ليتألم للناس أكثر مما يتألم لنفسه ؛ فهل ذلك إلا أن حكمة الله قد أقرت فى تركيب الإنسان من عناصر الفقر أكثر مما وضعت فيه من عناصر الغنى ؟

وما أشبه نفوس الناس فى هذه الحياة بالزجاج سلط عليه نور الشمس ؛ فما كان من طبعه رديئاً غير مصقول ، أو مهملاً قد شاع فيه الصدأ ، فذلك متى ألحت عليه وقدة الجوّ حمى وتضرم فى ذات نفسه ؛ وما كان من طبعه صافى الماء بادی الرونتق نقى الصفحة ، رأيته فى توقده واضطرامه كأنما يمجُّ من شعاع الشمس لهباً يتطاير ؛ فإن كانت الزجاجاة قد أخلصت فى سبكها وصُنعت على الوجه الذى يجمع الضوء ويعكس منه وأحكمت من هذه الناحية ، فهناك

(١) استمر الأمر أى انقدا ، والمعنى الحس الكامل المطاوع .



تبلغ من دقة الحس مبلغ الأنفس الرقيقة المهذبة، فلا تكاد ترسل عليها الشمس من نورها حتى يرجع فيها نار تلتظي .

ومتى اعتبرنا الشقاء الإنساني وما يعترض الإنسان في طريق الحياة، رأينا الحق الذي لا مريّة فيه أن هذا الإنسان تمشى راحلته إلى القبر<sup>(١)</sup> لا يكون قد انتهى من الحياة كما يقال . ولكنه ينتهي حينئذٍ من الموت .

فهذا التركيب الإنساني المعجز بقليله وكثيره وجملته على السوية، والذي استشرف منه العقل لأسرار هذا العالم كما تُوجّه مرآة المرصد إلى السماء لم يشهده عصر من عصور الدنيا قطُّ إلا ذاهباً إلى الفناء بما كسب وما اكتسب، حتى ليتمكن أن يقال إن حياة الحى مصيبة تكبر كلما كَبُرَ . . . فكيف لعمرى يحتمل هذا التركيب الهالك أن يسعد إلا بمقدار ما يُدنى إلى الفهم معنى السعادة الأبدية التى ليست من هذا العالم، كما تريد أن تفهم الطفل شيئاً فى نفسك فيراه معنى متمرداً عاتياً، فلا تزال أنت تصغر منه وتمسخه وتحيله عن وضعه وتقلبه على وجوه مختلفة، إلى أن توافق صورة من هذه الصور فهمه الصغير الضعيف المتحامل على نفسه، فيدرك الوجه الذى أردت على الوجه الذى يريد هو، ويعلم ما ترمى إليه على الطريقة التى لا تعلمها أنت<sup>(٢)</sup> .

(١) كناية عن الجنّاة، ويقال من المجاز: مضت راحله: إذا شاب وضعف،

ولكننا استعملناها كما ترى فأصابت حقها .

(٢) أى تركيب وتتخذ كل معنى راحلة وظهراً، والكلام استعارة .

ولعل هذا هو السبب في أن الفطرة الإنسانية لا تزال من أول الدهر ضالة في طلب السعادة، تسترحل<sup>(١)</sup> إليها كل معنى ثم لا تصل إليها بمعنى، فإن السعادة الدنيوية في التركيب الإنساني إنما هي بمقدار لغوى أو ما يشبه المقدار اللغوى لا غير.

وإذا نحن اعتبرنا هذا الوجود الفانى بما وراءه من عالم الغيب، رأينا كل صنف من الموجودات كأنه لغة متميزة بخصائصها أو جدها الله في هذه الحياة لتدل عليه سبحانه بنوع من الدلالة أو ضرب من المجاز، فأينما مدَّ الإنسان عينيه رأى لفظاً كالإشارة أو إشارة كاللفظ.

ولكن قتل الإنسان ما أكفره! فإن ما لا يريد أن يفهمه ليذكره ويتذكر به أكثر مما فهمه لينساه، ولقد رأى أن ما فوق الأرض وما تحت السماء لا يدلّه بإشارة واحدة على أنه خالّد في هذه الحياة الدنيا.

بيد أن الإنسان كما يكذب في الكلام يكذب في الفهم؛ فهو أبداً يحتاج - لشقوته - من هذه الطبيعة إلى أشياء تضلُّ عواطفه، كما يحتاج إلى أشياء تهديها، ومن ههنا اقتحمت أهواؤه ونزغاته على الطبيعة وعلى الشرائع والأديان، والتبست رأيه معانى الأشياء التى تتصل بنفسه، فظهر من الغنى ما يشبه الفقر، ومن الفقر ما يشبه الغنى، وصارت الحياة كلها جهاداً وشقاءً ونصباً، لأن

(١) سيأتى فى الكتاب رأى (الشيخ على) فى السعادة. وفى كتبنا «حديث القمر» ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر» من ذلك أشياء كثيرة.



المشکل فیها أكثر من الواضح ، ولأن الطريقة التي يتبعها الإنسان الراقى . . . . فى حل هذه المشكلات التي تعترض مطامعه وأغراضه ، هى أن يحلّ مسألة بوضع مسألة مثلها . . ذلك لأنه لا يهتدى إلى الكمال فى شىء ، وهو ناقص ولا يُدعن أنه ناقص ، وإلا فما باله يرى الحكمة الأزلية قد جعلت قوام صحته على القليل من الطعام دون الكثير ، وعلى الخفيف دون الثقيل ، وعلى الرخيص دون الغالى ، وعلى الطعام كما يفيد الطعام دون الطعام كما يريد ، ثم هو يأبى إلا أن يعد هذه الصفات وأشباهاها فى باب القلة من الفقر ، ويعتبر نقائصها وما جرى مجراها فى باب الكثرة من الغنى ، ثم يضرب الله أن يكون المبالغة فى الادخار ، والإغراق فى الجمع ، والطماح كل مطمح ، وأن يستأكل الناس فيكون عليهم أكلب<sup>(١)</sup> من الجوع ، ويستصفيهم فيكون فيهم أسرع من المرض ويستز لهم فيكون معهم أشبه بالرديلة ، ونحن نعرف الكدّ والحرص والبخل والشهه والضراوة وكل الرذائل الاجتماعية ونصفها ونحدّها بأثارها وحقائقها ، وكأننا لا نعرف أن كل رذيلة هى إنسانٌ من الناس .

وقد رأينا الحكومات تجمع الأنواع والنبات والحيوان تؤلف منها الكتب الحية على نسق الطبيعة نفسها وهى تلك التي يسمونها «المعارض» و«المتاحف» ولم نر حكومة واحدة أقامت معرضاً حيوانياً لأشخاص الرذائل يُدرس فيه علم مقابلة الطباع فى

(١) كلب الجوع : سعاره وشدته . واستأكل الناس : إذا أكل من أموالهم .





الإنسان وبين الغرائز في الحيوان، وعلم الانحطاط الاجتماعي وفن الطبقات السفلى من الحياة، وتؤخذ منه أمثلة الاعتبار والمواعظة والنصيحة في أبواب مختلفة؛ ولو قد فعلت ذلك أمة من الأمم لرأى الناس فيما يرون هناك من كبار اللصوص وأهل الإثم والشر والفساد عدداً كبيراً من كبار... من كبار الأغنياء...؛ ثم لرأوا كيف يتصل تاريخ الطمع بتاريخ البخل، وكيف يتصل هذا بتاريخ الغنى، ولظهر لهم بطلان معان كثيرة مما يعده الناس في باب الحقائق؛ إذ لا تجد الرذيلة هناك من يكابر فيها أو يغربها أو يناضل عنها، ولا صاحبها نفسه؛ لأنه في قفص من أقفاص المعرض... وكأنه ثمرة معنى من الباطل محبوس في شكل من البرهان على فساده!

وليت شعري - وذلك معنى الغنى - هل يظن من اجتمعت له نفقة ألف سنة أنه سينال فيما بقي من عمره القصير لذة كلذة عيشه ألف سنة، وأنه إذا ادخر ما يقوم بمائة ألف إنسان فقد صار هو في الأرض مائة ألف بطن...؟ إن حياة الغنى على هذا الوجه لا تكون إلا موتاً على طريقة الحياة... فليس الإسراف في جمع المال والكلب عليه إلا طريقة دنيئة لإنفاق العمر، وليس حب المال والبخل به إلا وجهاً من بغض الناس وازدراؤهم وهو مهما احتجوا له وتمحلوا فيه وناضلوا عليه ليس أكثر من كونه شعوراً ذا جهتين: فأما من جهة البخيل فهو الحب للنفس لا غير، وأما من جهة النفس فهو البغض للناس لا أكثر ولا أقل!

ولأيسر على الناس أن يرتووا من رشح الحجر ويغتذوا بلبن الطير<sup>(١)</sup> من أن يجدوا في الرجل البخيل بعضاً لشيء من المال يرضخ به محبة لهم وشفقة عليهم وحناناً من لدنه، قديماً كان البخيل أبغض الناس لهم وأبغضهم إليهم وأبغضهم فيهم، وما أقبح هذا البخيل - أخزاه الله - أن يكون بغضاً ثلاث مرات .

ولو أن رجلاً من هؤلاء الذين بسط الله لهم فقبضوا، وجاد عليهم فبخلوا وأعطاهم فأمسكوا - وقد أراد الله به خيراً فوقاه شح نفسه، ويسر له في أخلاقه ومكّن له في باب البذل والجود، وآتاه من حب الخير بعض ما ابتلاه من حب المال؛ لرأيت حياته توسعة على قوم في معاشهم، وإحياء لقوم في أمالهم، وعتاداً لقوم في أعمالهم، ومنفعة لآخرين من وجوه كثيرة؛ ولرأيت في غناه بركة العدل ورحمة الأمن وعصمة الخلود، فكأنه استجمع في حياته الطيبة خيرات الأعمار الكثيرة وكأنه أمة في نفسه ثم لا يكون رجل أحب إلى الناس ولا أجدر بطبيعة الحب الإنساني منه، ثم لا تجد اسمه إلا في واحدة من ثلاث: إما صفحة تكتبها الأعمال للتاريخ، أو صفحة يُفردها الناس للأخلاق، أو صفحة ترفعها الملائكة إلى الله بل أحرر بهذا الاسم الكريم أن يكون يومئذ بأعماله وآثاره وحسناته اسماً لكتاب ضخم في أيدي ملائكة الرحمة .

\*\*\*

(١) كناية عن المستحيل .



فهذه آثار كرم النفس الطيبة لا تنشأ إلا بين نوعين من الحب :  
 حبَّ الرجل الكريم للناس وحبَّ الناس لهذا الرجل الكريم ، لا هو  
 يمتلئهم حقاً عليه ، ولا هم يظلمونه حقاً له ؛ ولعمرى كيف يستطيع  
 المَطلُّ أو يستطيعون والدين الذي وجب على الفريقين هو دينُ  
 القلب؟

وقد تكلمت السماء فى أزمان مختلفة وهبطَ الخطاب من عرش  
 الله على لسان الأنبياء صلوات الله عليهم ، وما من نبيٍّ مرسلٍ إلا  
 أنت واجد فى كلامه وشريعته : أن تحب للناس ما تحب لنفسك .

فهذا الحب الإنسانى محض من نصيحة السماء ، ولا بدع أن يكون  
 فيه بعض الدواء لآلام الإنسانية الضعيفة إن لم يكن هو الدواء كله .

انظر بعينك ما عسى أن تكون آلام الفقر إلا صوراً من اضطراب  
 النفوس إذ ينصرف بعضها عن بعض ، وذلك أيسر البغض ؛ أو  
 ينازع بعضها بعضاً ، وذلك سبب البغض ؛ أو يكيدُ بعضها لبعض ،  
 وذلك عين البغض؟

من أجل هذا كان البخل مادة من مواد الفقر وإن كان هو فى  
 ذات نفسه معنى من معانى الغنى .

ولقد يصاب الناس بألوان من العذاب ، ويمتحنون بضروب من  
 المكروه وترسل عليهم الآفات تختلجهم من ههنا وههنا ؛ غير أنهم  
 يجدون لكل مصيبة محلاً من الصبر يسكونها فيه ، فتجىء  
 وحدها ، وتذهب وحدها وإنما هى الغمرات ثم ينجلين ، فإن من

رحمة الله أن لا يزال الليل والنهار يترაკضان بيننا وبين النسيان كما يتراكض البريد، فيذهبان بشكوى المصيبة ويرجعان من النسيان بالسلوى أو العزاء أو نحو ذلك؛ ولكن الطائفة من الناس إذا ابتليت بالغنى البخيل ابتليت منه بالمصيبة التي تأكل المصائب، إذ يرون فيه أشياء من معانى القحط والجذب والوباء والفقر والعداوة والبغضاء، وطرفاً من كل جائحة، ومعنى كل آفة، بحيث تضيق به جوانب الصبر على سعتها وانفساحها وتنزوى دونه فتختلط كل مصيبة بكل مصيبة؛ وليس يأتي على هذا الإنسان شيء<sup>(١)</sup> كتداخل مصائبه بعضها في بعض، فإن ذلك يمحق الصبر، ويذهب بالسكينة، ويفسد الرأي. ويفتق على العزم من كل ناحية فتقاً، ويترك المرء كأنه مجنون بشيء أكبر من الجنون.

فالغنى البخيل من ذلك كله، بل هو ذلك كله.

\*\*\*

تعمير التحصيل من  
مكتبة

(١) أي ليس يهلكه، من قولهم: أتى عليه الدهر: إذا أهلكه.





غرض الكتاب

(وأما بعدُ) فإني قد وضعت هذه الأوراق وكتبت فيها عن الفقر وما هو من باب الفقر، لا لمحوه ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه؛ ثم كتبت عن الغنى وما إليه، لا رغبة في إفساده على أهله، ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله؛ وأدرت الكلام في كل ذلك على الوجه الذي يراه الشاعر في ضحك الطبيعة ورقتها، دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوف في عبوس المادة وجفائها؛ ونحوت به من نسق العقل في بث خواطره للنفس، لأنى أريد به في مستقرها؛ وجئت به من مبرق الصبح لا من غياهب الليل، وأطلعت من أفق الإيمان لا من قرارة الشك، وأردت به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس؛ فإن من ضرائب اللؤم وغرائز السوء في هذا الإنسان أنه ما ينفك يحمل نعم الله ورحمته وما لا حد له من العناية الإلهية، ولكن كما يحمل الطاووس ألوانه وتحاسينه وزينته البديعة على ساقين مجرودتين في الغاية من القبح كأنهما من غراب . . .

ولست أدعى أن كتابي هذا يُسمن من شبع أو يغنى جوع؛ فإن هذه العلوم كلها ومجموعة العقول البشرية وتاريخ ما شاء الله من عمران الأرض، لا يتهياً للإنسان أن يعجنها ولو أفرغت عليها السماء كل ما في سحائبها. ولا يأتي له أن يخبز منها رغيفاً واحداً



ولو حملته الملائكة ليضعه بيده في عين الشمس، ولا يخرج منها غذاء المعدة إلا إذا خرج الحبر الأسود من عرق الزنج... ولكنى أرمى بالكتاب إلى عزة النفس، وإلى الثقة بالله، وإلى الصبر على الفضيلة، فإن الناس من الشر بحيث لا يُعان على الفضائل إلا من صبر لها صبر المبتلى، ثم إلى مغالبة الوهم التاريخي القديم الذي نشأ منه معنى الغنى كما نشأ منه معنى الفقر، وأنت لو انتزعت الأنبياء والحكماء وأهل العزائم من مجموع هذا الخلق لرأيت التاريخ الإنسان كله في ذينك المعنيين باباً واحداً من الخطأ.

فلقد والله بالغ الناس في اعتبار هذين الحجرين<sup>(١)</sup> وأسرفوا على أنفسهم في محبتهما والكذب في طلبهما بالأخلاق وشيم ليس لأكثرها موضع في الإنسان ولا يتسع لها عمره القصير، وإن هي إلا من كلب الحيوانية فيه، بل هي تطور فاسد في أخلاقه التاريخية، فقد كانت الجماعة الأولى تنازع الحيوان وتتعاون عليه، وكانت الحيوانية قبيلاً والإنسان قبيلاً آخر، وعبرت الإنسانية على ذلك دهرًا ثم انفرعت وانشقت وترامت على أقطار الدنيا فصار لكل أرض إنسانها، وبقي الحيوان كله قبيلاً واحداً ومن ثم ظهر أثر الإنسان على الإنسان وأخذت تلك الحيوانات العاقلة تملئ تاريخ الأرض في الأرض غير مهذب ولا منقح، بل أصواتاً تتعاوى<sup>(٢)</sup>... ويومئذ

(١) أي الذهب والفضة، وقد سميا كذلك في الحديث الشريف.

(٢) من ههنا تعرف كل تطور في المدنيات هو فاسد إن لم يكن في أصوله المعاني المؤمنة مما أومأنا إليه في مقدمة (هذه) الطبعة الثانية.



كان عمل الفرد الواحد للقبيلة كلها، لأنه في الاجتماع بقبيلته لا بنفسه، وكان الفرد في عهد الجماعة إنما يقاتل على الرزق، فأصبح في عهد القبيلة يقاتل على الطَّمَّاح إليه والاستكثار منه ولم يكن في تاريخه ما يقذع هذا الطَّمَّاح أو يكفه أو يرد فيه رداً، فاسترسل إليه، ونشأ من ذلك في نفسه معنى الجمع والادخار وأن يمهد<sup>(١)</sup> لغيره من بعده.

ثم استفاض الدهر بجوادثه وعصوره وقامت الممالك واستجمت الأمم واستبحر العمران وما برح ذلك المعنى يتسع ويتتابع ويتلون في تاريخ طويل ليس كتابنا بصدده<sup>(٢)</sup> - حتى عاد ذلك القتال الأول فرقاً ثم رق إلى أن صار قتالاً في الأسواق بين جماعات الدراهم والدنانير؛ وكان النزاع بين فرد وفرد وبين قوة وقوة، فارتقى وتهذب حتى رجع إلى أن صار نزاعاً بين خلق وخلق، وبين حيلة وحيلة، وبعد أن كان الميدان في رقعة هذه الأرض صغراً شيئاً فشيئاً حتى أصبح في رقعة الضمير . . .

فالإنسان المتمدن هو هو ذلك الإنسان المتوحش في عمله للقبيلة، إذ يكتز الكنوز ويعقد العُقد<sup>(٣)</sup> ويرتبط الأموال، غير أنه قد حصر معنى القبيلة في نفسه هو ومن تلزمه نفقته من أهله وولده، فلم تتكافأ وسيلة العمل وغايته، وجمع كثيراً وأنفق ثم

(١) بمعنى يكتب، وما هم الدنيا إلا من أن كل واحد يجمع لجماعة.

(٢) على هذا التاريخ تقوم فلسفة الاجتماع، وليس من غرض كتابنا هذا.

(٣) هي ما يمتلكه الإنسان من أرض وعقار.



فضل عنه كثير، فإن هو لم ينفق من هذا الفضل على قبيلته الإنسانية وأبناء أبيه الأول من الفقراء والمساكين، فذلك الجمع فساد طبيعي، وتزيد في أخلاق الحياة لا تبعث عليه الحاجة أو لا تحمله الحاجة التي بعثت عليه، ومن هنا خرج ما في لغات الناس من الظم الأخلاقي<sup>(١)</sup> الذي هو في الحقيقة هجاء الطبيعة بعقولها وشرائعها وأديانها لأكثر الناس . . .

فالرجل يزعم أنه يجد ويدخر ويحزم ويترقى والحقيقة تصيح من أفواه الأنبياء والحكماء والفقراء أن ذلك جهل وبخل وطمع وتسفل، ومن أجل هذا صارت الإنسانية لا تتقدم خطوة إلا وقفت زمناً تلهث وتستروح مما بها، لكثرة ما تحمل من الصناديق والخزائن الثقيلة . . .

فحسبكم أيها الناس . انظروا إلى تركيب الكون واعتبروا سنن الأقدار في إدارته من أحقر ما فيه إلى أعظم ما فيه، فإنكم لا تجدون معاني الغنى الصحيح الذي لا فقر له إلا في الأجسام والعقول والأنفس، ولن تجدوا معنى واحداً خلق في صندوق أو خزانة . . .

\*\*\*

(١) يظن بعضهم أن هذه النسبة خطأ وأن صوابها الخلقى على القاعدة المعروفة من النسبة إلى المفرد، . ولكن ذلك الصواب هو الخطأ بعد أن صارت لفظة (الأخلاق) اسماً للعلم المعروف علم «الأخلاق»، فالنسبة هنا تجري مجرى قولهم «أنصاري» إذ كان هذا الجمع «الأنصار» من الشهرة كالاسم المفرد.





وقد وضعت كتابي للمساكين ، وأسندت الكلام فيه إلى (الشيخ على) ، وهو رجل ستعرف من خبره الذى أقصُّ عليك أنه الجبل المتمرد الباذخ الأشم فى هذه الإنسانية المسكينة التى يتخبطها الفقر من أذاه وجنونه ومسه .

وأنا أرجو أن ينزل هذا الكتاب من قلوب المساكين منزلاً حسناً ، وأن يتصل بأنفسهم الضعيفة ، ويُفضى إليهم ببثِّه ويفضوا إليه ، فقد يكون مصاحبة البائس للبائس ثروة نافعة لاثنيهما فى معاملة الزمن .

مصطفى صادق الرافعى

\*\*\*





## الشيخ علي (١)

هو رجل تراه في ظاهره من الدنيا ولكن باطنه يلتحق بما وراء الطبيعة، وكان ينبغي أن لا يقوم مثله على مسرح الخلق إلا ممثلاً، وأن لا يمثل إلا الوجه المطلق من الحياة، بعد أن استقصى الفلاسفة إلى تمثيله كل ذريعة فلم يستولمهم أن يمرؤا فيه، وقصر بهم التكلف، وقطعتهم دونه الفلسفة التي حملتهم عليه - فخلق الرجل شيطاً، مهزوزاً، رامياً بصدرة ونحره، معترضاً في زمام القدر كأنه صورة الفكر الذي يمثلها وكأنه أسلوب قائم بنفسه في بلاغة الطبيعة.

وأحسبه في نظره إلى الخلق يتوهم أنه رحالة خرج من بعض الأفلاك التي تُعرف (بالعقول العشرة)<sup>(٢)</sup> فهبط من أشعته على الدنيا، فهذا العالم شيء جديد في نفسه وهو شيء جديد في العالم.

(١) هذا الرجل من قرية يقال لها «منية جناح» من أعمال مركز دسوق أحد مراكز مديرية الغربية، وقد توفي سنة ١٩١٩، ولما وضعنا كتاب «السحاب الأحمر» في سنة ١٩٢٤ جعلنا فيه فصلاً على لسان الشيخ علي، وسنلحقه بهذه الطبعة من «المساكين».

(٢) من وساوس الفلسفة اليونانية القديمة أنهم يجعلون الأفلاك عشرة ويسمون كلاً منها عقلاً، وقد أخذها عنهم فلاسفة العرب وزعموا العقل الإنساني من تحتها كلها. . .



... ينظر إليك كما تنظر إليه ، فأنت تتبين في سحته (١)  
الواضحة أوصاف الجنون الهادئ ، وتعجب من منظر تلك العاصفة  
النائمة في عينيه ، وهو يستجلى منك معنى الغرابة في قدرة الله إذ  
أنشأك مثلاً غير مفهوم ، ويطيل عجبه منك أنك على ما فيك تتعجب  
منه . . . فكلُّ رجل في رأيه إنما هو صورة من الرجل الصحيح الذي  
لم تزور فيه حرفة العيش ومطالب الحياة شيئاً على الله .

ولكل امرئ سؤال يتردد بين نفسه وبين السماء ، فرجل يقول :  
اللهم هذه القوة فأين الرزق؟ وآخر يقول : وهذا الرزق فأين القوة؟  
وثالث يصيح : هذه هي العافية وهذا الرزق فأين السعادة؟ والشيخ  
على كأنه يقول : اللهم إنه لم يبق من الإنسانية إلا حشاشة تسوق  
بنفسها (٢) وكل رجل من هؤلاء صورة مقلدة فأين الأصل؟

لما وكّد هذا الرجل ، ولعل الطبيعة يومئذ كانت في صميم  
الخريف ثائرة مجرودة غبراء (٣) . . قامت أمه عن نجم منطقي لا  
تعرفه الأرض وقد زهدت فيه السماء ، فكان رضيعاً ثم فطيماً ثم  
جحشاً . . . ثم ترعرع ثم صار يافعاً وعاد فتياً وانقلب كهلاً وهو  
اليوم يحطم الخمسين (٤) وكأنه لم يكن في كل ذلك شيئاً ، ومتى

(١) أي هيئته .

(٢) يقال : رأيت يسوق بنفسه : إذا كان في الموت .

(٣) أي لا نبات فيها .

(٤) كان هذا في سنة ١٩١٩ ، ويقال حطمت السن : إذا كبر وضعف وكان هذا  
على العكس فهو يحطم السن . . . وقد شاع هذا الاستعمال في أقلام  
الكتاب دون أن يتنبهوا إلى أنه لا يجوز أن يقال إلا في مثل هذه النكته .



سويت عليه الأرض لم يترك وراءه إلا سطرًا ضئيلاً في سجل الموتى<sup>(١)</sup> فكأن الخير والشر لم يدركا هذا الرجل، وكأنه روح كتب عليها الحبس في جسمها فلا تشهد أمراً من ورائه حتى تنطلق، وكأنه حي على رغم الحياة!

وترى أى عقل يعيش به؟ بل أى عقل وأى جنون ليس من أثرهما الخير والشر؟ إن أكبر من تنجبه الفلسفة ويخرجه الأدب ليطوى عمره طياً وراء هذه الغاية البعيدة، وما حياة الفلاسفة إلا اختيار للموت، فهم يميّتون في أنفسهم كل سبب إلى الشهوة، وكل داعية إلى اللذة يحبون بالقسم الأعلى وتبقى مادة الأرض فيهم كأنها أرض بور عارية المخاسر لا تخصب ولا تثبت، وهذا (الشيخ على) كله أرض بور... فهو عصر برأسه من تاريخ الأخلاق، وعلى أى الوجوه اعتبرته رأته كشيوخ الفلاسفة وحكماء الدنيا. يعيش فى الناس بعقل غير العقل.

ولو تنفس به العمر فبلغ المائة وجاوز العشرين<sup>(٢)</sup> ما زاد كل عمله على أن يشبه نفسه، فهو حلیم لنفسه غضوب لنفسه، وكذلك هو فى الخفة والوقار، والضحك والعبوس والزهو والانقباض، وفى كل ضدين منهما لذة وألم؛ كأنه جزيرة قائمة فى بحر لا يحيط بها إلا الماء، فلا صلة بينهما فى المادة وإن كانت هى فيه، فالناس

(١) كناية عن اسمه، وكان اسمه الشيخ على جمعة.

(٢) توفى رحمه الله فى سنة ١٩١٩ للميلاد كما تقدم (بعد ظهور الطبعة الأولى بستين).





كما هم ، وهو كما هو : يروونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى ، ويتحاشونه رافة ورحمة ، ويتحاماهم أنفة واستغناء ، ثم إن مسه الأذى من رقيق أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه ، فيألم وكأن ألمه مرض طبيعي يعتريه ، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمغص بطنه بالداء أو يمغص ظهره بالعصا . . !

وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة غير أن أمرهما مختلف جداً ، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو لأنها لم تظفر به !

وإني لأرى في اللغة كلمات لم تقع على معانيها ولم تجتمع اللفظة منها ببدلولها ؛ فكلمة السعادة تبحث عن معناها في الناس وأهوائهم وشهواتهم ، ومعنى السعادة يبحث الناس عنه في هذه الكلمة وحدودها وحقائقها ، وربما كان هذا المعنى بجملته ملقى تحت الشمس في زاوية من زوايا القرى ، أو متفياً ظل شجرة من شجر الجميز ، أو نائماً تحت سقف معروش من حطب القطن ، أو جالساً يضحك في ندوة الحى ، أو قائماً يتأمل مجرى النهر ، أو مضطجعاً يقلب وجهه في السماء ، أو هو الذى يسمى « الشيخ على » !

. . . وماذا فى السعادة أهنا من أن توفى شرّ هذه السعادة فلا تتطلع نفسك إليها ولا ينالك إلا ما تحب أن ينالك ، فأنت بعد وادع قاراً آمن فى سربك ، معافى فى بدنك ، خارج من سلطان ما بينك



وبين الناس ، من خلق مستبد ، أو رغبة ظالمة ، أو صلة عاتبة ، ولا حكم عليك إلا لملك الملك . . . ولم يفتق الله لك من فنون اللذات ما ينغصه عليك ، ولا ضرب منك مثلاً ، ولا نص لك عقاباً ، ولا جعلك مرآة عدو يُصلح فيها نفسه<sup>(١)</sup> ولا نصبك لمجاراة أو مباراة ، وقد جنبك فُضوح هذه الدنيا . والدنيا من السوء بحيث يفضح فيها بعض الخير ما لا يفضح بعض الشر .

ثم ماذا أنت طالب من السعادة إذا هانت الحياة فلم تضعف عن احتمالها ، ولم ترمك بداء في مرض العيش إلا قمت له ، ولم تحملك على أمر إلا تحملت عليه ، وقويت على نفسك فلم تكذبك أملاً ، ولم تخدعك في باطل ، ولم تجاذبك إلى مورد لا تصدر عنه إلا آثماً أو نادماً ، وكنت من نعمة الله مخففاً لا تحمل إلا رأسك ، ولا تجوع إلا ببطنك<sup>(٢)</sup> ؛ وقد كفيت أن تضرسك نزغات هذا الرأس ، وأمنت أن يقتلك داء هذا البطن ، ولم يضربك الله بشيء من هذه النعم المنافقة التي يأتي بها المال حين يأتيك بالجاء وأصحاب الجاه ومن يريدك لملك وجاهك ، وأعوذ بالله من النفاق<sup>(٣)</sup> ومن نفاق النعمة خاصة ، فبيننا هي لك إذا هي عليك . وبيننا هي متاع إذا هي التياح ، وبيننا هي في طعامك شيء إذا هي من طعامك قىء . . .

وهل في النعمة خير من الكفاف حاضراً ، ومن الصحة فارهة ، ومن قرة العين وضحك السن واستطلاق الوجه ، وأن يكون القلب

(١) يرى غلطانك فيتقى على نفسه من مثلها ، فكأنك مرآته .

(٢) يقال : فلان يجوع بخمسة بطون مثلاً : إذا كان يكدح لمعاش خمسة .

(٣) انظر : فصل النفاق ، في كتاب (السحاب الأحمر) وتصويره وفلسفته .



في حجاب من نور السماء، لا تهتك عنه رذائل النفس، ولا يعلق به غبار الأرض، ولا يتغشاها ظلام الحياة، ولا يزال هذا القلب في نضرتة وصفائه كأنه سعادة مخبوءة في غيب الله يُخلق بعد من خبئت له؟

وكذلك أعرف «الشيخ على»، فهو رجل سُدت في وجهه منافذ الجهات كلها إلا جهة السماء، فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للعالم تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم، فهي تزدرى كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف، وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة في الجسم، أو سعة في المال، أو فضل في المنزلة، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف: تلك الحقيقة الطاهرة التي تكون أعظم ما أنت واجدها في سير الأنبياء والصديقين والشهداء، أو حيث يكون ذلك العقل الجبار الذي لا يشبه عقول الناس، من نبوغ يخرق العادة، أو جنون تخرقه العادة، وما الجنون إلا نبوغ فوق الطاقة، ولا النبوغ إلا جنون رقيق!

وكذلك أعرف «الشيخ على» فهو أجهل الناس في الدنيا، وأجهل الناس بالدنيا، كأنه من هذه الجهة ممتلخ العقل<sup>(١)</sup>، وأنت إذا سطعت له بالجوهر الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصة جميلة تتألق، وإن هوكت عليه بألوان الخبز والديباج حسبك مائتاً لم

(١) أي أسلوب العقل ذاهبه.

ترقط نضارة البرسيم وألوان الربيع ، وكأنى بك لو وصفت له الذهب وما أضرمت ناره فى الأرض وهى برد وسلام ، وما أيقظ جماله من الفتنة التى استحال عليها أن تنام ، ثم أريته شعلة من هذه النار فى غرة الدينار ، لتضحك منك إذ تريد أن توهمه - بما أعظمت من ذلك الشأن - أنك سلبت ملك الله قطعة من الشمس التى غربت أمس ، ولرأيت من زرايته عليك ما يعلمك أنه ما أكبر هذا الدينار فى عينك إلا صغر فى نفسك ، ولا ملأ يدك بالحرص عليه إلا فراغ ما بينك وبين الله ، ولا كدك فى طلبه إلا أنك مسخر ، ولا أذللك للمال إلا خضوعك للآمال ، وما أنت إلا فى قيد من الهم حبيه إليك أن قفله هذه القطعة من الذهب !

وإذا أحضرته ألوان الطعام وجلوت عليه أبهة الخوان وقلت له : هلم فارتع وأصب حتى تتأ ومانتك<sup>(١)</sup> رأيت من نفوره واحتجازه كأنه يقول لك : ويحك ! وهل للبطن كبرياء وهو ستار على أقدار ، وهل يسع كل هذا وما هو بالعريض الطويل ، ولا سلامة له إلا بالقليل لأنه قليل ، وهل تحتمل ما فى العنقود حبة واحدة ، ويحتمل الغنى أن يكون فى صندوقه الإلهى<sup>(٢)</sup> حاجة زائدة ، ويبلغ الحمق من هذا الإنسان أن يميت قلبه لأنه وجد النعش من المائدة؟

وكذلك أعرف «الشيخ على» فهو لا يرى فى الأشياء غير ما خصتها به الطبيعة ، ولا يرسل عليها إلا أشعة صافية من عينيه

(١) أى السرة وما حولها ، وذلك من الشبع والكظة .

(٢) كناية عن البطن ، ويقال : الشبع مكسلة . والبطنة تذهب الفطنة .





أضاحكتين لم تخالطها ألوان النفس ولا زفرت عليها أنفاس القلب، وما ثم غير الانقباض والنفور أو الاستئناس والانبساط، فإما رآها قبيحة وإما رآها جميلة، ومتى قُسمت الأشياء عنده إلى قبيح وجميل فليس وراء هذين ثالث في التقسيم، وليس إلا جميل جميل وقبيح قبيح، فأما المأمول والمرغوب والمتنافس فيه، والمتبرم به والمسخوط عليه، وما جاء بالشقوة وما جاءت به السعادة، وما كان من ورائه حبذا وليت، وما أعانت عليه لعل وعسى، ثم كان وأخواتها، وإن وبناتها، ثم أنا وأنت وهو، ثم انعطف على هذا النحو أو انفرع منه - فكل ذلك تقسيم لا يفهمه شيخنا، وما هو من جده ولا لعبه لأن صفحة نفسه ليست كألواح الأطفال: يثبتون فيها ما لا بد من محوه، ويمحون ما يعودون إلى إثباته، ليتعرفوا ما أصابوا مما أخطئوا، وليتعلموا كيف ينبغي أن يتعلموا.

وهل تجد - أعزك الله - في هذا الناس من يحسن أن يوقرك؛ إلا وهو يحسن أن يحقرك، ومن يعرف كيف يشكرك، إلا وهو يعرف كيف يكفرك، ومن يقول لك حفظك الله، وإلا وهو قادر أن يقول أخزاك الله... فالناس عبيد أهوائهم، وأينما يكن محللك من هذه الأهواء فهناك محل اللفظة التي أنت خليق بها، وهناك يتلقاك ما أنت أهله، أو ما يريدون أن تكون أهله، وليس في الناس شيء يزيدك كمالاً من غير أن يزيدك نقصاً، حتى إيمانك، فإنه كفر عند قوم، وحتى عقلك، فإنه سفه لطائفه، وحتى فضلك فإنه حسد من جماعة، وحتى أدبك فإنه غليظ لفته.



أما شيخنا فقد مسح الله نفسه ومسح ما به من الناس، فليس في صدره ولا صدر أحد حسيكة<sup>(١)</sup> عليه، وهو أبدأ في صمت بليغ كصمت الطبيعة، وكأن فهمه شيء من هذا الصمت، فلا يتصل بفهمه ولا يداخل فكره إلا الجمال والقبح، والطبيعة نفسها تخرج الجميل تفسيراً للقبيح، وتظهر القبيح تعليقاً على الجميل، وكذلك الشيخ في إدراكه.

وأجمل ما يرى من وجوه الحياة وجه السماء الصافية، ووجه النهر الجارى، ووجه الأرض المخضرة، ووجه الرجل الطيب، ووجه المرأة الجميلة: كل أولئك عنده سواء، فليس وجه خيراً من وجه، لأنه لا يُحسن أن يؤول لغة الطبيعة فلا ريبة فيه، ولا يتزيد في معانيها فلا كذب في حواسه، ولا تخاطبه الطبيعة فيما توحى إليه إلا بأسهل ألفاظها وأطهرها وبمقدار ما خلق له؛ إذ لا ترى فيه غير تلك الحيوانية الضعيفة التي هي ضرورة لحي منقطع مثله، وما كانت لوثة عقله إلا فصلاً بينه وبين الإنسان في حيوانيته، وإن شر ما تكون هذه الحيوانية حين تكون عقلية محضة، وراءها عقل العالم واختراع المخترع وفن المتفنن.

وقد يكون «الشيخ على» رجلاً تعسفاً في رأى الناس، لأنه حيوان ضعيف وإنسان أضعف، ولكنها تعاسة بالغة، فهي من تلك الآلام الحادة التي بالغت الطبيعة في تكوينها لتخرج منها ذلك النوع الشديد الحاد الذي يسمونه اللذة، وربما كانت التعاسة السامية خيراً من سعادة سافلة!

(١) أى عداوة وغيظ.



إن المجنون لم يزل عن منهج الحياة بجنونه ، ولكنه يتبع سنّة هذه الحياة على طريقة خاصة غير ما ألفه الناس أو تواضعوا عليه ، ليرى فى كل شىء أثر جنونه ، فهو حى مع الأحياء بيد أنه يشبه أن يكون تفسيراً للحياة الغامضة التى تلوذ بكل جانب مهجور على وجه الأرض ، وبكل رأس تحسبه جانباً مهجوراً ؛ لأن الناس لا يفهمونها ولا يتسعون لفهمها .

وهذا « الشيخ على » رجل غامض متلفّف بحقيقته العجيبة ، كدهاة السياسة فى شباكهم التى يأخذون بها الأمم والشعوب فلا تبرح ترتبك فيها ارتباك الصيد فى الحباله ، وأولئك الفلاسفة الذين يعيشون فى السُّحب العالية من فضائلهم فيمطرون الكون مرة ويرجمونه مرة . . . إلى غيرهم من روابى الخلق<sup>(١)</sup> ومن كل رجل عظيم أظله أحد الجناحين المتبسطين على الأرض والسماء : جناح الوحى أو جناح التاريخ . ولكن « الشيخ على » على غموضه من كل جهاته واضح من جهة واحدة هى جهة الجنون فى اصطلاحنا ، وتلك هى جهة الفضيلة الخالصة فيه ، إذا قطعت ما بينه وبين الرذيلة وجعلت له فى الناس رذيلة مجنونة مثله ، فكانت سببته أنه رجل مطلق لا ينزل على حكم ، ولا يتحمل على أمر ، ولا ينازع إلى عادة معروفة ، بل هو قد نجح بنفسه من هموم الناس وأصبح كالروح الوثابة التى لا يمسكها قيد ولا يخضعها زمام ، والتى هى فيه كما هى فى موجة البحر وعاصفة الريح ، فكل مخلوق يحجل فى الحياة

(١) أى هاماتهم وعظمائهم ، جمع رابية ، لظهورهم وعلوهم .



لمكان القيود منه ، وهذا يجمع الوثبة العالية ثم يثب مقبلاً ومدبراً  
ويتخطى مدَّ بصره في الحياة كأنه براق الأنبياء . .

وليت شعري هل يأمل الناس أن يشهدوا الحقيقة مغلوبة على  
أمرها ، وما كانت الحقيقة أحد الخصمين قط إلا كانت الهزيمة على  
الآخر ولو أن هذا الآخر عصر مر تاريخ الأرض ؟ ثم ما هي الحقيقة  
إلا أن تكون عقلاً مطلقاً لا زيغ فيه ، أو حقاً مطلقاً لا كذب فيه ، أو  
يقيناً مطلقاً لا شك فيه ؟

وهذا «الشيخ على» أما عقله فعند الله ، وأما حقه فقد أوجبه الله ،  
وأما يقينه فلا يعلمه إلا الله ، فكيف يرى مغلوباً لاصطلاح أو عادة  
وأكثره راسخ في السماء ؟

إنه ليجوع ويظماً ويعرى ، ولكن كما يجوع الطير وتظماً  
الأرض ويعرى الشجر : ليس من حلة إلا وسبيلها من رحمة الله ،  
فإن تخلت عنه السماء مرة وقطعت مقاوده من الغيب وخذلته  
الوسيلة - فما تغمز منه الحاجة إلا حجراً صلداً يقع على أي جانب  
ترميه ثم لا يقع إلا حجراً ؛ لأن آلام هذا الرجل من الألم القفر  
الذي لا ينبت فيه شيء من الخوف ، ولا يهتدى إليه وهم من الحياة ،  
ولا مجرى فيه للدمع ، ولا ظل للحسرة ، وهو ألم إن أفضى إلى  
الموت أفضى إليه برجل لا يعرف الموت ما هو وإن أبقى على الحياة  
أبقى عليها في رجل عرفت الحياة من هو . . .

رجل حطَّ الله أوزاره وكتب عليه أن يكون فقيراً من المال وحبَّ  
المال وذلَّ المال خرج وليس له في أفئدة الناس إلا الرأفة والحنان ،





وجاء وليس له من الناس حاسد أو عدو ، وخلق ذا حدين من نفسه الماضية لا يكتنفه ذل أو هم إلا قطعهما ، وانطلق كالفرس العتيق في ميعة حضره<sup>(١)</sup> وماذا يبغض الناس منه وماذا يعادون وهو في ذلك البحر زورق قد سقط مجذافه فليس له ما يضرب وما يسخر به ، وإنما تدافعه رحمة الله حيث اندفع ، والبحر لا يعادى الزورق الذى يجرى فوقه ولكن يعادى المجذاف الذى يدبره ههنا وههنا .

رجل كأنه قطعة من الأبد ، لا أمس له يتعقبه ولا غد له يترقبه ، بل الحياة عند يقظة طويلة والموت نوم أطول .

«والشيخ على» متى أحس الجوع ولج الباب الذى يصيبه مفتوحاً فلا يقع على الناس إلا متطرباً ، وهو مع ذلك لا يحط فى الطعام ولكن يخط فيه خطأ<sup>(٢)</sup> وما هو إلا أن يستقر شىء فى جوفه مما يقيم صلبه حتى ينفر نفور الطائر لا يرى إلا أنه قد استوفى حق طبيعته من خادم طبيعى . . فلا جزاء ولا شكوراً ، ولهذا لا يبرح أبداً على الحد الذى يصلحه لنفسه فلا يتجاوزه ، وأعجب ما يرو عنى من فضيلته أن هذا الحد عينه هو الذى لا يفسد ما بينه وبين الناس .

وهو إذا تكلم فإنما يترمرم<sup>(٣)</sup> من طول السكوت ، فإما أن يغمغم حروفاً وأصواتاً ، وإما أن يلوث بعد كلماً غير مفهومة كأنه يُسرهما

(١) أى فى أول نشاطه وجريه .

(٢) المتطربى: الذى يأتى من غير دعاء: وحط فى الطعام: أكثر منه: وخط بالخاء: إذا نال شيئاً يسيراً .

(٣) يقال كان ساكناً فترمرم: أى حرك فاه .



فى أذن الدهر الذى لا يفهمه ، ولكن لهذا الرجل كلمة فى الشتاء وكلمة فى الصيف : فأما الأولى فأن يسأل دثاراً يستدفع به أذى البرد ، ولا معنى لكلمة «هات» عنده غير هذه الضرورة ، وأما الثانية فأن يهب الدثار لغيره ، ولا معنى لكلمة «خذ» عنده غير هذا الاستغناء ، على أنك واجد أكثر ما فى هذا العالم من شر وفساد إنما يرتطم فى هذين الحرفين : «هات ، وخذ» .

هذا هو «الشيخ على» . رأيت فرأيت فى بروده ثورة على العالم الإنسانى ، وعرفته فأصبت فى ضميره قطعةً مجهولة من هذه المسكونة ، واستجلت نفسه فإذا هو أفق فوق الأرض ، وطالعتة فكأنى رأيت فى جملته النقطة الأرضية التى يبدأ من ورائها ارتفاع السماء ، وبلوته فإذا هو حصاة تحت ضرس الدنيا والناس هنالك يمضغون ، فلم أملك أن غمست قلمى من نظراته فى مجرى من أشعة الوحي ، ووضع الاعتبار من هذا الرجل وحقيقته ما عرفت من الناس وحقائقهم ، فخرجت لى من المقابلة هذه الصفحات ، ولذا كان القول فى «المساكين» ما قال «الشيخ على» .

على أنى إن كنت لم أحسن وصف الرجل أو كنت لم أبلغ فى وصفه فذلك لأن هذه الحقيقة فى هذا القلم كالثمر الحلوى فى العود المر ، والرجل مما أنضجه القدر وحده وليس لنا من حقيقته الغامضة إلا الصفات التى تثبت أنها غامضة .



وهل فى الحياة أشدُّ غموضاً من رجل يرى، أو كأنه يرى، أن كل نعمة لم ينلها فهى مصيبة لم تنله، وكل ما يعرفه من هذه الدنيا أنه يعرف كيف يتركها مطمئناً وعلى شفثيه من الابتسام تحية السماء لاستقباله، ومتى هو فارقها انكشف موته عن حياته، وصرحت هذه الحياة من ضميره وخلصت من هذا الضمير كلمة هى معنى الرجل الذى انطوى عليه، وكانت هذه الكلمة هى « الحمد لله »!

\*\*\*



فى وحي الروح (١)

التراب المتكلم أمام التراب الصامت

ترى أيهما هو الصدق فى حقيقته : ما نفرح به أو ما نحزن له؟ . . أما إن فى الحياة ملحاً وإن فى الحياة حلواً وكلاهما نقيض ، فليس منهما شىء إلا هو رد للآخر أو اعتراض فيه أو خلاف عليه ، وتجدهما اثنين وهما واحد فى اثنين .

فأنت تؤتى الحلو تُسيغه وتستعذبه فإذا هو بك فى الملح تمجُّه وتغصُّ به ، ثم لا تضع من أمر على أحسنه فى صورة إلا رأيتَه على أقبحه فى صورة أخرى .

والإنسان من الهم فى عمر دهر لا يموت ، ومن السرور فى عمر لحظة تشبُّ وتهرم وتموت فى ساعات ، والحيُّ كأنه من هذه الدنيا فرخ فى بيضه ملئت له وختمت عليه فلن يزيد فيها غير خالقها ، وخالقها لن يزيد فيها!

ومن الصحة والمرض ، مما سرَّ وساء : وما شدَّ وهدَّ ، ومن العقل العجيب الذى يحكم من الإنسان تركيباً عصبياً مجنوناً ثائراً قد

(١) روح أخى محمد كامل بك الرافعى ، وقد انتقل إلى رحمة ربه فى شهر يونيو من سنة ١٩٢٨ ، رحمه الله . وهذا الفصل مما زدناه فى (هذه) الطبعة الثانية من المساكين ، إذ هو من مادة الكتاب وعلى نسقه ونهجه .





استبانت فيه الحيوانية - من كل ذلك وما إليه مزيج هو بقدره الله أشبه ، ولكنه فوق ضعفنا وحيلتنا ، فلن نرى منه فى الكون إلا شكل الحيرة ومعناها والعذاب بها ، والفرح بالغفلة عنها والسرور بإنكارها أو المكابرة فيها ، والحيرة لا نفى ولا إثبات ، ومتى يطلب الإنسان الحقيقة وهو جزء منها لا يقف إلا على جزء منها ، فالمشكلة متحركة إلى كل جهة حتى لا تذهب عنها لتساها إلا وأنت ذاهب بها لكيلا تنساها .

أما إن فى الحياة ملحاً وإن فى الحياة حلواً وكلاهما نقيض ، فالصريح أن يُخلق منهما المستحيل وهو الملح الحلو . . . فإن لم يمكن ، فالممكن من الحقيقة للإنسان أن يستحيل الإنسان فيموت !

\*\*\*

تُرى أيهما الذى هو الكذب فى نفسه : الموت أم الحياة؟ إنه الجنين فالوليد ثم الميت لا محالة بعد أن يُسرع الأجل أو يتراخى ، لا يتقار جنين فى ذاته الدموية من الأحشاء ، ولا يثبت وليد فى ذاته من المهدي ، ولا يترك شاب فى ذاته العظيمة للحياة ، ولا يقف شيخ فى ذاته الجلدية دون القبر !

من عقدة الثمر إلى لُبثها إلى شحمتها إلى قشرتها ، على ناموس القضاء والقدر ، فى باب الحتم المقضى من كتاب السماء ، وعلى ناموس النشوء والارتقاء فى باب الهذيان العلمى من كتاب

الأرض . . .



وكما تكون تحت الوسائد كنوز أحلام الليل ، تكون في هذه الحياة أحلام الكنوز الخالدة التي يملأ الأرض كلها ضوء لؤلؤة واحدة منها .

تطلع الشمس على الناس كأنها فصٌ خاتم السماء تشير به أن تعالوا إلى الكنز في ضوء هذه الياقوتة الصغيرة .

\*\*\*

الحواس زائغة متراجعة مقلوبة ، وهذا هو نظامها ونسقتها واستواؤها ، فليس من أحد في هذا الكون الموجود إلا وهو ناظر إلى كون غير موجود .

السماء سماوات ، والأرض أرضون ، والأكوان عداد العقول ، وكل أمل في رأس مخلوق يزيد عنده الدنيا أو ينقصها ويغير من الخليقة ويبدل ، وكل إنسان في كل يوم هو إنسان يومه ذلك ، فكأن كل حي من كل حي غلظة ، وآمالنا كأرقام الساعة : هي اثنا عشر رقماً محدودة ، ولكنها في كل دقيقة هي اثنا عشر رقماً فلن تنتهي .

والحياة خداع وغرور ، وزيف وخطأ ، وعمل وعبث ، ولهو ولعب ، ومهزلة وسخرية ، والناس كالأرقام تخط على هذا التراب ثم يقال للعاصفة : اجمعي واطرحي وحلى المسألة . . .

\*\*\*

وأين كل ما صبته الشمس والكواكب من نيرانها ، وما أخرجته فصول الأرض من وشيها وألوانها ، وما هتفت به الطير من



أغاريدها وأحانها ، وما تلاطمت به الدنيا من أمواج إنسانها؟ وأين ما صح وما فسد ، وما صدق أو كذب ، وما ضر أو نفع ، وما علا أو نزل؟ في كل لحظة تمتلي هذه الدنيا لتفرغ ثم تفرغ لتمتلي ، وماضيها ومستقبلها مطرقتان يمر بينهما كل موجود لتحطيمه .

وكان الحياة ليست أكثر من تجربة الحياة زمنًا يقصر أو يطول ، وما العجيب أن لا تفلح التجربة في أحد ، ولكن العجيب أن لا تنقطع وهي لا تفلح .

والعالم كالبحر من السراب يموج به أديم الأرض بما رحبت ثم لا تملأ أمواجه ملعقة ، والحقيقة في كل شيء لا تزال تفر من تحليل إلى تركيب ومن تركيب إلى تحليل ؛ لأن شعور أهل الزمن بالزمن لا يحتمل المعنى الخالد .

ولعل سبب الموت أنك لا تجد إنسانًا يعيش في حقيقته الإنسانية ، فلا هذه الحقيقة يسرت له كاملة ولا هو خلق لها كاملاً ، وفي الإنسان كالطبيعة أرض وسماء . . . فترابه لا يتغشاه مما فوقه غير الظل وقد خلق مقسوماً فشقة منه في أرضه وشقة في سمائه ، فإذا حضره الموت ضرب الضربة بين هاتين فأخذت السماء السماء وجذبت الأرض الأرض .

هناك البرق الإلهي ملء الكون يلتصع ويخطف ، ولكنه من الإنسان كشعلة تتوهج في غرفة أرضها وسقفها وحيطانها من المرايا وليس في هذه الغرفة إلا هذا الضوء ورجل أعمى .

فلا سخرية ولا ضلالة ولا عبث ولا خداع إلا فى أسلوبنا  
الإنسانى المبني على حواسنا الزائغة، كما تنود<sup>(١)</sup> السفينة خفت  
على موج البحر وما عبث البحر بها ولكن يعبث بها وزنها.

\*\*\*

يريد الله أن تخلق لأنفسنا معنى من السمع والبصر ليس فى أذن  
ولا عين، وأن نزيد فى مجموعة أعصابنا الواهنة عصباً عقلياً يراه  
ويسمعه ويدركه ويؤمن به<sup>(٢)</sup>، فالإيمان قوة خبارة لا تجمع إلا من  
رد كل أطراف النفس<sup>(٣)</sup> المنتشرة إلى عقدها الروحية، وحبسها  
أكثر حواسها فى حس واحد عنيف مؤلم، ووضع المناعم المضمون  
بها فى ذلك المعنى المفتوح المتهدم الذى لا يمسك شيئاً وهو الزهد،  
وحصر الآلام الطاحنة فى ذلك المعنى المطبق المتحجر الذى لا يفلت  
شيئاً وهو الصبر، ورد الأخلاق كلها إلى ذلك العنصر الذى يضيف  
معنى الحديد إلى معنى اللحم والدم وهو الإرادة، وبعد ذلك كله  
وضع كل شىء إنسانى فى ضوء من أضواء الكلمة المتألهة المسماة  
بالفضيلة.

يا إلهى! ما أقواك وما أضعفنا! كأنك تقذفنا من السماء فنجهد  
من بعد أن ترتفع إليها بأنفسنا على أجنحة الأعمال التى تطير  
بجاذبية مما تحب!

(١) تنود: تتمايل وتتحرك.

(٢) كان الله تعالى يخلق الإنسان ويودع فيه من سره ثم يقول: لست حيواناً  
فأكمل نفسك.

(٣) أطراف النفس: كناية عن شهواتها.



لما خلقت الإنسان عبداً على قدرك صار إلهاً على قدره، فيجب في الحق أن تعذبه السماء إذا وغل عليها طفيلياً بلا عمل ولا ثمن! النخلة السحوق نواة مخزونة في بلحة، والعالم العظيم تركيب مخبوء في إنسان، فالإنسان لنكده الطبيعي محيط بنواميس قاهرة تحركه، وتحيط به نواميس أخرى قاهرة تتحرك معه، فمن ثم لا يبرح يصطدم، ولن يكون متجهاً أبداً إلا إلى التحطيم، فإذا هو تورع وتخرج واستعلى أمات من شهواته فأبطل مثل ذلك فيما حوله، فكان خروجه من بعض الدنيا هو حقيقة وجوده في بعض الدنيا، ومثل هذا حقيق أن يقول: إني أحكم العالم من داخلي.

\*\*\*

تباركت ربنا وتعاليت، إن الشك فيك لهو اليقين على طريقة؛ والإيمان بك هو اليقين على طريقة أخرى. . المقعد لا يمشى، والأعرج لا يعدو، والضعيف لا يسبق العداء، فإذا أنكر المقعد على من يراه يمشى، والأعرج على من يبصره يعدو، والضعيف على من يعرفه قد سبق، فما ذلك من إنكار العين ولا من مكابرة النفس، وإنما ذاك رأى منظور فيه إلى حظ رجل مهملة أو قدم مكسورة أو عظم واهن، ومن ثم لن يكون في الناس ملحد إلا وفي طباعه أو أخلاقه أو حوادث دنياه جهة مريضة ينكسر عندها الرأي وبيتلى بها الحس، فهي توجهه وتصرفه منظوراً فيه إلى شعور بعينه. وقد ينتحر الرجل من إعراض امرأة، فمن ذا يقول إن النفس الإنسانية

في وزن قبلة!



فأما الملحد بغير علة فهذا لا يوجد أب ولا تضعه أم، إذ يجب أن تكون طباعه له وحده وميراثه منه وحده حتى يصدق زعمه أنه الحد للبرهان وحده، فما يجحد الجاحد إلا ليجعل نفسه في الرفاهية من الأمر والنهي، ويخرج بها من حكم الضرورة، والإيمان كله ضرورات مسيطرة الحكم على ما بين المؤمن ونفسه، وما بين المؤمن والناس، وما بين المؤمن وربّه، حتى كأن فيه شيئاً يلذعه بالجمر فما يستريح عن لذعة إلا قدر ما يجم ليحتمل للذعة بعدها.

يا إلهي! إنما يحبك المؤمنون ويكابدون في رضاك على مقدار منك لا منهم، فأنت تقذف قلب المؤمن بضرورات كشعل البراكين، وتضرب روحه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة، وتتركه في الأرض يشعر كأنما خر عليه سقف العالم!

شبه خلفها بصائرهما، وظلمات تنتهي بعد حين إلى مد النهار الأكبر<sup>(١)</sup> ومن الضرورات والمصائب والآلام يتخلق الجو الحساس الذي يبسط فيه الإنسان جناحي روحه ويسمو بها على التراب والمادة. . الجو الجو: هذه تغريدة البلبل في قفصه .  
الغذاء الغذاء: وهذه قوقاة دجاجة في قفصها .

\*\*\*

أقيس الإنسان نفسه على قياس من الطبيعة في قوتها المتراكبة، ومظهرها المسخر لكل ما يتفق، وتركيبها المبني على سهولة

(١) أي أعظم ضوئه في لجة الضحى، فذلك هذه.



الاحتمال ونظامها الميسر لعدم المبالاة، ألا ما أحرق الزهرة التي علمت أن الدوحة لا تقتلعها إلا العاصفة العاتية فقالت: الآن أهزأ بالنسيم! ثم لمسها النسيم فرمى بها ورقة ورقة!

كأن الشكل الإنساني نقص إنساني، وكأن الإنساني لم يجرى إلى الدنيا بأكمله، وكأنه ما خلق منه إلا قدر ما لغرض ما كأنه تركيب في يد الصانع الأعظم ألقى منه جزءاً في مرجل الفلك الأرضي ليغلي قليلاً... ثم يتطاير ويجتمع فيتلقاه من بعد.

كأن هذا الإنسان تحت هذه الضغطة في هذه الفورة في هذا الفلك، مادة يطعم جواً لتتحول ولتتحول ليس غير. ألا ما أحرقه وهو في المرجل على الوقدة الحامية إذا أبقى أن يغلي! وما أسخفه وهو في المصفاة تحت الضغطة الثقيلة إذا أبقى أن يعصر! وما أجهله وهو في الحياة الفانية إذا نسى أنه سيموت!

لا تغترى أيتها الحبة الصغيرة المختبئة في كدسة من القمح تتحدر في ثقب الرحى، ولا تحسبي أنك من لهو ولعب تنبعثين هناك وهنا بين الحب، إنك في رفق ولكنه رفق الحجرين الآكلين اللذين لا يدعان شيئاً ولا يفلتان شيئاً وإنما يرفقان بك قليلاً قليلاً ليحجدا طحنك كثيراً كثيراً!

\*\*\*

فتحنا القبر وضرحنا للميت العزيز، لم أقل إنه مات، بل قلت إن موته قد مات! كأن الحى على هذه الأرض هو القبر الإنساني لا



الجسم الإنسانى ، فإنك لتجد قبوراً من ألف سنة ولا تجد إنساناً فى بعض عمرها ، أما ترى هموم الدنيا وأحزانها كيف لا يخلو منها أحد ، وكيف تخرج من النعيم كما تخرج من البؤس ؟ ما أحسبها إلا صوراً من ظلمة القبر يجىء القبر فيها حيناً بعد حين إلى ميتة الذى لم يمت !

من يهرب من شىء تركه وراءه ، إلا القبر ، فما يهرب أحد منه إلا وجده أمامه ، هو أبداً ينتظر غير متململ ، وأنت أبداً متقدم إليه غير متراجع ، وليس فى السماء عنوان لما لا يتغير إلا اسم الله ، وليس فى الأرض عنوان لما لا يتغير إلا اسم القبر .

وأينما يذهب الإنسان تلقته أسئلة كثيرة : ما اسمك ؟ ما صناعتك ؟ كم عمرك ؟ كيف حالك ؟ ماذا تملك ؟ ما مذهبك ؟ ما دينك ؟ ما رأيك ؟ . . ثم يبطل هذا كله عند القبر كما تبطل اللغات البشرية كلها فى الفم الأخرس ، وهناك يتحرك اللسان الأزلى بسؤال واحد للإنسان ما أعمالك ؟

أيها المتقاتلون على الدنيا والإنسان إلى حين ! إن تنازع البقاء مذهب فلسفى بقى لا إنسانى . . . فإنها الثيران هى التى تجد من القوة أن تنتطح فى المجزرة وتنسى لم هى فى المجزرة !

فتحنا القبر وأنزلنا الميت العزيز الذى شفى من مرض الحياة ، ووقفت هناك ، بل وقف التراب المتكلم يعقل عن التراب الصامت ويعرف منه أن العمر على ما يمتدُّ محدود بلحظة ، وأن القوة على





ما تبلغ محدودة بخمود، وأن الغايات على ما تتسع محدودة بانقطاع، وحتى القارات الخمس محدودة بقبر.

يا عجباً! القبور مأهولة بملء الدنيا وليس فيها أحد! أية ذرة من التراب هي التي كانت نعمة ورغداً، وأيتها كانت بؤساً وشقاء، وأيتها التي كانت حباً ورحمة وأيتها كانت بغضاً وموجدة؟

سألت القبر: أين المال والمتاع؟ وأين الجمال والسحر؟ وأين الصحة والقوة؟ وأين المرض والضعف؟ وأين القدرة والجبروت؟ وأين الخنوع والذلة؟ . . قال: كل هذه صور فكرية لا تجيء إلى هنا؛ لأنها لا تؤخذ من هنا! فلو أنهم أخذوا هدوء القبر لدنياهم، وسلامه لنزاعهم، وسكونه لتعبهم، لسخروا الموت فيما سخروه من نواميس الكون!

إن هؤلاء الأحياء يحملون في ذواتهم معانيهم الميتة، وكان يجب أن تدفن وتطهر أنفسهم منها، فمعنى ما في الإنسانية من شر هو معنى ما في الناس من تعفن الطباع والأخلاق. يكذب أحدهم على أخيه فيعطيه جيفة حقيقية ميتة، ويكيد بعضهم لبعض فيتطاعمون من حيف الحوادث المسمومة، ويمكر الخائن فإذا جيفة عمل صالح قدمات، فكل مضغة تبتلعها من حق أخيك الحي هي كمضغة تفتلذها من لحمه وهو ميت: لا تعطيك إلا جيفة، ثم أنت من بعد لست بها إنساناً ولكنك وحش . . . بل وحش دنىء ليست له فضيلة الوحشية التي من قوة تأبى أن تمس لحوم الموتى!

\*\*\*



وأها لك أيها القبر! لا تزال تقول لكل إنسان تعال، ولا تبرح كل الطرق تفضى إليك فلا يقطع بأحد دونك ولا يرجع من طريق راجع، وعندك وحدك المساواة، فما أنزلوا قط فيك ملكاً عظامه من ذهب، ولا بطلاً عضلاته من حديد، ولا أميراً جلده من ديباج، ولا وزيراً وجهه من حجر، ولا غنياً جوفه خزانه، ولا فقيراً علقت في أحشائه مخللة!

ألا ويحك أيها القبر! لم لا تأتي إلا في الآخر؟ ولم لا تضع حدود معانيك بين الأحياء بعضهم من بعض حتى يقوم بين الضعف والقوة حدُّ المساواة، وبين النفوس والشهوات حد التقوى، وبين الحرام والحلال حد الله!

يا شقاء أهل الأرض! أما إنهم لو وضعوا فيها موضعاً من العناية لما كان الإبهام في السريرة، ولا كانت الغفلة في النفس، ولا كان النسيان في الطبع، ولولا هذه الثلاث في هذه الثلاث لما كان المجهول البشري كله في شيء واحد وهو القبر.

\*\*\*

إن أحزاننا وهمومنا ودموعنا هي كل المحاولة الإنسانية العاجزة التي نحاول بها أن نكون في ساعة من الساعات مع أمواتنا الأعزاء! هم يأخذوننا إليهم احتلاجاً وانتزاعاً في هذه الأحزان والهموم والدموع فكانها أمكنة تخلق من الأثير الروحي وتتجسم من معانيها كي تصلح أن يلتقى فيها روح الحى وهو حى بروح الميت وهو



ميت ، كما يتلاقى روحا الحبيبين فى قبلتهما أول مرة إذ يخلق قلباهما لهذا اللقاء جواً أثيراً من الزفرات واللوعات بين الشفاه المتلامسة .

أو لعل الموت كما يجرد الحى من روحه ينتزع من أهله شهوات أرواحهم فيميتهم مدة من الزمن فى القلب وفى العين وفى الفكر ، وبذلك يرد جميع المحزونين إلى المساواة ، فأهل كل ميت وإن علا كأهل كل ميت وإن نزل ، وتموت بالموت الفروق الإنسانية فى المال والجاه والقوة والجمال ، حتى لا يبقى إلا الدمعة واللوعة والحسرة والزفرة ، وهذه هى أملاك الإنسانية المسكينة!

يا هم من يحس ويعرف ويرى كيف يموت العزيز عليه وكيف يتحول من يحبه إلى ذكرى! إن ما يعمل فى القبر بعمل قريب منه فى القلب!

\*\*\*

وما يعرف الحى أن الذاكرة فيه هى حاسة اللانهاية<sup>(١)</sup> إلا حين يموت له الميت العزيز ، فلا يكون فى الدنيا وهو فى ذاكرته بمعانيه وصورته لا يبرحها .

وليس ينزل الحى من أمواته فى القبر إلا من يقول له إننى منتظر كإلى ميعاد! أما لو عقلها الأحياء لعرفوا أن الموت هو وحده ناموس ارتقاء الروح ما بقيت فى الدنيا ، ولكن ضجيج

(١) هذا أى لنا ، فالذاكرة عندنا من الأدلة على خلود الروح .



الشهوات - على أنه لا يعلو رنة كأس ولا يغطي همسة دينار ولا يخفى ضحكة امرأة - يطمس على الكلمة الأزلية التي فيها كل قوة الصدق وكل صراحة الحقيقة، فإذا هي خافتة لا تكاد تثبت، غامضة لا تكاد تبين!

أذلك سحر الحياة فينا، أم سوء استعدادنا لها، أم شراهة الجسم من لذة الحياة لا ابتلاع كل ما فى الكون منها، أم حماقة الكأس التي تريد أن تغترف البحر لتكون له شاطئين من الزجاج، أم بلاهة الإنسان الذي يريد أن يطوى فيه معنى الخالق ليكون إله نفسه!

ويحه من غريق أحرق يرى الشاطئ على بُعد منه فيتمكث فى اللجة مرتقباً أن يسبح الشاطئ إليه . . . ويثبت الشاطئ ويدع الأحرق تذوب ملححة روحه فى الماء!

- اسبح ويحك وانج، فإن روح الأرض فى ذراعيك، وكل ضربة منهما ثمن ذرة من هذا الشاطئ.

كذلك ساجل الخلد: يريد من الإنسان الذى هو إنسان أن يبلغ إليه مجاهداً لا مستريحاً، عاملاً لا وادعاً، يلهث تعباً لا ضحكاً، ويشرق بأنفاسه لا بكأسه، وينضح من عرق جهاده لا من عطر لذاته.

إن روح النعيم الأرضى فى ذراعى الغريق الذى يجاهد لينجو، وروح النعيم الأزلى الحى الذى يجاهد ليفوز!

\*\*\*





الفقر والفقير

قال «الشيخ على»: يا بنى، إن فى تاريخ الحياة سؤالاً لم تزل تلقيه أطماع الناس فى كل عصر من عصورها وما تصيب له جواباً مقنعاً، لأن الطمع ليست له طبيعة محدودة، فهو يرمى بسؤال غير محدود ويريد بطبيعته جواباً غير محدود.

هذا السؤال واحد من ثلاثة هى حقائق الإنسانية الضالة عن الإنسان نفسه فى غيب الله .

يقول الإنسان: ما هى الروح التى تعطى الحياة؟ وتقول آماله: ما هو الموت الذى يستلب هذه الحياة؟ وتقول أطماعه: وما هو الفقر الذى يجمع على الروح بين الموت والحياة؟

كذلك يتساءل: ما هو الفقر؟ على أنه غير الفقر ذلك السؤال الذى تجد فى كل نفس إنسانية معنى من جوابه، ولا غير الفقر ذلك القبر المعنوى الذى لم يخلق الله نفساً من النفوس إلا ولها ميت من الأمل فى ترابه، بلى، وإذا كان فى لغات الأفواه لفظ خالد فإنما هو الفقر؛ وإذا كان فى هواجس القلوب معنى خالد فإنما هو خوف الفقر، وإذا كان للدموع الإنسانية مصب واحد تلتقى إليه من جهات الأرض فإنما هو بين شاطئتين إن جاز أن يكون أحدهما الحب فإن من الحق أن أحدهما الفقر!

إن هذه الأرض لتصبح فى كل يوم ولا يمكن أن يقال بحق إن فيها عملاً إنسانياً عاماً طلب المال ، فأحر بها أن تسمى فى كل يوم ولا يمكن أن يقال إن فيها معنى إنسانياً عاماً غير راجع إلى الفقر .

ويقولون إنها تدور حول قرص الشمس ، وهو قول فلكى أو سماوى يصح إطلاقه على الأرض كهيئتها يوم خلقها الله ، أو على الأقل كما خلقها ؛ أما الحقيقة الأرضية فإنها تدور حول قرصين : قرص الذهب ، وقرص الذهب ؛ ويا لله وللفقير ! إنه دائماً فى الجهة المظلمة .

الفقر متى ألقيته سؤالاً عاد إليك بجواب نفسه ، لأنه فصل من كل عمل ، كالشتاء فصل من كل سنة ؛ وليس فى الناس جميعاً من يصدق إذا ادعى أنه لا يعرف الفقر ، غير اثنين لا خير فيهما : غنى جن من فرط الغنى ، وفقير جن من فرط الفقر ، فالأول لا يعرف هذا الفقر فى جنونه لأنه جن بغيره ، والثانى لا يعرفه لأنه جن به .

ولكن من هو الفقير؟

من هو الكائن الضعيف الذى أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه ، وأينما يولّ وجهه أشاح عنه الناس بوجوههم فلووا رؤوسهم ، وصعروا خدودهم وأمالوا أعناقهم ؛ حتى كأن كل رأس فى التواء عنقه من الأنفة والاستكبار يمثل علامة استفهام أقامتها الحياة فى وجه هذا المسكين أو يقيم علامة إنكار . . . ؟!

من هو هذا الحى الذى تنكرت له الدنيا حتى أصبح فيها كأنه نوع شاذ من الخلق يقوى على كل شىء حتى الطبيعة ، ولكنه يضعف



عن شىء واحد وهو الغنى ، فقضت عليه شرائع الاجتماع أن ينفق من حياته أضعاف ما يكسب لحياته ؛ فهو إذا كدح فى العمل طوال يومه ، فقوت هذا اليوم عليه كثير ، وإذا لم يجد ما يطعمه الجوع فأطعمه من جسمه فذلك عليه يسير ، وإذا سال فى الشمس وجمد فى البرد فهو عند الأغنياء ذو طبيعتين لأنه ليس مثلهم ولأنه فقير . . . ؟

ومن عسى أن يكون هذا القوى الذى يختصمه الاجتماع كله ويخشى أن يرتفع فيكون «قاضيًا» عليه ، ويأخذه اليوم بالجنابة وهو الذى أوحاها بالأمس إليه؟ ومن هذا الذى يرى المجتمع أنه إذا قدر للشريعة أن تلحد فى قبر فلن تدفن إلا فى هاوية من مطاعمه ، وإذا حكم الله على عصر من عصور الجبابرة بالشنق فلا تكون المشنقة بجذعها وحبالها إلا من ذراعيه وأصابه (١) . . ؟

من هو الذى يجف ريق الأرض لو جف عرقه من ترك العمل ، ويخيب أمله مع ذلك فى كل غنى وهو نفسه للأغنياء أكبر أسباب الأمل ؛ يدلون عليه بالغنى ولولا أن فى فضتهم عنصراً من دمعه القيم لما وجدوا لها قيمة ، ولو لم يكن فى ذهبهم روح من دمه الكريم لما عد أفضل المعادن الكريمة؟

قال «الشيخ على» : ذلك يا بنى هو المدرج فى أكفان النسيان ، الذى ليس له فى الناس إلا «منكر ونكير» ؛ ذلك هو البائس فى بنى

(١) كذلك وقع فى روسيا البلشفية وسيقع فى غيرها وغيرها ، ومتى لم يؤمن الغنى كفر الفقير . . .



الإنسان الذى يكتر عليه القليل ويقل منه الكثير ؛ ذلك هو المتناقض فى نفسه حتى لا يصغر أن يقال فيه صغير ولا يكبر أن يقال فيه كبير ؛ ذلك هو الذى يشبه أن يكون عمله حركة فلكية فى الأرض لآلة الغنى - ذلك كله هو الفقير !

وبالله ! ما تحمل الأرض إنساناً واحداً لا يخشى عادية الفقر ، ولا يتعوذ بالله منه ولا يرى يومه فى هذه الأرض كأنه الآخرة قبل الآخرة ، يقوم الفقير بين حسابها وعذابها ، ويستعيد برحيمها ، من جحيمها ، ويفر من أمه وأبيه ، وصاحبه وبنيه ، وفصيلته التى تؤويه ؛ ويضع فى ميزانها المنصوب أماله ، فلا يزن إلا أعماله ، ويستصرخ كل من يمر به فلا يسمع إلا قائلاً يقول : نفسى نفسى . . . فينظر فإذا هو فى الناس ضائع حتى لا يعرف له محلاً ، ومنفرد حتى لا يجد بينهم لشخصه ظلاً ، وإذا هو بالسمااء وقد التهبت بأقدارها حتى كأنها فى عينه جمرة من البرق الخاطف ؛ وإذا الأرض قد ثارت بأهلها كرماد اشتدت به الرياح فى يوم عاصف ؛ فإن أقبل على الناس فروا من أماكنهم كأنه زلزلة تمشى ، وإن استصرخهم نفروا كأن فى صوته فزع الرعد القاصف .

يا لله ! ما تحمل الأرض إلا من يعرف هذا كله من الفقر بل أشد منه ، ثم يبقى الفقير - ويا لهف أرضى وسمائى عليه ! - كأنه مسألة فى حساب الناس لا هم فيها إلا كثرة الطرح والضرب ثم الغلط فى النتيجة . . . وتنحاز طبائع الناس كلها فى جهة والفقر وحده فى





جهة حتى لا يرى هذا المسكين في العالم على سعته غير اثنين : هو واستبداد الغنى .

ترى أين تكون شرائع الآداب إذن؟ هل هي في ضمائرنا، أم هي في كتبها، أم هي في تاريخها الميت القديم؛ أم صار الحق كله إنسانياً بحثاً: لى عليك ولك على وليس لله علينا شيء، وفصلنا أنفسنا من السماء وقطعنا الروابط التي كانت تربطنا بها ونبذناها فرثت ثم رثت فإذا هي على أجسام الفقراء تلك الأسماك البالية؟

إن هذه الحقوق متى أصبحت إنسانية محضة ليس فيها لله شيء فكل درهم يوضع في يد الإنسان يجعل فيها عقلاً يحكم على عقله، وكل رغيغ يستقر في معدته يخلق فيها ضميراً يستبد بضميره، فينفصل الإنسان من الله ويبتعد عنه بمقدار ما يقرب من الغنى، وحسبه يومئذ في اعتباره بعيداً جداً عن الله ورحمته أن يقال إن بينه وبين ربه مسافة ألف دينار . . . ذلك بأن عدل الله يقضى أن يكون للفقير قسمه من الثروة، وإنما الجزء المهم من هذه الثروة هو الإحساس في ضمائر الأغنياء .

والأدلة على هذه القضية - قضية الحقوق الإنسانية - كثيرة تفوت الحصر لأن كل صاحب ربا قد جمع مال السحت من استئكال الناس إنما هو في نفسه دليل عليها؛ ولعمري إنه ليس أحد أخيب رجاءً ولا أحق بأن يخيب، ممن يسأل المتهاالك على الربا- الذي



يستتبت دراهمه بين الأحران والدموع- إحساناً لوجه الله ، فإن هذا الذى لا يعرف الله فيما يأخذ يعرف الله فيما يعطى<sup>(١)</sup>؟

قال «الشيخ على» : ولماذا نرى يا بنى جفاة الأغنياء يخشون من الفقر على أنفسهم وأهليهم فقط ولا يخشون منه على الفقير؟

أظنهم يقولون إن فى الأرض شيئين بمعنى واحد: قبور الأموات فى بطنها ، وأكواخ الفقراء على ظهرها ، وليس من فرق بينهما فى النسيان لأنه يشملهما جميعاً ، وإنما الفرق بينهما فى حالتهما المتناقضتين ، هذا قبر ميت وهذا قبر حى . . نعم صدقوا وأبروا وقالوا حقاً ، أليسوا جفاة القلوب غلاظ الأكباد؟ وإلا فما الفرق بين موت منسى كموت الغريب ، وحية منسية كحية الفقير ، إلا على الفرق الذى لا يبالي به هؤلاء الأغنياء حين يكون لأحدهم ظاهر حى وضمير ميت؟

وأحسب أولئك الطغاة يقولون؛ إننا نرى الفقير لا يملك من الأرض شيئاً محدوداً بل هو يملك أرض الله كلها بحدودها الأربعة . . . ففقر فلان التاجر الغنى مثلاً ليس هو فى الحقيقة أن لا

(١) لسنا نرى فى الربا خيراً اجتماعياً خالصاً ولا نفعاً إنسانياً صحيحاً على الإطلاق وما هو إلا محق الله للإنسان ومحق الإنسان لنفسه ، ولكن كثيراً من الرذائل الإنسانية كالربا وغيره أصبح من دخوله فى شرائع الاجتماع الفاسد كأنه بعض الشرائع ، فاستكان إليه ضعفاء الناس وأقبلوا يخربون بيوتهم بأيديهم . . . ولعل حكمة تحريم الربا فى الإسلام أنه فى الأكثر أكل لبقية الفقير وانتفاع باضطرابه وإرهاق له بمضاعفة الحاجة عليه ، وهى كلها أدوات قتل اجتماعى!



يصيب القوت ولا يجد المأوى كغيره من الفقراء، وإنما هو المتاجرة في الآمال، بعد الأموال، وقبض الريح . . . بعد قبض الربح، واستقبال الأبواب والجدران، بعد استقبال الأصحاب والجيران، وهلم من هذا الباب الذي يفتح من جهة الغنى على سائر الجهات الثلاث للحياة البائسة: وهي الفقر، والمذلة، والألم، وإنما هو رجل ككل رجال المال متى خرج المال من يد أحدهم خرج اسمه من أفواه الناس وخرج حبه من قلوبهم، ويكون من أهل السعادة لو خرج هو أيضاً من الدنيا . . .

قتل الإنسان ما أكفره! لو أن غنياً فقد جبلاً من الذهب وأصاب رغيماً يتبلغ به لكان ذلك أيسر في مذهب الإنسانية من أن يذهب البائس المعدم فيتكفف الأبواب ويستكف الناس<sup>(١)</sup> ثم لا يتخلص منهم رغيماً يمسك به الرمق على نفسه ويقيم منه باباً حاجزاً يمنع الجوع أن يدخل إليه الموت وأن يخرج منه الروح؛ ولكن مصيبة الإنسانية في أهلها أن الله لم يخلق إلا صنفاً واحداً من الناس، على أن كل إنسان يظن أنه ذلك الصنف الواحد . . . فالغنى إذا تصور الفقر وهو لا يزال في غناه؛ لا يتوهم إلا اختلال نظام الأقدار، واضطراب حركتى الليل والنهار، بعد أن يهوى كوكب سعده الذى يسك من كل ذرة فى أشعته دينار . . . وهو لا يرى بهذا الفقر إلا أن نقمة هابطة من السماء ولعنة صاعدة من الأرض قد التقتا عند رأسه الشامخ فى جو كبريائه فاصطدمتا به فإذا هو مكب لليدين وللنم عند أقدام الناس وإذا هو فقير!

(١) استكف: مد كفه للسؤال، وتكفف الأبواب: إذا وقف بها سائلاً.



هذا هو الفقر في أوهامهم ؛ ولكن لا تنس أنه فقرهم فقط . . . فقر المال المترابط في مكانه أو الذهاب في حلوق الأرض<sup>(١)</sup> وبين أضلاعها ، أما سائر الناس فهم عند هؤلاء أهل باطل ودعوى ، يزنون بكل ريبة ؛ ويُقرفون بكل تهمة<sup>(٢)</sup> ، إذ يتحلون الفقر ويدعون له ليعادوا نعمة الغنى بالحسد ؛ فالجوع فقر ، والمرض فقر ، والتعب فقر ، والضجر فقر ، واشتهاء ما ليس لهم فقر ، وقلة الأصحاب فقر ، وحتى ولو أن أحدهم سخطته زوجه لنسب ذلك إلى الفقر ؛ وبالجملة فكونهم ليسوا كالأغنياء هو الفقر .

فإذا كان الفقر كل شيء عند هؤلاء الحمقى فما هو الشيء الذي يسمى الفقر ؟

من أجل ذلك يا بنى ترى الأغنياء يخشون من الفقر على أنفسهم وهم أنفسهم لا يخشون منه على الفقير ، لأن هذا الفقير في رأيهم قد أصبح شخصاً آخر لا صلة لهم به ولا عهد ، فهو يكذب على الحوادث والحوادث تكذب عليه ؛ وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فإذا انخدعوا له فبمقدار ما يتعجبون من سخافته ، وإذا أعطوه كان العطاء سخيلاً بمقدار ما ينخدعون ، ولا ينظرون لأثر الله عليه ولكن لأثره على نفسه ؛ إذ الحقوق عندهم حقوق إنسانية ، فهيئات يختلج في نفس أحدهم أن لو شاء الله لوضعه في ثياب هذا الفقير ولوضع الفقير في ثيابه .

(١) أى مضايقتها ومجاريها وأوديتها ، والكناية بالأضلاع عما بقى من مسالك الأمم .

(٢) يزن ويقرف : بمعنى يرمى ويتهم .





أترد مثل هذا الغنى الجلف المتسكع إلى الدين؟ إنه هو في نفسه دين وشريعة أيضاً. . . أتبصره بالإنسانية؟ فمن هو إذن ويملك إن لم يكن من صميم هذه الإنسانية وعين أهلها بل إنسان هذه العين! أما الحق فاذكر بربك أمواله تعلم أن «الحق في يده» . . . هكذا هكذا يعطى المال أهله حتى فضائل غيرهم، ويسلب الفقر أهله حتى محاسن أنفسهم؛ وهكذا لا تجد المال أبداً إلا نعمة ناقصة، ولن تتم هذه النعمة إلا إذا رزق الإنسان مع الغنى أخلاقاً تكفيه شر الغنى؛ ومن أجل هذا كان من الأمور الطبيعية أن تجد العقل في إنفاق المال أشد ارتباكاً منه في جمع المال<sup>(١)</sup>.

قال «الشيخ على»: ولا بد من صلة معنوية بين جميع الناس على ما يكون بين الإنسان والإنسان من التباين والاختلاف في كل شيء، حتى بين الأخوين تلدهما الأم الواحدة؛ وهما مهما اتفقا في الحياة ومظاهرها فإنهما لا بد مفترقان افتراق الثديين اللذين ارتضعا منهما الحياة؛ فما عسى أن تكون هذه الصلة العامة بين الناس؟ تقول الشرائع إن الصلة التي تجمع الناس بعضهم ببعض هي العدل! وتقول العلوم إنها العقل، وتقول الآداب إنها شيء من العدل والعقل يكون الإنسانية في الضمير، وتقول الحياة إنها سبب الإنسانية وهو الرحمة؛ ثم يرعد صوت إلهي يقصف من جهة السماء التي هي مصدر العقل والعدل والإنسانية والرحمة فيصيح

(١) ولهذا صار مبدأ حكماء الأغنياء أن يحسنوا بكل أموالهم على الإنسانية ليخجوا من الدنيا فقراء كما دخلوها.



بكل ما فى هذه الأشياء من القوة ويقول : كلا! بل هو سبب الرحمة ومظهر الإنسانية، وكمال العقل، وفضيلة العدل، وهو الفقر!

من الذى ولد وفى يده قطعة من الذهب؟ ومن الذى مات وفى يده «تحويل» على الآخرة<sup>(١)</sup>؟ لقد وسعت الخرافات كل شىء إلا هذا؛ فما لنا نتحد فى البدء والنهية ثم نختلف فى الوسط؟ ذلك لأن بدءنا من طريق الله ونهايتنا فى طريق الله، ولكن الوسط مدرجة بيوتنا ومصانعنا وحوانيتنا، وبكلمة واحدة هو طريق بعضنا إلى بعض . . . . . وحينما التقى الإنسان بالإنسان فإما أن تلتقى المنفعة بالمنفعة وإلا فالمنفعة بالمضرة، فلا بد من انتفاع أحدهما أو كليهما؛ ومن ثم يقول البخلاء: ما الذى ننتفع به من رحمة الفقير؟ وماله يريد أن يتحيفنا كأنه روح الجذب، وأن يتعرقنا كأنه روح المرض<sup>(٢)</sup>؟ وماله يريدنا على أن نسيء من أجله المس فى أموالنا كأنه روح الإفلاس؟ أو لا يكفيه أننا لا نرزؤه شيئاً، وأنا نفضل عليه فنعتد الدرهم الذى تمسكه عنه كأنه درهم أخذناه منه، وبذلك لا يضرنا ولا ننفعه بشىء، ومن الجهة الأخرى لهذا القياس يكون قد نفعنا ونفعناه بلا شىء . . . . .؟

قاتل الله البخل وقبحه، فما هو إلا حرص على المنفعة يشبه عبادة الوثنيين لكل ما توهموا فيه المنفعة؛ وإن كان للحواس نوع من

(١) المعنى كما هو ظاهر . تحويل واجب الدفع . . .

(٢) تحيفتهم السنة : أى الجذب، إذا نقصتهم وجارت عليهم، وتعرق العظم إذا لم يبق عليه شيئاً من اللحم .



الكفر بالله فكفر اليد في إمساكها؛ وإن الله لرحيم إذا لم يعاقب البخلاء بما يعاقبون به الناس، فليس بين كل بخيل وبين الهلاك إلا أن ينقل الله «الإمساك» من يده إلى جوفه! . . . على أن البخل إذا لم يكن بقية من الوثنية القديمة بعينها فهو على كل حال نقص من الإيمان، لأن الله وعد المحسنين والمتصدقين ثواب ما أنفقوا مكافأة على فضيلة الإحسان التي هي في الحقيقة فضيلة الإحساس، ثم أن يخلف عليهم ما أنفقوه أضعافاً مضاعفة؛ إذ المحسن لا يوجد بدراهمه على الله ولكنه يقرضه إياها قرضاً حسناً متى وضعها في يد الإنسانية الفقيرة؛ فمن أمسك عن الإحسان بخلاً فإنما يشك في وعد الله، وإلا ففي قدرة الله، وإلا ففي الله نفسه؛ فأكبر البخل عند أكبر الكفر وأصغره عند أصغره، ويوم يخرج الإيمان من قلوب الأغنياء تخرج أرواح الفقراء من أجسامهم فيموتون بالجوع وبالعرى وبالمرض وغيرها من أسباب الموت، وكلها مظاهر متعددة لسبب واحد هو في الحقيقة كفر الأغنياء كفرة في الضمير لا كفرة في اللسان.

ومن هنا يا بني لا تجد الفقير في أي عصر من العصور إلا جهة من الخلل في نظام الاجتماع الإنساني، كما أن البخل جهة من الخلل في نظام النفس الإنسانية، والفراغ الذي يجده الفقير في بيته إنما هو موضع النعمة الضرورية التي بخل بها الغني، وهو في الحقيقة موضع التفكك أو الكسر في الآلة التي تديرها شريعة

الاجتماع



الإنسان إنما خلق اجتماعياً، وهو بشخصه لا قيمة له ولا منفعة إلا حيث يكون شخصه جزءاً من مجموع، لأن اليد الواحدة في الجسم ولو كانت يد ملك وكان فيها زمام العالم فإنها لا يفارقها عيب أختها المقطوعة .

وكل خلل في النظام الاجتماعي فإنما مرده إلى طغيان بعض الأفراد وجنوحهم إلى أن تكون شخصية الواحد منهم من الكبر والعظمة بحيث توازن المجموع كله أو أكثر المجموع: إن هذه الموازنة الفردية متى اتفقت كانت إخلالاً بالموازنة الاجتماعية، لأنها تجعل كل حركة من هذا الفرد زلزلة في المجموع، كالثقل في إحدى كفتي الميزان . إن خف سقطت الكفة الأخرى وإن ثقل شالت، وهو السقوط إلى فوق! . .

والموازنة الاجتماعية لا تنهياً إلا إذا تطبعت قوى المجموع<sup>(١)</sup> فاندفعت في تيار واحد إلى جهة معينة؛ ولكن الموازنة الفردية لا تستقيم إلا إذا جاءت من عكس هذه الجهة، فتصد قوة المجموع وتبقى دائماً ذات قوة على صدها من الغلبة، فإن ضعف خصمه يعطيه منها أكثر مما تعطيه قوة نفسه، ولا يكون ضعف المجموع إلا من حصر الشخص العظيم قوة عقله ونفسه وضميره في هذا السبيل الفردي، لتكون منه الشخصية الهائلة التي تشبه ما كان في تاريخ الوثنية من شخصيات الآلهة وأنصاف الآلهة .

(١) من قولهم: تطبع النهر . إذا اجتمع ماؤه وعلا فاندفق أو كاد .





وقد اضطر الناس لذلك من عهد اجتماعهم فى نظام أو شريعة إلى ابتداء الوسائل للتوفيق بين قوة الفرد وقوة المجموع، حتى لا يستشرى الداء<sup>(١)</sup> فى الموازنة الاجتماعية فيفسدها ويوقع الخلل فى نظامها، ولكيلا تكون خيرات المجموع كلها فى معدة واحدة، وحتى لا يبقى الناس أرقاماً يعدهم الغنى المستبد كما يعد دراهمه لأنهم ثروته الحية!

غير أن هذه الوسائل على اختلافها لم تكن ولم تنزل إلى عهدنا - عهد الاشتراكية العلمية<sup>(٢)</sup> - إلا ثورات هى مهما كانت فإنها أشبه شىء بجموح الحيوان إذ يحمى أنفه فيجمع ثم يسترسل فى جماحه ثم يشتد حتى يعتز صاحبه على رأسه ويملك نفسه منه، ثم ماذا؟ ثم يسكن مكرهاً بعد أن جمع راضياً، فإن لم يسكنه الألم من صاحبه أسكنه التعب من نفسه؛ لأن التخلص من شىء فى فطرة الإنسان وانتزاعه من مغرزه فى نفسه؛ لا يكون بالتخلص من إنسان بعينه.

ومن هذا يا بنى ترى أن الإنسان لا يعيش فرداً ولكنه حين يموت يموت فرداً؛ فإذا رأيت فقيراً منبوذاً من الاجتماع منفرداً عنه، لا

(١) استشرى الداء: إذا سرى فى الجسم.

(٢) ليس فى الوسائل الاجتماعية كلها ما يعدل نظام الزكاة فى الإسلام، وفى هذا الدين الإسلامى العظيم أصول إنسانية عامة لا بد أن تنتبه لها الأمم فتكون سبباً فى إقبالها عليه وظهوره على الدين كله، ومن هذه الأصول الزكاة، فلو أنه أخذ ربع العشر (اثنان ونصف فى المائة) من ثروة العالم بأجمعه كل سنة وجعل فى مصالح الفقراء لأصلح الفقير والغنى معاً، ولكن الاشتراكية تحاول بحق الربا بحق رأس المال وتعمى عن نظام الزكاة وهذا من شرها.



يساهمه فى عمله وعيشه ، بل كأنه يعيش فى بقعة مجهولة من الحياة ، فاعلم أن إهمال ذلك الفقير إنما هو نوع من القتل الاجتماعى .

ههنا قاتل ومقتول : لم يأخذ القاتل بحق من الحقوق ولا ثأر لنفسه ولا قتل بيده ، أما المقتول فإنه لم يقتل فى إثم اجترحه ولا هو جنى على نفسه الضعف الذى أرهقه وبلغ منه حتى جعل إهمال القوى إياه كأنه حكم عليه بالقتل ، فترى على من تكون هذه التبعة ، وهى بالتحقيق ليست على القوى لقوته ولا على الضعيف لضعفه؟

هناك اثنان : رجل فى الماء وآخر على الشاطئ؛ فأما الذى فى الماء فليس بينه وبين الموت غرقاً إلا نفس واحد مبتل ينسل بالماء من حلقه إلى رئتيه وهو يرى بعينه الموت دائماً فى حفر قبره المائى ، فليس الموج الذى يتكفأ به ويتناثر من حوليه إلا ما تثيره يد جبار الموت من غبار ذلك القبر وتثووه فى وجهه بنزق وغضب ، بعيد عن الأحياء حتى بعد عن أن يكون له قبر بينهم ولا صلة بينه وبين الحياة الأرضية إلا نظرات ذلك الرجل القوى الذى يترأى فى عين الغريق كأنه صخرة راسية على الشاطئ لها قوة وليس لها إرادة؛ ولكن هذا الذى يشعر بصلاية الأرض تحت قدميه ويحس القوة من يده وعضلاته ، يشعر أيضاً بمعنى من الصلاية فى قلبه وقد جاء إلى الشاطئ ليتنفس من تلك النسيمات التى يتنهد بها صدر السماء فتكون أرواحاً للأمواج تبعث فيها حركة الحياة . ما له ولهذا المنظر؟ سواد بظفو على الماء كأنه هنة من المتاع الخلق أو حذاء قديم أو ريش



تحسر عن طائفة . أو رأس رجل يغرق ؛ وما دفعه بيده إلى الماء فيكون حقاً عليه أن يستنقذه ، ولا كان الغوص من صناعته فيعتمل في إخراجه ليخرج معه أجر عمله ، وهو قوى ولكنه قوى لنفسه لا للضعفاء ، وقد جاء ليروح عن نفسه ، وإنقاذ الغريق عمل آخر وربما أنشبه في حلق الموت . . . أخذ فيما جاء له وما زال يموج في جلده ويتنفس ملء صدره من الهواء ومن زفرات الإنسانية التي تنشق لها غيظاً ؛ ومن لعنات ذلك الغريق الذي بدأت حياته تذوب كما ينمات في الماء<sup>(٢)</sup> حتى أن له أن ينصرف وترك الرجل يغرق وهو يقول : لا بأس أن ينقص عدد أهل الأرض واحداً فهم كثير! . . .

ترى على من تكون هذه التبعة أيضاً؟

إذا أردتم أيها الناس أن تعرفوا ذلك فإنكم تستطيعون أن تحققوه بدون أن تكونوا شرطة<sup>(٣)</sup> أو قضاة أو أهل قانون أو رجال فلسفة ، ولكن بأن تكونوا من ذوى الإنسانية فقط ؛ فإن الإنسانية لا ترى في الأرض إلا الضمائر ، وما هذه الأجسام إلا أدوات صناعية ركبت هذا التركيب لتصلح لحياة الضمير ؛ فالرجل قد مضى برىء اليد ، برىء القوة ، برىء العقل ؛ إذ هو لم يقتل ، ولم يجن على القتيل ، ولم يحتل لقتله ؛ ولكن الإنسانية حين تنادى الضمائر بأوصافها فتقول : أيها الطيب ، وأيها الكريم . وأيها الشقى السافل ، تصيح بضمير هذا الرجل قائلة : أيها القاتل! . . .

(١) أى سقط وتناثر .

(٢) انمات الملح في الماء : ذاب .

(٣) هم رجال البوليس ، والواحد شرطى .



إذا لم يقر الأغنياء لأنفسهم بالضمائر ولم يلحقوا بها التبعات التي تباستها فهل هم في ذلك إلا كالمجانين لا تقرر لهم الشرائع بالعقول وتخليهم من تبعة ما يجنون على العقلاء لأنهم مجانين؟ . . . وكيف ترى ذلك الغنى الفظ الذي يهر في وجوه الفقراء ويزمجر عليهم كأنه ينبحهم بلغة من لغة الكلاب . . . ولا يفتأ يقذفهم بالألفاظ الجاسية المؤلمة كما يقذف المجنون بالحجارة . . . وإذا أعطاهم فإنما يعطيهم بقضية فارغة . . . وهو لا يوقر أبداً إلا من فوقه، كأنه لا يرى في الدنيا كلها أسفل من نفسه . . . ولا يبالي إلا بمن يطمع فيه كأنه جالس في (مكتب أحد المخدمين) . . . وقد تساوى في الدناءة والكلف بالدنيا وقذارة الطباع ظاهره وباطنه كأن ضميره لبسه مقلوباً . . . وصار أمر رضاه وغضبه وإحساسه وحيائه موقوفاً على ما يكون من أمر المعاملات، كأن أخلاقه ليست في نفسه ولكنها في أيدي الناس، أفليس مثل الغنى الدنيء رجلاً عاقلاً؟

بلى، وإنه لأعقل من كل من يمدحه ويزكيه ولو كان هذا المثني عليه أكبر علماء الاقتصاد؛ ولكنه على ذلك مجنون الضمير بحيث لا يعقل إلا بحواسه!

ولو أنصفت القوانين لما لبست مثل هذه الحرية الإنسانية على رذيلتها، ولجعلت من نصوصها القاطعة ما يكبح مثل هذا الغنى<sup>(١)</sup> ويتلقاه بلجامه، لأنه في الحقيقة ليس رجلاً ولكنه دابة اجتماعية!

(١) كبح الدابة: إذا تلقى فاهها باللجام.





قال «الشيخ على»: ومن بديع حكمة الله أنه وضع للإنسانية أصلاً من أصول نظامها في ضمير الإنسان فترك له أن يقترف ما شاء من الإثم والمنكر ولكنه جعله من الإحساس بطبيعة الخير والشر بحيث يكون له من الذنب نفسه العقاب على الذنب؛ حتى إن شر المجرمين ليستعين على مقارفة جرمه بإقناع الضمير بدياً<sup>(١)</sup> وأخذه بالحجة من هواه، فيخطر في نفسه ما ينزوبها، كالشجاعة والنخوة؛ أو ما يتوهج بروح الغضب في دمه، كالانتقام ونحوه؛ وما يطمئن له الضمير في معنى الجنائية، كمدافعة الضرر وما إليه!

وبالجملة فإن أول ظلمه أن يعتقد ظلمه عدلاً أو شبيهاً بالعدل، حتى لا يلتوى عليه أمر نفسه إذا خذله ضميره، فإن اضطراب هذا الضمير يتصل اتصال الكهرباء بأيدي المجرمين فإذا هو فيها شلل. وبأرجلهم فإذا هو زلل، وبنظامهم العصبى فإذا هو خلل، وبعقولهم فإذا هو المس والخبيل، وإذا لم يفلح الجانى فى إقناع ضميره أو التلبس عليه تخلص منه ففصل بينه وبين العقل بالسكر وما هو فى حكمه حتى لا يشهد من أمره شيئاً.

أفلا تجد فى تخدير أكثر المجرمين لضمايرهم ساعة الجناية دليلاً على أن الضمير الذى يشهد الذنب إنما يتلقى العقاب عليه؟ ولماذا تدفع الجريمة إلى الجريمة غالباً؟ أليس ذلك لأنها إنما تقتضى عقابها الطبيعى؟

(١) فى بدء الأمر.



ثم ماذا يكون بعد أن يضرب الشقى تلك الحاسة الروحية التي نسميها الضمير ويرميها بالشلل - إنه ينحط درجة واحدة، ولكنها درجة الضمير التي لو جازها الحيوان لصار إنساناً، ولو نزل عنها الإنسان لعاد حيواناً، فلا يبقى فيه من ثم إلا الفطرة الحيوانية التي تجعل عقل الحيوان مرة في القوة ومرة في الضعف، فإن أحس القوة على خصمه كان العقل في الظلم بكل ضروبه وأشكاله، وأبى هذا العقل الحيوانى أن يترخص فى شيء<sup>(١)</sup> هو من حقه بالقوة، وإن أحس من نفسه العجز والضعف ورأى أن لا قبل له بخصمه فكفى باتقاء الظلم عقلاً . . .

يا بنى! إن أفقر الفقراء ليس هو الذى لا يجد غذاء بطنه، ولكنه الذى لا يستطيع أن يجد غذاء شعوره فلا تحسبن أن مع جنون الضمير وجفوته ومرضه سعادة وراحة، لأن لذة المال لا تتجاوز الحواس الظاهرة فهو يبتاع لها كل شيء مما تشتهى ولكنه لا يستطيع أن ينيل القلب شيئاً إلا إذا جاءه بالخير والفضيلة .

والغنى الذى يمنع الفقراء ماله قد يزيد فيه ولو حكماً بمقدار ما يمنع . . . بضعة دراهم، أو بضعة دنانير، ولكنه يزيد ضميره جفاء بالقسوة والغلظة ونسيان الفضيلة؛ ولا يزال على ذلك حتى يمر به يوم يفقد فيه ضميره كل شعور بالخير فيفقد معه كل شعور بلذة النفس التى هى أقرب المعانى إلى معنى السعادة . . .

. . . ويومئذ لو اشترى كل لذات الدنيا بماله ما زادته إلا ألماً من

(١) ترخص فى حقه: إذا أخذ ما طف له ولم يستقص .



الضجر وضجراً من الألم ، لأنه فقد قوة من ضميره تقابل القوة التي يفقدها المريض من معدته .

فلينظر الفقير الجائع وقد أخذه كلب الجوع وسطع في عينه وهجه ودارت به معدته ذات اليمين وذات الشمال - إلى رجل غنى معود<sup>(١)</sup> في كفه معنى الحياة وفي جوفه معنى الموت ؛ وقد ابتاع مما تشتهييه معدة خياله التي لا تشبع لأنها لا تنال شيئاً ، وأسرف بالمال في ذلك حتى استجمع الكثير الطيب ، ثم انقلب إلى داره بعين من ذلك الذئب تكاد أشعتها تنضج الغذاء من حر نظراتها إليه .

. . . سلوا صاحبنا الفقير يقل لكم أى لذة يا قوم تكون فى غير هذا الطعام يقتل به داء البطن<sup>(٢)</sup> وتفتق عليه الخواصر شبعاً وسمنة . وهل هذه إلا روح مائدة من موائد الجنة ، فيها ما تشتهى الأنفس وتقر الأعين؟ ثم سلوا المعود المسكين يقل لكم وهو صادق صدقاً يتمنى بما ملكت يده من الدنيا لو أنه كذب ، يقل لكم : تالله ما أجد فى هذا كله ولا فى بعضه من لذة ولا سعادة ، ولو أبحاثه جوفى لكان الموت بعينه ! .

إذن فلا بد فى كل شىء إنسانى من حقيقة باطنة فى نفس الإنسان تعطيه بصحتها أو مرضها قوة اللذة أو الألم ؛ وبهذا يقضى العدل الإلهى كل ذى حق حقه بالنصفة والسوية ، لا فرق بين الغنى فى غناه وبين الفقير فى فقره ، فلكل منهما لذة وألم ؛ ولعلنا لو

(١) مريض المعدة .

(٢) داء البطن هو الجوع .



سألنا أغنى الناس عما هي لذة الغنى لرأيناه في حقيقة التعاسة النفسية كأفقر الناس إذا أجابنا عما هو ألم الفقر .

وقد فطر أكثر الخلق - لطبيعة الخوف المتمكنة منهم - على أن يتسعوا في فهم الآفات وحدها، حتى صار الوهم الخيالي أكبر الآفات الحقيقية، فالفقير الذي لا يفهم حقيقة الفقر يتألم بإدراك ووهم وفلسفة، إذ يقيس حاضره على ماضيه وعلى ماضى غيره من الفقراء، وقيس مستقبله على حاضر الأغنياء ومن في حكمهم فقط، وبهذا يكون ألمه عملاً عقلياً في شيء موهوم، فما دام يتمنى أكثر مما يستحق فهو يتألم بأكثر مما يستحق؛ ولو تأمل الناس لرأوا أن نصف الفقر فقر كاذب؛ فآه لو كان مع ضعف الفقر قوة الإرادة! إذن لو وجد الحكماء في الأرض شيئاً حقيقياً يسمونه الغنى .

أيها الناس، إن الفصل بين الغنى والفقر من الأمور التي تتعلق بالضمير وحده ورب غنى يزيد أهله بالحرص والدناءة فقراً، فانظروا فيهما بأفكار إلهية لا تطلب إلا الفضيلة التي يمكن أن تكون بلا ثمن، ولا يمكن أن يكون شيء ثمناً لها، انظروا إلى بعض الأغنياء الذين تموت في قلوبهم كل موعظة إنسانية أو إلهية فلا تثمر شيئاً حتى إذا ماتوا نبتت كلها من تراب قبورهم فأثمرت لنفوس المساكين والفقراء عزاء وسلوة وموعظة من زوال الدنيا، انظروا بعين الحقيقة التي تعطى هذه الطبيعة النظر فتعطيها محاسن الطبيعة الفكر .

انظروا في باطن الإنسان بالفضيلة التي هي من نور الله، وبالْحَقِيقَةُ التي هي من نور الطبيعة، فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار شبر واحد، هو ملء هذه المعدة!





## مسكينة! مسكينة!

قال «الشيخ على»: واسمع الآن يا بنى ما أقص عليك، فإنى محدثك بخبر ليتنى ما علمته، بل ليتنى إذ علمته، وليتنى إذ وعيته ما أثبتته ولا نفذت فيه كما نفذ فى .

ولكن الحياة كما تقضى علينا أن نشهد أموات الأحياء ونحملهم إلى أبواب الآخرة من تلك الحفر، تقضى علينا كذلك أن نشهد أحياء الأموات من أهل الرذائل ونحمل من أخبار ضمائرهم الميتة إلى أبواب السماء فى أنفسنا!

فواهاً لك أيتها الحياة الدنيا! تقتلين بالشر وتجر حين بأخباره ولا تؤتين غسل الحكمة إلا بعد لسع كثير . . .

وقد علمنا أن كل شىء يسير فإنما هو يذهب فى طريق يتهدى أو يعتسف<sup>(١)</sup>. وكان الأسف على أهل الشر لم يجد له طريقاً فى هذه الحياة إلا من ضمائر أهل الخير، وبهذا يضرب أهله وغير أهله .

كانت لنا يا بنى فى هذه القرية النضرة فتاة بائسة ضاق بها العريض من هذا البر فخرجت إلى بعض المدن تستطعم الحياة، فحدثتنى أنها استضاقت حتى كأنما كانت تنفذ إلى رزقها من شق فى

(١) على هدى أو غير هدى .



صخرة فى غار فى جبل ، ثم استضقت فكأنما ولجت هذا الغار  
فانحدرت تلك الصخرة فسدت عليها فلا وراء ولا أمام وأعجزها  
حتى المعاش الملقق<sup>(١)</sup> .

وخرجت يوماً على الناس وكأنها لقدارتها قطعة من الحياة البالية  
مدرجة فى بعض الأطمار ، أو روح من الهواء تمشى ساكنة فى أردية  
من الغبار ، وما تحصى العين تلك البقع المنتشرة فى ثيابها ، كأنها  
أرقام للفقير يعد بها ليالى عذابها ، وهى علم الله بقع ، أشأم منها أنها  
فى رقع ، وقد اغبر شعرها الفاحم وتلبد ، فكأنه بعض ما وقع على  
رأسها من حظها الأسود ، ولاح من تحته وجه كالدينار الزائف فى  
صفرتة ورده ، وكالقمر المحقوق فى استطالته تحت الظلام  
ومده . . . وهى فتاة عليلة قد أخذ السقام من حجمها كما أطفأت  
الأقدار من نجمها ، وخفى من المرض فى صدرها ، أكثر مما خفى بين  
الناس من قدرها . وما تعرف من أسماء الأموات والأحياء غير  
أسماء أهلها ولا تملك من الأرض كلها أكثر من غبار نعلها ، وقد  
خرجت تتحامل فكلما خافتت فى مشيها قليلاً خافت العثار ،  
فاستندت إلى جدار ، فإذا رأيت ثم رأيت صورة البؤس ولكن فى  
غير إطار<sup>(٢)</sup> .

وإنها لتمشى وكأن ليس فيها دم ينتهى إلى قدميها فهى تجرهما  
جرّاً وتقتلعهما بين الخطوة والخطوة ؛ وما تدرى من الألم أهما على

(١) الذى يكون تلفيقاً من هنا وهنا فلا يستقيم ولا يطرد .

(٢) هو ما يحيط بالصورة توضع فيه ، ويسميه العامة (البرواز) .



الأرض أم فى الأرض تسوخان؟ وقد تزايلت أعضاؤها فما تحس أن فيها حياة متماسكة، وهى ما فتئت تحسب أن جسمها قد خلق نعشاً لقلبها فلا هذا القلب يحيا كما تحيا القلوب ولا ذلك الجسم ينمو كما تنمو الأجسام!

وفى رأسها عقل زاد فضل الله ورحمته فى جهة منه ونقص عنف الناس وقسوتهم من جهة أخرى، فبينا هى على ذلك تحمد الله، إذا هى مع ذلك تلعن الناس؛ وهى مرة تنظر إلى الحياة فترى كل شىء فى الحياة إلا نفسها، ومرة تنظر إلى الموت فلا ترى فى الموت شيئاً إلا نفسها، ولم يمسك روحها بين الاثنين إلا خيطان: أحدهما من السماء وهو الأمل فى رحمة الله، والآخر من الأرض وهو إشفاقها على جثتها التى كانت تكدح منذ الصغر لقوتها، تلك الجدة الفانية التى كبرت وبلغت من الكبر حتى حسبتها الفتاة قد كبرت سن الموت<sup>(١)</sup>.

أما الآن فقد تبين لها الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وانصدعت حفرة جدتها المسكينة ولم يبق لها إلا رحمة الله.

قال «الشيخ على»: وكان خروج هذه البائسة أصيل يوم من أيام الصيف ذهبت فيه طاوية على الجوع كما تغدو الطيور من وكناتها<sup>(٢)</sup> وملء بطونها هواء، غير أن الطيور تهزأ بالناس جميعاً، وهى على ضعفها أقوى من الشرائع والقوانين، إذ تنبعث وكأن كل

(١) كبر (بضم الباء): عظم (وبكسرها): طعن فى السن.

(٢) الكنة كالوكن (بسكون الكاف): عش الطائر.



طائر منها إرادة متجسمة تقذف بها السماء فما تبالي على أى أرض تقع ومن أى حب تلتقط، ولا تعرف إلا أن هذا الإنسان يعمل على السخرة ليخرج لها من الأرض رزقها رغداً . . .

. . . أما الفتاة فكل الناس يهزأ بها، وهى ترى كل إنسان على ملكه كأنه قانون وضع لعقابها إذ حدثتها النفس حديثاً، فقد بلغت من الضعف والمرض والفاقة إلى حال لا تجعل يديها تصلحان لعمل غير الأخذ؛ فإن اختلست قيل سارقة فعوقبت، وإن سألت قيل متشردة فكذاك! ويا ليت فى قلب هذا الإنسان من معانى الصفح بعض ما فى لسانه من ألفاظ القصاص، ولكنه حيوان متكلم فتنصرف فطرته الحيوانية أكثر ما تنصرف إلى لسانه كما تتمثل هذه الفطرة من سائر الحيوانات فى حواسها التى تبطش بها، وكلا النوعين سواء فى الافتراس والكلب والتوحش، فما اللسان إلا حاسة البطش العاقلة . . . وقلما يؤذى الإنسان قبل أن يؤذى بهذا اللسان .

ولم تر المسكينة أروح لنفسها المكدودة من الانتحار، وكأما يخال لها أن فى الموت عيشاً، فخرجت تمشى بين الناس إلى قبرها كأنها فيهم جنازة وهم يشيعونها؛ ولئن كانت لم تسر بالحياة فلقد سرها أن ترى تشيع جنازتها وهى حية تموت، ولا أقول وهى حية ترزق؛ فإن العلة النازلة بها قد أخذت عليها مذهب الرزق حتى لم تترك لها فى الناس «وجهاً»، وقبضت عنها الأيدي إلا تلك اليد الواحدة التى تأخذ دائماً ولا تعطى أبداً . . . وهى الموت!





وإنها لتنفتل وتلتوى على أحشائها من رجفة الجوع، وما تأخذ عينها من الناس إلا من يحمل بطنه حملاً من شبع وري؛ فكان نظرها إلى الناس أمض عليها من الفكر في نفسها، وكأنها تقتل من جهتين .

وكذلك أخذت سمتها إلى طريق النهر، وأمضت نيتها على الموت غرقاً، لتموت نظيفة، وتكون لنفسها غاسلة، وترسل روحها المتألمة إلى السماء في دموع السماء!

ومشت تتساقط كأن الجوع والمرض يهدمان منها في كل عشرة ركنًا؛ أو كأنه كتب على كل بائس أن يموت في طريقه إلى الموت؛ وهي تتنهض من كل عشرة إلى أشد منها كما تتخطى العنكبوت في نسجها من خيط واهن يكاد ينقطع إلى خيط أوهن منه؛ وقد اجتمعت روحها في عينيها فهي تسيل على نظراتها الشاردة، وكلما امتد بها المسير قصرت مسافة النظر حتى توهمت أن الموت بادئ من عينيها؛ وإنها لذلك إذ لمحها طفل قروي قد انقلب من المدينة إلى الضاحية التي غادر فيها أمه العمياء، وكان يعتمل طوال يومه في بعض المصانع أو هو يحمل طعامها الذي لم ينله إلا ببيع نفسه يوماً كاملاً، على أن المسكين لا يحس من الذل أنه اشترى نفسه بمقدار ما يحس من العزة أنه ابتاع إداماً ورغيفين وقطعة من الحلوى .

قال (الشيخ علي): وبصر هذا الطفل بالفتاة، وأدرك أن روحها تخطو في أنفاسها، وأنه الجوع لا غير وهو من أبنائه، طالما شد عليه حتى انطوى، ولان لغمزاته حتى التوى، وما يعرف أنه ابن أبيه

وأمه، وأكثر مما يعرف أنه ابن فقره وهمه، فابتدر<sup>(١)</sup> إلى المسكينة، وكانت حركة الحياة فيها أسرع من حركة أضرارها في طعامه، ثم ذهب لا يعرف ما صنع . . . لأنه طفل؟ أو لأنه فقير؟ لا أدري!

غير أنى أعرف أنه لا يسلم من لؤم النفس في صنعة المعروف وتطويل المن به وتعريض الحديث فيه إلا الأطفال وإلا الفقراء، أولئك لأنهم لا يستكثرون الخير، وهؤلاء لأن الخير منهم غير كثير. وانطلق الطفل وهو يلوى رأسه ويفكر في أى خديه تقع عليه اللطمة الأولى من أمه، لأنها لا محالة متوعدة به<sup>(٢)</sup>، ستحسبه اقترف إثماً فطرد من عمله، وانقطعت به طريق أمله وإلى أن يأتى الله بالصبا الذى ينير برهانه، ويثبت لها إحسانه، يكون هذا الليل، قد صب عليه الويل، وهكذا جعل يشهد الله على ما سيلقاه فى سبيل الخير، بدلاً من أن يشهد الناس على ما لقى غيره منه فى هذا السبيل من إحسانه وإيثاره، لأنه طفل؟ أو لأنه فقير؟ لا أدري!

أما الفتاة فأرسلت فى أثره نظرة حية ولم تجزه غيرها، بل جعلت جزاء عمله من عمله نفسه، لأن ثروة الفقراء فى الشكر على المعروف كهذيان الأغنياء فى التبسط على المن به: كلاهما لا يكون إلا من خبث أو لؤم، هى فتاة أقدمت على الموت ولم تقدم على السرقة، وإنها لتعلم أن من أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعاً،

(١) أى عجل إليها.

(٢) أى متشدة فى معاملته كما يقولون.



ولكنها رأت الطفل غير أهل لأن يعرف موقع إحسانه من نفسها،  
لأنه طفل؟ أو لأنه فقير؟ لا أدري!

ولما أمسكت عليها النفس وراجعت الحياة بدا لها فيما اعتزمته  
من الانتحار، فترددت وجعلت تساورها الظنون، وخلق لها من  
معدتها عقل جديد يبصرها فرق ما بين الجوع والشبع، وكذلك  
تعرض لبعض الناس حالات من الحرص يعقلون فيها ببطونهم.  
حتى إن أحدهم لو تحسس رأسه وهو يفكر لحسبه بطنًا صغيراً من  
العظم . . . فأنشأت الفتاة تستقيم على طريقها وهي تؤامر نفسها  
على الحياة والموت، وقد بدأت تهضم في معدتها الطعام والعزيمة  
جميعاً، ومات الذى كان بينها وبين الموت!

وبينا هي تسير نظرت في عرض الطريق سيدة لو لبس معنى  
الغنى لفظاً ما لبس غير اسمها، ولو كان للكبرياء رسم ما رأته غير  
رسمها، وقد أورثها الغنى ذلك الغرور بنفسها، حتى توهمت أنها  
في الأرض أخت شمسها؛ وبلغت في النعمة من الحق والبطر،  
بحيث جعلت نفسها كالسماء متى تعبس وجهها استهلكت لعناتها  
كالمطر، وهي من أولئك اللواتي يخرج الغنى معهن في الطريق لا  
حارساً ولا منعماً ولكن للكيد والفتنة، فتنة المساكين وكيد  
الحاسدين، فخرجت في زينتها وكأنها حانوت جوهرى . . . وهي  
نصف<sup>(١)</sup> من النساء ولكنها تتصابى، فكأن في وسامتها وابتسامتها

(١) هي المرأة بين الحدة والمسنة، أو التي بلغت خمساً وأربعين أو خمسين



شباب عشر فتيات جميلات! . . . وقد ذهبت فى أوضاع جسمها  
مذاهب هندسية بين المستدير والمستقيم والمنحنى . . . حتى ظهرت  
كأن نصفها من الله ونصفها من الخياطة . . . وإذا رأيت جملتها  
رأيت روضة الجمال بألوانها وأزهارها، ولكن . . . مصورة، فإذا  
انتهيت إلى وجهها رأيت للحسن هناك شهادة على الله ولكن . . .  
مزورة . . . ؛ وعلى الجملة فقد جعلها حسنها المالى فى رأى نفسها  
كالشرائع : لا جدال فيها إلا من زنديق . . .

ورأتها الفتاة كما تنظر إلى المرأة بعين جامدة ليس فيها لغة ولا  
فلسفة ولا شعر، فقالت : يا لها سعادة أن تكون هذه «العجوز» لا  
تتقدم فى عمرها إلى الأمام ولكنها ترجع إلى الوراء، وأن تظهر بين  
الناس حسناء وإن كانت من القبح بحيث ذهب نصف نهارها فى  
التحسّن، وأن لا تجد من هموم الدنيا أكثر من هم الألفاظ إن قال  
الناس غير حسناء أو قالوا غيرها أحسن منها! ويا له من شقاء أن  
تكون هى كما هى وأكون أنا كما أنا!

ثم رمت بعينيها إلى السماء وانحرفت تواجه تلك السيدة، فما  
تبينتها هذه وألمت بما فى نفسها حتى انقبضت كأنما أثارت الأرض  
فى وجهها دابة جامحة، وجعلت تتحاماها وتلوذ ههنا وههنا  
وتحت قدميها كأنها لقاء خطر شديد؛ غير أن الفتاة ملأت عليها  
الطريق بحركاتها فكانت وجهها<sup>(١)</sup> كيفما أمت أو انحرفت يمنا أو  
يسرة وكأنما تطاردها مطاردة!

(١) أى أمها، وكيفما أمت : أى استقامت .





فلما عيت السيدة بأمرها و غاظ الفقر نعمتها وهاج فضول الفتاة حنقها وكبرياءها، وقفت لها وقفة القضاء عابسة الوجه شامخة الأنف يكاد يستنفذ الناس طرفها<sup>(١)</sup> وتكاد تميز من الغيظ، وتدل هيئة وجهها على أن وراء شفيتها المرتجفتين كلمات أحد من أنياب الوحش!

فلم تبال الفتاة وبقيت رثاها واسعتين للهواء<sup>(٢)</sup> إذ ليس بعد الفقر خوف، ودلفت إليها باسطة اليد وهي تكاد تزلقها ببصرها، حتى إذا وقفت بإزائها خفضت رأسها وقالت:

- سيدتى! أدام الله نعمته عليك وهناك هذه النعمة بدوامها!

- هي دائمة، وما أنت والنعمة؟

- سيدتى! وقاك الله ما أنا فيه من بأساء الحياة ولا كتب عليك أن تعرفى ما هي!

- فلماذا أنت وأمثالك فى الحياة إذن أيتها الحمقاء؟ وهل يكتب تاريخ البؤس إلا فى صفحة من مثل هذا الوجه؟

- سيدتى! ألا مهلاً مهلاً وانظري إلى ينظر الله إليك!

- قد نظر الله إليك من قبلى!

- سيدتى! هيينى خادماً أحسنت إليها!

(١) إذا رأوها أرعدوا من هيبتها.

(٢) إذا اشتدت الهيئة على إنسان ضاق نفسه، ولذلك يقال: ارتفعت رثاه إلى حلقه: كناية عن الهيئة.



- فلتكونى خادماً طردتها إن بلغت أن تكونى خادماً مثلنا!
- يا ويلنا! ألا رحمة فى قلبك فتجودى على بما لا بأس عليك منه؟
- ولماذا أفضلك على سائر الفقراء؟ ينبغى أن أجود عليهم جميعاً إذا أنا جدت عليك، ولو فعلت لطلبت بعد ذلك من يجود على!
- سيدتى! ألا فاجعلىنى من نصيبك فى الإحسان وغيرى من الفقراء له غيرك من الأغنياء، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره!
- إذا فكونى أنت من نصيب غيرى ودعى غيرك لى!
- سيدتى! ليس فقرى عن خطأ منى وليس غناك عن صواب منك، وما الرزق يا سيدتى من فضل الحيلة!
- وهل أنا أريد أن أعاقبك فتنتفى من الخطأ؟
- رحماك واتقى الله فى الإنسانية، فلعل فى قصرك الباذخ كلبة جعلتها أحسن حالاً منى!
- حينما تصيرين مثلها فتعالى إلينا ويومئذ تعرفين كيف تطرد الكلاب!..

قال «الشيخ على»: فكبر ذلك على الفتاة وانتبهت فى نفسها فضيلة الفقر وحكمته، فرأت أنها تنظر من ضمير تلك السيدة فى امرأة مقلوبة من مرائى الإنسانية؛ مهما جهدت أن تستقيم لها لم



تزدها إلا مسخاً، هنالك غلبتها عيناها وانطلقت وراء دموعها ولم تجد لها عزماً .

أما السيدة الكريمة - كما يقال - فابتلعت ما بقى فى فمها من تلك الفلسفة؛ وافتر ثغرها قليلاً عن ابتسامة السخرية، وسرها أن يكون فى لسانها كل هذا المنطق . . . ثم أنغضت رأسها بكبرياء وقالت: «مسكينة! مسكينة!» ومرت بعد ذلك لا تلوى وما يخطر لها إلا أنها نفضت نعلها . . .

وسمع الله قولها إذ تجادل الفتاة وقد ربت فى ثيابها من الغيظ وتنفشت كالإسفنج، فأطلق عليها دموع البائسة؛ وإن هذه لتأنس راحة فى البكاء لم تعهد لها من قبل فانزوت إلى جانب من طريق وجعلت تبكى، ثم تبكى؛ ثم تبكى حتى لو جمعت دموعها لغمرت منها، وقد جمعها الله وأرصدها من أقداره لتلك الإسفنجة وقضى ربك ألا تعصر بعد اليوم إلا دموعاً<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

كانت للسيدة فتاة كطلعة البدر فى الرابعة عشرة، لا تصفها إلا مرآتها، وهى الدنيا مجموعة فى قصرها، وكأنها فى النعمة مستقبل نفسها وماضى أمها؛ وكانت فى هذه السيدة عقيماً ولكن شذت

(١) يحسب المبخلون من الأغنياء أنهم حين يهينون فقيراً لا يهينون إلا فقيراً ولا يدرون أن الله يمتحن بمن يحمل حكمة من يحمل نعمته، ولو عرفوها لصلح هؤلاء وهؤلاء فإن الحكمة الإلهية فى الفقراء نعمة فى بعض أشكالها، والنعمة الإلهية فى الأغنياء حكمة فى بعض أشكالها.



معها الطبيعة لأمر أراده الله فولدت لها الفتاة وكأنما انشق لها القمر، ولم تذكرها في نفسها إذ كانت تحاور تلك المسكينة بل ذكرت خادمتها وأنفت لهذه الذكرى. ومن شؤم الغنى على أهله أن لا يذكرهم في الشر إلا بأنفسهم، ولا ينسيهم في الخير إلا أنفسهم، فلا يعلمون أن الفقر أنواع كثيرة، وأن الغنى نفسه نوع من الفقر إلى الله؛ وبذلك ينظرون إلى المساكين تلك النظرة التي لا تخلو من بعض معانى القضاء والقدر. كأن الألوهية درجات جعلهم الغنى في واحدة منها؛ فما ظنكم أيها الأغنياء برب العالمين؟

وانكفأت السيدة إلى قصرها فإذا فتاتها تتفض من وعكة الحمى، وهى فى سريرها كقلب أمها فى اضطرابه والتهابه، وما تعلم من أين اتصلت بها الحمى ولكن الله يعلم؛ ولئن كان البعوض مما يعد فى أسباب هذا المرض فلقد كان كلامها للفتاة ينفر منها كما ينفر البعوض من مستنقع... فخرجت المرأة عن رشدها وضافت عليها الأرض بما رحبت، ولقد تكون المصيبة جنوناً وإن لم يكن من أسمائها الجنون! على أنها لم تر ملجأ من الله إلا إليه فابتدرت تدعوه! وضرب الذهول بينها وبين اللغة ومسحت من وعيها فلا تردد غير هذه الكلمات. يارب! يارب! ابنتى ماذا جنت؟ «مسكينة! مسكينة!»؛ «مسكينة! مسكينة!».

وجاء الطبيب كأنما أطلق فى قبلة مدفع ضخمة... فأسرعت إليه وهى تقول: ابنتى ابنتى أيها الطبيب «مسكينة! مسكينة!» ثم مرت أيام وبنتها مريضة وهى مريضة بينتها، فكانت كلما نظرت





إليها ملتهبة ذاوية تتخايل الموت فيها لم يجر الله على لسانها غير هذه الكلمات : آه يا ابنتي ! «مسكينة! مسكينة!» .

\*\*\*

قال «الشيخ على» : وضرب الدهر من ضرباته وخرجت الفتاة البائسة ذات يوم وكانت قد أصابت عملاً فتردّمت جانب من حالها ؛ وبينما هي تمشي مطمئنة رفع لها شبح أسود في عرض الطريق ، فجعلت تدانيه حتى حاذته ، فإذا هي بسيدة الأمس وقد حال لونها ، واستحال كونها ، وعادت من الهم كأنها ظل منتصب في سواد ، وظهرت من الحزن كأنها تمثال منصوب للحداد ، وهي تلوح من الذلة والانكسار كأنما مات بعضها ، وكأنما كانت حياتها من الأزهار فذهب ربيعها وروضها ، وبقي جذرها وأرضها!

فما تبينتها الفتاة ورأت ما نزل بها حتى نفرت دموعها حزناً ، ثم رفعت عينيها إلى السماء وقالت :

يا رباه! «مسكينة! مسكينة!» . . .

كذا يضع الإنسان الكلمة لمعاني الله فيكذبه بمعانيها ، ويارب كلمة ملفوظة وفيها لله كلمة غير ملفوظة!

\*\*\*

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّقُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

\*\*\*





## لؤم المال ووهم التعاسة

قال «الشيخ عليّ»:

وأنت يا بنيّ ما إن تزال تصفُ الدنيا بلون لا أرى كيف أسميه،  
فلا هو من وجوه أهل الحسد فأقول أصفر ولا من قلوب أهل  
البغض فأقول أسود، ولا من صدور أهل الدم<sup>(١)</sup> فأقول أحمر،  
ولا من شيء أعرفه لأنه ليس شيئاً يسمي، وعلم الله أن من يهوى في  
جهنم سبعين خريفاً وعيناه تدوران في رأسه، لا يُبصر من حيث  
ابتدأ إلى حيث ينتهي شراً من وجه دنياك!

إنك يا بنيّ تصوّر الأرض لا أرضاً ولا ماء بل قلوباً ودموعاً، وتعرفها  
لا دولاً ولا أمماً بل آلاماً وحوادث؛ فكأن هذه الأرض العظيمة تحتاج إلى  
وقدتين من قلبك ومن الشمس، وإلى نعجتين من خيالك ومن الفضاء،  
وإلى قدرين من حزنك ومن الأبد؛ ومن ثم فلا عجباً يا بنيّ إن كان  
مركز الثقل فيها على وهمين: على محورها<sup>(٢)</sup> وعلى ظهرها...

هيهات لقد أسرفت على نفسك الضعيفة هذه الحصاة الهيئنة  
تحت مطرقة الزمن فما تزال رخواً منبعثاً مسترسلاً في اندفاق ولين،  
كأنك رجل من العجيين، وكم تقول لى: (فلان) وجاهه العريض.  
ودهره المريض...

(١) أي الثأر.

(٢) محور الأرض خط متوهم.



... وانظر إلى (فلان) كيف جعله الكبر يذكرنا وينسى،  
وكيف أصبح من الغنى وأمسى ...

... (وفلان) كيف تمر من فرج أصابعه سفن الآمال، في تيار  
المال، كأن يده قنطرة على نهر الأقدار، أو جسر تعبره حظوظ  
السماء إلى أهل هذه الدار ...

... (فلان) قبَّحه الله! كيف صار شيطانه في إنسانه، وطول  
عمره في لسانه، وكثرة ماله في قلة إحسانه ...

... و(فلان) أخزاه الله فما برَّ ولا نفع، بل تفرَّق بالحرص ما  
جمع وطمع في كل شيء حتى في الطمع ...

... (فلان) الذي جمع وعدَّد<sup>(١)</sup> وخلقه الله واحداً وهو في  
الرزائل يتعدد، وقد انتفخ كأنه شديق إسرافيل، وامتد كأنه يد  
عزرائيل، واستكبر كأنه فرعون على النيل ...

... (وفلان) وما أدراك ما فلان؟ جبل شامخ والناس في  
سفحه رمال، ومجد باذخ ولا مجد لمن ليس له مال، وهو في أهل  
الغنى الألف والباء، وإن قيل في غيره (ابن نعمة) فهو في أهل  
النعمه أبو الآباء؛ على رأس عظيم كأنه ركن الكعبة الذي يتوجه  
عبادُ الغنى إليه، وقامة بائنة<sup>(٢)</sup> كأنها لجاه صاحبها قطعة من المحور  
الذي تدور هذه الأرض عليه؛ وهناك أنف، أما في السماء فله

(١) أي جمع المال وعدده.

(٢) ظاهرة بظهورها أو جلالها أو نحو ذلك مما نبين به سواها.



منزلة، وأما في الأرض فعطسته زلزلة، ينفضُ الناسُ من رهبته  
نفضاً، ويفرش الوجوه من هيبتته أرضاً، وكأنه في تلك الكبرياء  
ميزان معلق يرفع من ناحية ويخفض من ناحية، بل كأنه في ذلك  
الوجه القفر جحر للنحاس تختبئ فيه الداهية!

قال «الشيخ علي»: وما أنت يا بني وهذه (الفلانات) وأمثالها؟  
إن هؤلاء الناس بعض أعمال الله في أرضه، فهو يخلقهم وينشئهم  
ويديرهم لتعلق طائفة من الأقدار بنتائج أعمالهم طرداً وعكساً فما  
أشبههم بدابة الطاحون: تلزم دائرتها ولا تفتأ تدور إلى غير  
انحراف، ثم هي لعلها حين تسمع ذلك الهزيز وتلك الجعجعة  
تحسبها من نشيد الاحتفال بها...

فهم قوم مسخرون فرشهم الله أمراً من أمره<sup>(١)</sup>، ويسرهم لما  
خلقوا له، فضربهم بالحرص والطمع ضربة جبار لو نالت السموات  
والأرض والجبال لأشفقن منها، وجاءهم الحرص بهذا المال، أما  
الطمع فجاءهم بماذا؟ جاءهم يا بني؟ لو قلت بصدإ القلب وهمم  
النفس ودناءة الطبع، ولو قلت بكل ما في الحشرات من القذر،  
وبكل ما في السباع من الضراوة، وبكل ما في الدبابات من السموم  
-لكنت عسى أن أقارب الوصف؛ ولكن المعنى الذي يتلجلج في  
نفسى أكبر من ذلك كله.

غير أني قول لك يا هذا: إن ثلاثة من المتجاورات يفسر بعضها  
بعضاً: الحرص مع الطمع؛ ثم المال ورذائله، ثم ما في المعدة وما  
(١) أوسعهم إياه ومكنهم من التقلب فيه.





فى الأمعاء . . . أتحسب أن هذا العالم يحفل برجل من الأغنياء قد أجحف<sup>(١)</sup> به الدهر وطحنته النوائب بأرحائها ، وجاءه بعد الدنيا المؤنثة يومه المذكر<sup>(٢)</sup> ، وتركته الأقدار أسود الحظ لا بيضاء ولا صفراء<sup>(٣)</sup>؟ فلم لا يعدون الغنى شيئاً دون المال ويحسبونه كل شىء مع المال؟ لعل الحقيقة أيضاً ذات وجهين فى الناس . . . !

هو المال ، المال وحده لا غير ، فنحن نحتاج إلى الغنى صاحب المال كما نحتاج إلى بائع الملح . . . وما أشبهنا فى إطرئه وفى الزلفى إليه بأطفال القرية إذ يتزلفون إلى بائع الحلواء التى تلف بالعصا ، وإذا هو واقف بينهم بعصاه وحلوائه كأنه الهبل الأعلى<sup>(٤)</sup>؛ هو - من تعلم - دسم الثوب ترب اليد ، قدر التفصيل والجملة ، يصلح أن يكتب على وجهه «متحف الميكروبات المصرى»؛ ولو رآه طبيب لجعل عصا الحلواء على رأسه تفاريق ، ولكن أين لا أين الطبيب فى هذا الاجتماع؟ كل أطباء الاجتماع ألسنة وأقلام ومحابر؛ أما اليد التى تزيل المنكر أو تغيره فلا أراها تمتد إلا من جانب الأفق ولا تعمل إلا بعون من الله وملائكته ، وقد انقضى عصر الأنبياء!

(١) أجحف بهم الدهر واجتشفهم . استأصلهم ، والمراد هنا استئصال النعمة .

(٢) يقال يوم مذكر : أى شديد صعب ، وقد زدنا عليه الدنيا المؤنثة : أى اللينة المواتية المقبلة السهلة .

(٣) لا درهم ولا دينار أو فضة وذهب .

(٤) صنم كان فى الكعبة .



قال «الشيخ على»: فإن لم يكن الغنى إنسانه من الناس يواسيهم ويسعدهم ويتخذ من المال سبيلاً إلى أفئدتهم بالإحسان والمساعدة، ويأخذ لنفسه بقدر ما لها ويعطى من نفسه بقدر ما عليها؛ وإن لم يكن وجهه مرآة الفقراء يبصرون فيها ابتسام الدهر على وجوههم العابسة، ولم يكن ذهبه عند دموع البائسين وعند أنفاس المحزونين، ولم يكن اسمه فى دعوات المحتاجين وفى السنة الشاكرين - فقد أصبح عندي كأنه لا شخص له، بل هو شخص له لعنة من لعنات الله والملائكة والناس نفخت فيها الروح، وهى اللعنة أى منقلب تنقلب .

ما أشبه المال أن يكون آلة من آلات القتل؛ فإنه يميت أكثر أصحابه موتاً شراً من الموت - إلا من عصم الله - موتاً يجعل أسماءهم كأنها قائمة على ألواح من العظام النخرة، ويرسلها كل يوم إلى السماء فى لعنات لا عداد لها، ثم يثبتها فى التاريخ آخرأ لا بأعيانها ولكن بعددها، أو كما تثبت الحكومة فى كل سنة عدد البهائم التى نفقت بالطاعون . . . . فهذا الشخص الميت وهو بعد فى الأحياء لا يبلغ فى قدر نفسه على الحقيقة أكثر من مقدار حجمه من . . . من . . . من جيفة حمار! . . .

يا بنى! ربما كان الرجل نبات نعمة الله لأنه سيكون حصاد نغمته، فهذه، منزلة من البؤس والخذلان يستعاذ بالله منها، وكم رأينا من أناس تخلص أبدانهم حتى ليضيق بهم الجلد، كدنة وسمناً، ويكاد أحدهم ينشق مرحاً ونشاطاً، ثم لا يكون هذا الخصب الذى استمتعوا به شطراً من العمر إلا سبباً فى أمراض



مهلكة تستوفى الشطر الآخر ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

وإن خطأ كبيراً أن تقضى لفلان من (فلاناتك) بمتاع الدنيا، فإنك لا تدري أشر أريد به أم الخير، وكيف تحكم ويملك على غناه بفقرك، وعلى أماله بياسك، وعلى شخصه بظلك، وعلى نهاره بليلك، وعلى عمره كله وهو بعد حتى لم يوف عمره ولا تدري ما عسى أن يكون له فيما بقي؟

ألا دعه حتى يستنفد أيامه المكتوبة ويستوفى أنفاسه المقدرة، فلعل مصيبته قادمة في الغيب وكان غناه مقدماتها؛ وعلى قوة المقدمة تقاس قوة النتيجة؛ فإذا مات الغنى ولم يعرف في جملة عمره همًا ولا غمًا يعدل بؤس الفقر مهما اشتد الفقر، فكفى حينئذ بالموت من تلك الجملة! وإنما الحياة مدة ستقضى، فسواء انقطع الخيط من أوله أو من وسطه أو من آخره، فقد انقطع<sup>(١)</sup>!

تقول: إن لهم متاع الحياة! ولو أنصفت لقلت: إن لهم بؤسها الممتع! فإنهم يجمعون المال من طرق لا تؤتبه إلا نكدًا ثم يرسلونه في طرق أخرى ليجمعوه، وهلم كما تدور دابة الطاحونة، وهب أنهم لا يألمون كما تألم فإن يد الله غمزتهم من مكان قريب غمزة مؤلمة، وما أحسب الضجر من اللذات قد خلق إلا للأغنياء وحدهم، وناهيك من بلاء يغمر النفس بالنعم صنوفًا وألوانًا حتى

(١) إذا مات الغنى وطوته الأرض، فأفقر من على ظهر الأرض أغنى منه؛ فهذه جهة من غنى الفقراء لا يساويها غنى ومع ذلك لا ينتبهون إليها.



يتنكر لها معنى النعمة فتراها وقد ثابر عليها الضجر متكرهه ولكن لا تريد الكراهة، ومتسخره ولا ترغب في السخط، ومتألمة ولا تعرف مم ألمها، ولا تبرح دائبة تلتمس نعمة لم يخلقها الله، لتحدث منها لذة لم يعرفها الناس.

ولولا هذا البلاء وأنه ما وصفت لك، لما أصبت على الأرض غنياً كهؤلاء الوارثين: تضرب به كل لذة وجه أختها فتسلمه الواحدة إلى الأخرى ويجذب به بكل حروف الجر، من وإلى وفي وعلى، بين الخمر والقمار والفسق وما لا يحسن أن يسمى: حتى تسلمه اللذة الأخيرة إلى الفقر أو القبر!

ولو أن (ضجر اللذات) يصنع بكل الأغنياء هذا الصنيع لفسد الكون، بيد أن الله أراد عمرانه فجعل في طباع أكثر الأغنياء لؤماً خاصاً، لؤماً ذهبياً يكسر من سورة هذا الضجر، كما يفتأ الماء البارد من الماء الحار حين يمتزجان<sup>(١)</sup>.

فالقوم إما كريم يضجر فيسرف، وإما لثيم يضجر فيمسك؛ وكلاهما يحد لذته ويضجر من لذته، فهم كما هم ونحن كما نحن وكلنا سواء كما ترى؛ وكأن أم المصيبة حين ولدت وضعت بنتين: المصيبة التي تؤلم، والنعمة التي لا تلذ! . . .

وليس أشقى ممن منع السعادة وأعطى الرغبة فيها إلا الذي أعطى السعادة ومنع اللذة منها! .

(١) كلهم بين اثنين: لؤم النعمة في أولئك، ولؤم المال في هؤلاء.





فلا تقل يا بنى إن العصا لظهور الفقراء وخدمهم ، فإن هناك السوط أيضاً ، وهو رتبة عالية فوق رتبة العصا ؛ ولذلك خص بشرفها . . . الأغنياء !

وانظر ، ويلك ، هل ترى الفرق بعيداً بين الضجر من شىء لأنه موجود ، وبين الضجر من ذلك الشىء لأنه غير موجود ؛ بين عدم الشعور باللذة ، وبين الشعور بعدم اللذة ؛ بين ألم الغنى الذى لا تجده أبداً إلا على شك فى أنه سعيد ، وبين ألم الفقير الذى لا تجده أبداً يشك فى أنه تعس ؟

قال «الشيخ على» : وتسالنى عن التعاسة ، ما هى ؟ وكيف هى ؟ وتريدنى على أن أبتغى لك مما بين ظاهرها وحقيقتها ؛ ألا فاعلم يا بنى أن هذه الكلمة حقيقة بأن تنسى نفسها ، وما ادعى أحد معرفتها إلا لأنه لا يجد أحداً يعرفها ، وكل شىء مجهول فما أسهله أن يكون من علم كل جاهل ، وما أصعبه أن يكون من جهل كل عالم ، وإنى لأرى الناس يأتون فى وصف التعاسة بكلام كثير ، وما أهونها إذن لو أن كل إنسان يحسن من وصفها بهذه السهولة . . .

لقد ألف هذا الإنسان من عهد القبائل فى الاجتماع الأول أن يطوى العالم كله فى قبيلته ، ويجمع القبيلة كلها فى نفسه ، فيزعم أن «كل الناس» يعرفون كذا ، «وكل الخلق» يقولون كذا ، وأن «الدنيا كلها» و«كل العالم» . . .

وعلم الله ما فى الدنيا ولا فى العالم من يعرف أن يقول غيره أو هو مع غيره من ذوى جماعته إلا اثنين أو ثلاثة أو جماعة منهم ، ثم



بقى ذلك ميراثاً فى أخبار الجهلاء وأوصافهم وفى كلام أهل  
المجازفة إلى اليوم!

ولكن إن شئت أن تعرف التعاسة - ولا أقول ما هى (حرسك الله)  
ولكن ما علمها- وإن شئت أن تسمع لها وصفاً آتياً من جانب السماء،  
فالتمس فى دار الهموم من لم يبق له هم يحمله إذ يكون قد احتمل كل  
هم، فإن مثل هذا المخلوق -الذى لا تعرف أهو حى فى ثيابه ميت فيما  
وراءها أم هو ميت فى ثيابه حى فيما بعدها- متى استفرغ دمع أجفانه  
ومات البكاء فى عينيه، خلق الله لسانه ألفاظاً كالدمع ولغة كالبكاء  
ومعاني هى فى جملتها أوصاف التعاسة على الحقيقة!

وأين تحسبك واجداً هذا المخلوق الملهم المسخر الذى كأنما  
ينضغط بين الأرض والسماء لشدة ما يجد من حطمة هذه الدنيا -  
حتى تكتب من تاريخه فصلاً فى ذلك المعنى، وحتى يخرج من لغة  
الأقدار ما يصحح لفظاً واحداً من لغة الناس؟

ألا إن الأرض لا تشهد كل يوم نبياً مثل أيوب يمتحن الله صبره  
امتحان الألوهية للنبوة، وإذا لم تكن المصيبة -رعاك الله- كأنها فى  
باب النعمة تاريخ غير إنسانى، فإن بينها وبين معنى التعاسة الذى  
يضج الناس منه كالفرق بين رؤية السيف مسلولاً على العنق وبين  
رؤيته فى العنق<sup>(١)</sup>.

(١) فرق الإرهاب يخيف ولا يقتل وبين القتل يخيف ويمحق، والغرض من  
التاريخ غير الإنسان: ذاك الذى لا مكان فيه لرحمة الله؛ وهو تاريخ يتوهم  
ولكنه لم يقع ولن يقع.



ولقد أعرف رجلاً من أهل الفقر النظيف أعطى ابنته قطعة فيها عشرة قروش، وأرسلها تبتغى بها رزقاً من الطعام، فأضاعها فكأنما أضاعت عقلها، ضاقت عليها الدنيا، وخيل إليها أن ليس على الأرض ما يسع طفلة... فلم تجد لها غواثاً إلا في الموت يحول بينها وبين أبيها، فجرعت من «الفنيك» جرعة كانت فيها نفسها، وابتعدت عن أبيها ولكن بعد ما بين الدنيا والآخرة!

فهذا مثال مما يجلب الضعفاء على أنفسهم من التعاسة: تموت الفتاة، وتسير الجنازة، ويفتح القبر، لعشرة قروش... ويحدث في العالم هذا الفراغ، وتخرج الدنيا إحدى عجائب التعاسة، ويشهد الناس ذلك المنظر القاتل؛ وكل هذا لعشرة قروش...

ويقع للفتاة أمران أهونهما الموت، وأصعبهما الذي لا يحتمل ضياع عشرة قروش...!

وما عشرة قروش يا بنى؟ إنها قوت حمار في يوم أو يومين، ونشوة سكير في ساعة أو ساعتين، ولذة فاسق في لحظة أو لحظتين، ولعنة الله على غنى لثيم في نفس من حياته أو نفسين!

ولكن يعلم الله كيف كانت في نفس تلك المسكينة من غلظة أبيها وقسوته وما خشيت من بادرته وما حسبت من اضطغانه عليها، وكيف استحالت هذه القطعة تاريخاً طويلاً من الوسوس والأوهام حين أضاعتها، فالناس ناس لولا الوهم، وكان الوهم وهماً لولا الناس!



ولعمري ما الذى يجعل المرء جباناً فى لقاء الحوادث حتى يخاف الحياة فيعود بالموت، ويضرب ما أقبل من الدنيا بالذى هو مدبر؛ أو يخشى الموت فيتعذب بالحياة ما أدبر منها وما أقبل؟

أما إن ذلك ليس من فقر ولا غنى؛ ولكنه حرص على الحياة يخالط بعض الأنفس ويستمكن منها حالة بعد حالة، فإذا هو قد انقلب فى آخرة الأمر خوفاً من الموت، ثم لا يزال يحور وينمى وهو ذلك يخلع القلب من الإيمان الذى يربط عليه<sup>(١)</sup> واليقين الذى يثبت به، حتى يبلغ بعد حين أن يكون خوفاً من الحياة نفسها؛ ومتى كان الحرص على الحياة قد صار خوفاً من الموت، ورجع الخوف من الموت مع ذلك البلاء خوفاً من الحياة، فهذه -أصلحك الله- حالة من الجنون تستلب العقل، وسواء من أصيب بها ومن حولط فى عقله، وليس معها لهؤلاء الضعفاء كما يشهدون على أنفسهم إلا موت الجبن الذى يسمى انتحاراً، أو حياة الجبن التى تسمى ذلاً، ولخير للمرء أن يكون حماراً من صنعة الله وتعرفه الحمير، من أن يكون حماراً من صنعة نفسه وتنكره الناس . . .

إن لنا على هذه الأرض حياة واحدة علم أهل العلم أنها حقيقة مسرعة بين أوهام، فهى ما تبرح تجاهد كل شىء ولا تثبت أطول من مدة جهادها إلى أمد غايته أرذل العمر<sup>(٢)</sup>؛ وعرف أهل الجهل أنها تتقدم إلى الموت وأن الموت يتقدم إليها فهما لا بد ملتقيان. لا العلم

(١) ربط الله على قلبه: ألهمه الصبر وقواه.

(٢) الهرم وارتفاع السن.





ولا الجهل يرتاب أو يشك في الموت . ولا الفقر ولا الغنى ، ولا الصحة ولا المرض ولا شيء عن خصائص الأحياء ؛ لأنه ليس على الأرض حتى قديم . . . ولكن العالم والجاهل ، والفقير والغنى ، والصحيح والمريض ، كل هؤلاء يخافون الموت ويحرصون على الحياة إلا قليلاً منهم ، فليتهم علموا أن النفس روحية وأنها تألم لهذا الخوف ولا نقار عليه ؛ إذ هي لا تعرف الموت لأنها خالدة ، ولكنها تعرف الألم لأنها في غير دار خلود ؛ ومعنى ذلك أن الإنسان يخاف الموت ، فيصل الخوف بالنفس ، فترده إلى حوادث الحياة فتخيفه هذه الحوادث فيذله هذا الخوف ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت (١) .

ونحن إنما نصب الحباله (٢) ثم نرتبك فيها ونضطرب فكأننا لا نصيد إلا من أنفسنا ، إذ لسنا نجعل أن للنفس حظاً ليس للجسد ، وأن الفارس لا يربط في الإصطبل وإن كان جواده فيه ، غير أننا مع ذلك نحاول أن نغذو النفس من اللذة الجسمية ، وأن نعلق الفرس والفارس من طعام واحد . . . فهذا التناقض الذي نسيء به إلى أنفسنا هو الذي يجعل النفس خائفة من الحياة إذ لا تجد فيها غير ألم

(١) إذا خفت عاقبة طريق أنت سائر فيه قطعت الطريق كله مضطرباً خائفاً وإن كنت موقناً أن ما يخيفك لم يأت بعد ، ولكن علمك أنه أت هو سبب ما أنت فيه ؛ فإذا مشيت في نور روحك وفضائلها لم يخفك شيء ، وإذا مشيت في ظلمة شهواتك خفت من كل شيء : طبع لا تدري سببه ، وسببه في نظام الروح ونظام الجسم ونظام الكون .

(٢) الحباله : شبكة الصيد ، وارتباك الطير فيها : اضطرابه حتى يقع .



التعبد للأهواء والشهوات، ولا يصيب من الحياة إلا ما تستدم<sup>(١)</sup> به الحياة إليها؛ فلا يكون من ذلك إلا أن تسيء إلينا هذه النفوس بتناقض آخر، فربما كان الرجل في النعمة السابغة قد أينعت خضراؤها ثم هو لا يشعر منها إلا ما يشعر من المصيبة الماحقة؛ ومتى فزعت النفس من الحياة كما عرفت فلا هناة على ذلك الفزع، ولا تكون الحياة من ثم إلا موتاً مستمراً أو خوفاً من الموت لا ينقطع<sup>(٢)</sup>.

قال «الشيخ على»: يا بني إن الحرص جبن، والجبن ذل، والذل استعباد، وما يدخل من هذه الأبواب إلا الشر، فكن حراً من الأهواء كما خلقت وكما خلقت الحرية التي لا قيد لها من رذائل الدنيا، فإنك لن تراع ولن تعرف مما يسميه الناس تعاسة أكثر مما تعرف مما يسمونه سعادة، ولن تجد في مصائب الحياة ما يموت دونه الصبر الجميل؛ فإن عمر هذا الصبر أطول أبداً من عمر الصابرين!

لذلك لا يغضب الفيلسوف ولا يخاف الشجاع، ولا يبخل الكريم، ولا يذل الأنوف، ولا ينافق الرجل الحر، ولا يكذب الرجل الشريف؛ وإنما هذه مظاهر محدودة من حرية النفس، فكيف بالنفس إذا كانت حرة من كل أقطارها؟

(١) أي تدعو به إلى دمها.

(٢) المخ في الإنسان هو المسلط على أعصابه، والروح هي المسلطة على المخ؛ فإذا سخرته الروح في أعمالها استقامت الحياة، وإذا سخرته الأعصاب انعكست الآية، وهذا هو الواقع، ودليله حسي لا مكابرة فيه، فالصالح ضعيف الشهوات هادئ مستريح، والسافل بالعكس، وكأنه من تعب الحياة يمشي في الأرض على رأسه لا على رجليه...



وقديماً علم الناس أن من لا يبالي بشهوات جسمه هو الذى يستريح وادعاً ويتعب التعب فى البحث عنه، وما علمت ولا علم الحكماء والأطباء غذاء تسمن عليه المصائب والأحزان إلا الحرص على الشهوات!

وليت شعرى ما هى هذه الشهوات؟ أما إنها فى الحقيقة نزعات طبيعية لا بد منها بمقدار، لأن الطبيعة الإنسانية تعالج نفسها بما يعينها على البقاء<sup>(١)</sup> وما يجعلها صالحة له على الوجه الأفضل، فهى تغرى الإنسان مرة وتؤلمه مرة، وكل ذلك ليجلب لها أو يدفع عنها. فما تسميه لذة من لذات الجسم إنما هو علاج طبيعى من ألم طبيعى لا أكثر ولا أقل . . . كالأكل مثلاً: فما كانت الطبيعة لتغرى به هذا الإغراء حتى فات عند أكثر الناس حد اللذة -لولا أن الجوع انحلال فى الجسم، فإن هو أسرف عليه أو استمر به أوقع فيه الفساد وركبه بالضعف علة بعد علة.

غير أن الإنسان بما فيه من شبه البهيمة ينجذب إلى طبع البهيمة غالباً، ونسى أن للبهائم وازعاً طبيعياً وهو فضيلتها الخاصة بها، فأقبل يرتع ما شاء، وجد به الحرص بمقدار ما يطمع فيه، وغلبه الطمع على بصيرته، فلا يكون فى إنسانيته إلا بهيمة تتخيل وتتفنن

(١) ولما كان البقاء محدوداً بمدة، فالشهوات يجب أن تكون كذلك محدودة بمقدار؛ لتقع الملاءمة فى موقعها ويحمل شئ شيئاً وتتفجع النفس بمدتها الحياة، فإذا خرج المرء عن طبيعة نظامه زاغت طبيعته، فلا يزيد لها ولكنها تنقصه ولا يصلحها ولكنها تفسده ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ [يونس: ٤٤].



ما لا يتفنن إنسان ولا بهيمة، وما تجد من مستهتر بالشهوات إلا وجدته من أجل ذلك راضياً مغتبطاً يتمنى لو أنه فى هذه الشهوات بهيمة البهائم كافة! . .

أف لهذه الدنيا! يحبها من يخاف عليها، ومتى خاف عليها خاف منها، فهو يشقى بها ويشقى لها، ومثل هذا لا يكاد يطالع وجه حادثة من حوادث الدهر إلا خيل إليه أن التعاسة قد تركت الناس جميعاً وأقبلت عليه وحده، ولولا الخوف يزلزل قلبه لأدرك الفرق بين النسمة والعاصفة، وعلم أن اللفظة لا يلزم منها أن تخلق معناها، وأن ليس كل ما نسميه تعاسة يكون فى حقيقته من التعاسة .

وترى الواحد من هؤلاء لا يزال يلوك لسانه<sup>(١)</sup> فى كلمات من التأميل والسخط والألم والنفرة وغيرها مما هو من لغة الحرص على الحياة، فهو على الأرض وكأنه يعيش فى سحابة تجرى بها الريح، ولعمري كيف تهنا الحياة مثل هذا إلا إذا كان أديم الأرض من ورق الزهر، وكانت مزابل هذه الدنيا رياضاً غناء، وعدت الطيور الجميلة من كلاب هذه المزابل . . . ؟

كذلك لا يسعد أكثر الناس بالحياة ولكنهم يشقون بالحياة والموت؛ ومن ثم ظلموا التعاسة فجعلوها أصغر مما هى، كما ظلموا السعادة فتوهموها أكبر مما تكون .

قال «الشيخ على»: واعلم يا بنى أن القدر وإن كان من السماء

(١) يحرك لسانه .





ولكن تاريخه ثابت فى الأرض ؛ وما كانت المصائب جديدة فى الحياة وهذه المحابر التى كتب منها تاريخ الإنسان لا تزال كما كانت من قبل تشرق بالدماء وبالدموع ، ولا يزال الدهر يمد منها ولا يزال يكتب من هذا المداد : فمم يخاف هذا الإنسان الجديد وليس فيما ينزل به إلا ما نزل بمن قبله ، وما هو بخالد ولا هو بمتروك لما يحاوله ؛ ولقد علم يقيناً أن الله لم يخلق فيما خلق مقراضاً بقلم أظفار الموت؟ يريد من قدر الله زللاً صافياً كأنه ماء مرشح يصب من حياته فى كأس من البلور . . . ! ويتغى أن يكون فى الأرض تاريخاً جديداً سلساً منقحاً ليس فيه شىء من تلك الألفاظ الجافية فى نبوها وخشونتها ، ألفاظ التخريب والتدمير والتقتيل والجوع والمرض والأحزان والهموم ونحوها .

فأما أن يكون من ذلك التاريخ القديم الذى تمليه قدرة الله على الطبيعة ، ثم لا يكون إلا كالطبيعة نفسها فى النظم والنسق ولا يجىء الإنسان الجديد فيه إلا طباقاً أو ناسخاً أو منسوخاً - فهذا موضع النفرة ومكان الأذاة ومنه مثار الهم وإليه مسرب الدمع ، وذلك والله معنى إن لم تنشأ منه تعاسة الإنسان فهو على كل من تعاسته .

الإنسان كله يا بنى منطو فى رأسه ، وما هذا الجسم إلا أداة ، منها ما يحمل الرأس ، ومنها ما يحمل إليه ومنها ما يحمل عنه ، فالجسم دابة من الدواب لا أكثر ولا أقل ؛ والرءوس لا يمكن أن توزن بميزان حتى يعلم فرق ما بين رأس ورأس آخر ، فالإنسان مختبئ



محجب ، وكأنه لا يزال منه جزء عند الله فما ينفك يجد من نفسه ما يبعثه على النزوع إلى الغيب والفكر في المستقبل لأن هذا المستقبل تام له ، ولا يبرح يشعر بالحياة شعور المتألم أو المتعب أو المكدود أو المغيظ أو المنزع أو أى ما يكون من أشباهها ، لأن هذا الحاضر غير تام به ولا كامل معه ؛ وليس ذلك بعجيب ، ولا من العجيب أن يألم الإنسان حياته ؛ ألا يرى أنه فى جسم لا راحة للروح إلا بعد تحطيمه؟

ومن ههنا تفاوت الناس ؛ فمنهم من تراه كأنه يحاول أن يكشف عن جزئه الذى فى الغيب ويصل بينه وبين حاضره ، فيتوهم فى الحياة ما ليس فيها ويسخرها لأوهامه باطلاً ، ومنهم من يقبل على شأنه ويأخذ الحاضر بما فيه ويعرف أنه حى ولكن على شروط لا بد منها للحياة .

فأما الجاهل الأحمق المخدوع فكأنما يرى فى مرآة خياله الغيب كله ، أو ما يظنه الغيب كله ، فلا يعدو أن يسترسل فى ظنونه وأوهامه استرسالاً أشبه بالأبد الذى لا حد له ، ومن ثم لا يرضيه شىء ما دام فى هذه الحياة شىء لا يرضيه ، ولا يقنعه شىء ما دام فى الدنيا شىء لا يناله ، وكل مصيبة يخشاها أو يتوقعها فكأنما هى نازلة به أو قد نزلت ، وعنده أن كل ما يمكن أن يكون فينبغى أن يكون ، وما هو جائز فليس ما يمنع أن يكون واجباً ، وما قيل إنه غير جائز فهو غير مستحيل ، وما الذى يمنع أن تخسف به الأرض أو تقع عليه السماء ، أو ينحدر إليه رجم من الشهب ، أو ينهتك



حجاب قلبه<sup>(١)</sup>، أو يسئل البلاء خيط عظامه أو يخالط خوفه كل داء دوى، ثم ما شئت من «أو» بعد «أو» . . . إلى أبعد حد مما انتهى إليه أهل الفقر في الفقر وأهل الأمراض في الأمراض وأهل الأحزان في الأحزان وأهل المصائب في المصائب، فيذهب العمر باطلاً بالذى عليه والذى له، ويجنى هذا الإنسان على نفسه من أثر الخوف والطمع ما لا يستقبله أبد الدهر، فلا يهنأ بوجود، ولا يطمئن إلى مرجو، ولا تكون أماله إلا مخاوف مستبهمة لا مأتى لها من الحقيقة، فيجد روح التعاسة في أشياء كثيرة ولا يكاد يصيب العزاء في شيء قليل!

وهنا يا بنى الحفرة التى يقبر فيها بعض الأحياء ليعيشوا عيشة وهمية، أو ليموتوا موتاً وهمياً، تلك الحفرة التى يقضى الأحقق شطراً من عمره واثباً فى الأوهام بين شاطئ الدنيا والآخرة حتى إذا انتهى إليها تردى فيها وكان الرأى لو ادخر لها بعض تلك الوثبات . . .

وأما الحكيم الذى يعرف الحياة كما يمكن أن تكون، ويعرف أن كل حى من الناس فإنما هو حى على شروط لواهب الحياة، ثم للحياة نفسها، ثم لأهل الحياة - فهو أدرى بالمصائب من ذلك الأحقق، ولكنه لا يثيرها ولا يبحث عنها، ولا يمتلق لها العلل<sup>(٢)</sup> من نفسه ولا يعترضها فى غيره؛ وما نزل منها فإنه يفتح لها من قلبه سبيلاً تمر فيه بين العزيمة والجرأة، وإلا فبين الثبات والصبر، وإلا

(١) كناية عن موت الفجاءة.

(٢) يخترع ويستنبط.



فبين التوكل والإيمان، وما أهون مصيبة تفتح لانصرافها ثلاث طرق واسعة!

وهذا الحكيم يجد في محنته لذة تشبه لذة الدرس لمن همه الحكمة واختبار الأشياء ومعاناة خواصها وأسرارها، كأنه من مصائبه في «معمل» للتجربة والاختراع، فإنما هو يتلقى عن الله ما لا يصيبه به إلا هو، وما لا يصرفه عنه إلا هو، وإنما يستعمل رأسه للفهم لا الوهم، وهو يعرف أن علم الله أزلّ يسع الأزل كله، وأن الأقدار من علم الله فهي مقسومة على الدهر كله، وأنه هو في جانب الدهر لا يبلغ أن يناله ما تنال الشرارة من ماء البحر إذا هي انطفأت في البحر.

هذا الحكيم يعرف أن الحياة ليست هي الانتهاء إلى الموت على أى وجه، ولا هي بالهرب من الموت فى كل وجه، فهو لا يبالي الموت ولا يخافه، ولا يعبأ بالحياة ولا يرجوها، ولكنه يمشى على صراط من فضائله، وعلى نور من ربه فما دامت فضيلته لا تنكره، وما دام قلبه مطمئناً بالإيمان، فكل ما بين الأرض والسماء بين الآخرة والأولى هو مادة العزيمة فى نفسه، ومادة القوة فى روحه، ومادة الابتسام على شفثيه!

فإن نزل به هم وأدركه خور الطبيعة وضعف الإنسانية فلم يستطع أن يخلص منه، صرفه إلى جهة غير جهته، واستخرج منه منى غير معناه؛ وقابل بين راحة الرضا به وتعب السخط عليه، ونظر فى مبلغ شره وما عسى أن يكون حاله لو نزل به ما هو شر





منه ، وجمع بين الدعاء لله أن يصرف عنه ما وقع ؛ وبين الحمد لله على وقايته مما كان يمكن أن يقع ، ثم لا يزال يعالج الهم مستأنياً ربيطاً جأشه تثوب إليه القدرة على نفسه فتسكن إليه النفس من نفرتها وحتى يرى هذا الهم كأنه مما لا بد منه في رياضة أخلاقه ، وتنزيه شمائله ، وكأن صدع الجانب الذى بينه وبين الناس أو بينه وبين نفسه إنما كان لتقوية الجانب الذى بينه وبين الله .

وأشقى الناس من يتوقع الشقاء وهو لا يعلم من حاضره ما الله صانع به ، ولا من مستقبله ما الله قاض فيه ، وكأنه يتظنى بالله فيرى أنه تعالى قد وكله إلى نفسه وأياسه من رحمته وصرف عنه تيار الغيب المتدفع بالحوادث والأقذار بين شاطئ الليل والنهار ، فلا يدفع إليه جديداً ولا يصرف عنه قديماً وكأن الزمن كله يتحرك وهو ثابت قار قد حصره الهم من هذا الفلك فى زاوية ؛ ووضع الدهر من بيت الأحزان موضع القافية ، والمصيبة فى مثل هذا أكبر من كل شىء لأنها لا شىء . . . . . ولا ينفع المرء أنه من الناس إذا لم يكن من نفسه ، وهذا لا نفس له أو كأنه لا نفس له ، إذ لا ثقة به ولا قوة فيه ، ولو كان وجهه جلدة مما بين عيني الأسد لما ظهر إلا جباناً ، ولو اختلط الحاضر بالمستقبل على شىء لما اجتمع منهما ما يجتمع من غضون جبهته فى تعاسته التى يظن أنه خص بها ؛ فهو يتوهم الخوف ، ثم يخاف مما يتوهم ، ثم يخاف أن يكون الأمر أكبر مما توهم ، ثم يخيفه أن تخذله الأقذار فلا يقوى على ذلك ، ثم يكون أشد خوفه من أن يستمر له ذلك . . فمن خوف إلى خوف ، وهو



تتابع يصور الرعدة التي تعتريه لجبنه كما يصور ضحك القهقهة من هذا الجبن<sup>(١)</sup>.

وذلك يا بنى ضرب من ضروب استحالة النفس ؛ كأنها ليس فى صاحبها أو ليست له ، فهو يمر على الحقائق فزعاً كما يمر الطائر على الأخيلة التى تنصب له على الثمر ، ويجزع منها كما يجزع الطفل من أرواح المردة والشياطين التى تسكن ألفاظ التهويل ونحوها يفزع به ؛ ثم هو من المصيبة الواحدة فى مصيبتين : أما الأولى فشدة الخوف التى تفقده لذة ما يكون فيه من النعم - والنعم لا حصر لها - فلا يشتهيها ، ولا يجد لها مساعاً بعد أن لبسه مرض الهم ؛ وأما الثانية فقوة اليأس التى تضعف قدرته على الحيلة للخلاص مما نزل به ، فكأنما شد عزمه وثاقاً ، ثم لا يكون من اجتماع المصائب الثلاث<sup>(٢)</sup> معاً إلا أن يورثه الذل وسقوط الهمة وتخلخل الفؤاد واضطراب النفس ، حتى كأنه من هذه الوسوس بين جدران وثيقة محكمة لا نافذة منها على فضاء الغيب ، والغيب ملء الأبد ، فيصبح جلدًا بلا جلادة ، وعظماً أوهنت منه البلادة ، ورجلاً لو أطاعته كل قوة فى الدنيا لما أطاعته الإرادة ، وصنماً من أصنام الحياة يعرفه العاقل للتحطيم ويحسبه الجاهل للعبادة . . .

\*\*\*

(١) من المقرر أن الأفكار تنداعى ، فالخوف لا يجلب على الفكر إلا ما يشبهه إن استمر به ، فتكون المصيبة واحدة ولكن الخوف يكون بها وبما تتصل به وبما يمكن فى العقل أن تتصل به ؛ فكأن النفس قد ركبتها رعدة .

(٢) هو نفس مصيبة ثالثة . . .



## وهم الحياة والسعادة

قال «الشيخ على»: ولقد عرفنا الحياة ما هي، لأننا نحن أمثلة عليها، ولكن البحث في معنى هذه الحياة لم يَتَّه بعدُ، لأن هذا المعنى لا يزال كما كان فوق السماوات، ولو استطاع الكاتبون من أهل العلم أن يخطوا في كتبهم بمداد من أضواء النجوم التي يكسبها الخلود كل ليلة على الأرض ملء محبرة الليل، لكان عسى أن تستنير مباحثهم في ظلمات الحياة، وأتى لهم ذلك وليس وراء النفس الإنسانية إلا الذي هو وراء السماء، ولا وراء السماء إلا الذي هو وراء النفس؟

ألا فاعلم يا بنى أنه مادام هؤلاء العلماء يتعاقبون على تفسير المعاني الإلهية ولم ينتهوا بعد، فمعنى ذلك عندنا نحن الجهلاء أنهم لم يبدءوا بعد . . .

وما مر الحياة؟ أما إنها ليست طريقاً مسافته كذا، ولا قياساً ذرعه كذا، ولا وزناً مبلّغه كذا، ولا شيئاً من هذه المعاني التي تضرب الأقلام والألسنة في مفاصلها، بل هي فيما وراء ذلك من عالٍ إلى بعيد إلى غامض إلى مُبهم، حتى تنتهي إلى منبع النور الذي تلتطم على ساحله موجة الأبد.



وإن أبيتَ إلا ما هو دون ذلك وضوحاً وانكشافاً وبسطاً في التأويل فقل إنها في كلمة واحدة: فتح السماء بفكرة واحدة<sup>(١)</sup>.

ولتدعني يا بنى من لغة هذه الكتب، فإنها متى انتهت إلى السماء رأيتها أكثر ما تراها ألفاظاً لا معنى لها، إذ ليس هناك من جلال الله إلا ما يشبه أن يكون معنى لا ألفاظ له.

ودعني أحدثك عن الحياة بما أفهمه - أنا الرجل الطبيعي - من فلق الصبح ومن روعة الشمس، ومن إقبال الليل وإدباره، وبما أعرفه من هذه اللغة التي تُنزل بها السماء ما يتصل بنا من معانيها، لغة القضاء حين يسألُ ولغة القدر حين يُجيب، وبما أستوحيه من معاني هذه الإشارات التي تتحرك بها جوارح الطبيعة، وهي مزيجٌ من لغة البقاء الأرضي الذي يريد أن ينتهي ولغة الخلود السماوي الذي يريد أن لا يفنى، فالحياة يا شاعري العزيز لا تخرج من الدواة ولا تقطر من القلم، بل أنا أحسبُ هذا المداد الكثير الذي أراقه عليها الناس هو الذي جعلها كما يقول الناس سوداء . . .

ولا يكفي أن يعلم الرجل كيف يسوق المقدمات وكيف يحسن القياس وكيف يُخرج معنى من معنى حتى تكون النتيجة على ما توهم والحقيقة على ما يقيس والصواب كما يستخرج. وفي علم

(١) يكاد يكون المخ مادة سماوية أودعتها السماء هذا الإنسان تصل روحه بها وتصله هو بروحه، فلو وقف على سر الحياة لفتح السماء، ولكنه يتقدم أبداً ليكشف عن الروح من ورائه . . . فبهيات.





الحياة خاصة - وهو العلم الذى لا مادة له إلا من الحوادث - أن بناء من المنطق لا يتخذه بيتاً إلا ساكنٌ من الخيالات . . .

ولست أعرف الناس قد غالوا بشيء قط مغالاتهم فى قيمة هذه الحياة، فقد والله استجمعوا لها كل ما فى الرغبة من الحرص، وكل ما فى الخوف من الحذر، وكل ما فى الأمل من الترقب، وكل ما فى الحب من الخيال؛ واستجمعوا فوق ذلك تلك المعانى التى لا قرار لها فى الأرض ولا فى السماء: معانى النظرات الوهمية التى يرسلها المخلوق من أرضه إلى عرش الله، كأنه لا يجرؤ على أن يشك فى نهاية الحياة إذ هى تنتهى على أعين الناس، ولا أن يجزم بهذه النهاية إذ هو لا يريد الموت وكأن الحياة لا تكفيه.

وما دام للحياة غدٌ يرتقب وهو الذى يسمونه المستقبل، فكلٌ وهم يسهل على الحياة أن تهلكه أو تمرضه أو تضعف منه، إلا تلك المغالاة الممقوتة، فإنها أبداً فى خصب وعافية ما بقى لها غذاءٌ من ذلك المستقبل المحبوب.

قال «الشيخ على»: وأنت إذا سألت رجلاً عن مسألة فسدد الجواب، وأحكم الصواب، قلت: هذا جوابٌ يحسن السكوت عليه؛ ولكنك إذا سألتنى أنا: ما هى الحياة كما يفهم الناس؟ قلت لك: هذا سؤالٌ يحسن السكوت عليه . . . لأن اللغة هى التى أسمتها (الحياة) واستخرجت لهذا الاسم العذب معانيه من أوهام الأحياء، وكم فيما وراء السماء من معانٍ تملأ الأبد ولعلها لا تملأ سطرًا أو سطرين فى معاجم اللغة!



ولكن دع هذا وسلنى : ما هو الزمن الذى يقضيه الإنسان من يوم يولد فلا يقدر أن يرفض هذه الدنيا إلى يوم يموت فلا تستطيع هذه الدنيا إلا أن ترفضه؟ وما هو هذا المهّد الذى يكبر شيئاً فشيئاً حتى يصير فى الآخرة قبراً؟ وما هو هذا العمر الذى يمتلئ قليلاً قليلاً حتى ينتهى إلى الفراغ فيغيب فيه؟ وما هى هذه الحوادث التى تنزل الناس<sup>(١)</sup> فى طريق القدر حتى يخروا على وجوههم فتتحول أجسامهم فى الأرض إلى تراب فى طريق المنفعة، ويتحول تاريخهم تراباً على طريق الموعظة؟ . . .

. . . سلنى كذلك يا بنى أجبك : هذا الفناء المحتوم، وهذا الشقاء المقضى، وهذا الأمل الباطل، وهذا النّصب الضائع، وهذا العمل الذى لا يراد لنفسه ولكن لما بعده - كل ذلك هو الحياة؛ أفلا ترانا نخادع أنفسنا إذا سألنا عن الحقيقة التى يسوؤنا أن نعرفها فنحرف السؤال إلى جهة بعيدة لكيلا نرى الجواب الصحيح مُقبلاً علينا ولكن مُدبراً عنا؟

فما عسى أن تكون هذه الآمال، وهذه المنافسات، وهذا النزاع، وهذا الصراع، وهذه الأفراح، وهذه الأتراح، وكل ما إلى ذلك مما هو مدلول الحياة - إلا باطلاً نستمتع به قليلاً ثم يظهر أنه متاع الغرور؟

وما عسى أن تكون الحياة بكل ما فيها إلا مدة محدودة على ظهر الأرض تجعلها أوهام الإنسان ومطامعه وحماقته وجهله وكبرياؤه كأنها

(١) تسوقهم بعنف، يقال: جاء بالإبل يزلزلها.



الأبد كله؛ فيكدُ ويكيد؛ ويعمل ويدخر، ويهنأ ويحزن، ويطمع ويحرص؛ على نسبة من ذلك لا من نفسه، أى نسبة أبدية لا إنسانية.

ألا إنما مثل هذا الإنسان المغرور مثل رجل جمع الله عليه المصيبتين فى باصرته وبصيرته؛ فضلً فى مكان، فهو يُقبل ويُدبر فى دائرة من فضاء الأرض لا يهتدى إلى الوجه ولا يذهب على السمت، فيتوهم أن الطرق لا ينتهى وأنه وقع فى صحراء لم تدرُسها عكازته . . . وليست من علم رجليه فى جغرافية هذه المسكونة . . . وكما لا تكون الطرق عند هذا الأعمى إلا عن علم رجليه، فأكثر طرق الحياة عن هؤلاء المغفلين الذين يطمس الله على بصائرهم هى من علم بطونهم، وما أدراك ما علم بطونهم . . . ! وما رأت الحكماءُ أحداً قط جهل حقيقة معنى الحياة إلا وجدوا هذه الحقيقة فى بطنه . . . ولذلك قالوا: من كانت همته ما يدخلُ جوفه كانت قيمته ما يخرج منه . . . وإنما البطن جوع فشبع وشبع فجوع؛ وعلى هذا القياس لا تكون حياة هؤلاء إلا جوعاً فى الشهوات والآمال؛ فلا يُطفئه إلا ما يُسعره، ولا يجلب الراحة فيه إلا ما لا بد أن يُرجع التعب به، جوعٌ فى الشهوات والآمال بالعقل لا بالبطن، لأن علم الحياة عندهم علمٌ بالبطن لا بالعقل، وكلاهما مثله بهذا الإنسان<sup>(١)</sup>، يا الله كيف يريد الإنسان أن يحيا كما يحب ما لا يتفق مع سنن الحياة؟

من أجل ذلك شقى أكثر الناس بالعقل، إذ يقبلون به الأمور، ويحتالون منه الحيل، ويكرهونه أن يعمل على السخرة فى لذة

الجسم، ويُحضرونه من هم الشهوات الحيوانية ما لا قبل لهذا الروح الإلهي أن يستكلب فيه<sup>(١)</sup>، وإذ يخضعونه بدلاً من أن يخضعوا له، ويسيروا به بدلاً من أن يسير بهم، فكان من ذلك طغيان الحواس وطمسها على الروح، وتعفيتهما على آثارها الإنسانية، ولا جرم كان من وراء ذلك طغيان هذه الفوضى المترامية في الاجتماع وانبثاقها بالشر من كل ناحية، وتداخلت حدود المطامع بعضها في بعض فصار الناس كالأمواج: لا تقوم القائمة من سقوط الساقطة.

وكان الناس يتعلمون كيف يسبحون في بحر الدموع ليأمنوا الغرق فيه وليستنقذوا الغرقى منه<sup>(٢)</sup>، فجدت بهم الحوادث حتى تعلموا القتال عليه وصار من لم يستطع أن ينقذ نفسه يجتهد أن يغرق غيره.

الإنسان حيوان لولا العقل، فلما أخضع لشهواته العقل صار إنساناً لا حد له في الحيوانية، فهو من هذه الجهة لا إنسان ولا حيوان وإن كان الشيطان مطروداً من رحمة الله فخير ما يقال في هذا الإنسان إنه شيطان فيه موضع للرحمة! . . .

ولقد خلق الله هذه الحواس ولا ضابط لها إلا العقل يُحكم تحديدها ويتولى تسديدها، ويستعين في أمرها بكل على كل، ومن ثم يستقيم من هذا الإنسان شيء معقول، ويصبح قد ضربت عليه

(١) أي يظهر من الحدة الحيوانية كأنما أصابه الكلب - بفتح اللام - وهو جنون الكلاب.

(٢) كناية عن المواساة في الأحداث والمصائب والأحزان ومساعدة بعضهم بعضاً، وهي من شروط الإيمان.





الحدود لا يتعداها، ورُسِّمت له دائرة في الإنسانية لا يجاوزها، فيقرُّ كلُّ امرئٍ في حيزه وقد صار عنده من الناس وعند الناس منه وثائق من العقل وبيانات من الحق إذا هو حاكمٌ إليهم ضلالة منهم أو حاكموا إليه ضلالة منه<sup>(١)</sup> وهنالك يرى كل عمل طيب ثواب نفسه، لأنه هو من فضائله كأنه شريعةٌ لنفسه؛ ومتى كان العمل الطيب مما يُجزئ في ثوابه عن الرجل من الناس أنه عمل طيب، فقد أصبح ولا غرو من سعادته، إذ لو لم يجد به سعادة لما لقي منه ثواباً وبذلك - وحده من دون كل الوسائل الأخرى - تصبح السعادة عملاً من الأعمال يمكن أن يُمارسه الإنسان فيسعد ما شاء الله أن يسعد، ثم تكون الحياة على ذلك واجبات يقضيها، فإن تحققت أو لم تتحقق فإما دخلت على نفسه بسرورها وإما خرج منها بعذره وقد أبلى عُذراً.

(١) متى لم يكن إنسان في حيزه وطغت به شهواته وأسرفت عليه حواسه، وانقطعت الصلة بينه وبين الناس من جهة أو من جهات، وحينئذ لا يجد في الرذيلة معناها، إذ هي رذيلة في تحديد الناس وفيما تواضعوا عليه من معناها وحدها فيضع هو لها تعريفاً جديداً تكون الرذيلة فيه كل ما لا يوافق هواه ولا يساعف أغراضه، ويصبح كأنه وحده هو دنيا وكان الناس دنيا أخرى، فكل ما اعترضته أو صادمه من مصالحهم ومراشد أمورهم عده عند نفسه رذيلة . . .

ومن هنا ترى بعض (فلاسفة الشهوات) في التمدن الأوربي الفاسد يعدون حياة المرأة المحصنة - ضعفاً، وعفافها مرضاً من أمراض النفاق، ووفاءها لزوجها أثراً من العبودية، ثم يرون الأديان كلها أو هاماً يقيد بها الإنسان نفسه، ويتتابعون بمثل هذه الآراء في كل ما اصطلاح الناس على أنه فضيلة أو إنسانية، ولو هم حققوا ورجعوا إلى مآتى ذلك في أنفسهم لرأوه أثراً من أعصابهم المريضة ولرأوا أنفسهم في جنون الشهوات صورة أخرى من مجانين العقول . . .



ومتى صارت حياة رجل من الناس إلى أن تكون واجبات  
يتجزها ويستقضيها من نفسه، فما لشهوات البدن موضع إلا  
كموضع النار من يدي المصطفى: لا يراد منها إلا حرها، ولا يطلب  
من حرها إلا قدر معلوم، ولا يتغى هذا القدر إلا مدة بعينها، ولا  
تكون هذه المدة إلا بمقدار ما يصلح أو يدفع الأذى، لا سرف في كل  
ذلك ولا هوان ولا مضيعة.

قال «الشيخ على»: ولكن كل شر العالم يا بنى فى لفظ  
واحد: هو طغيان الحواس، وبمعنى واحد: هو إذلال العقل؛  
ولغرض واحد: هو هذا الموت الأدبى الذى يسميه المغفلون  
سعادة الحياة.

منذ طغت الحواس أصبحت الحدود بين مطالب الإنسان من  
فضائله إلى رذائله ولا أثر لها، لأن الشاطىء لا يُعرف تحت السيل  
إذا طم عليه<sup>(١)</sup>، فما أنت ولا أنا ولا أحد يدري ما هو الكفاية فى  
رغبات هذا الإنسان وأهوائه؛ بل صارت هذه الكفاية وما ينطوى  
تحتها من ألفاظ القصد والقناعة والرضا وما إليها - ألفاظاً خيالية

(١) كل الشر فى هذه الدنيا، أو ما نعتبره شراً يرجع إليه نكد الإنسان وبلاؤه إنما يأتى  
من زيغ الحاسة فى فرد من الناس فتكون الطاقة محدودة بحدود كثيرة من قوة  
صاحبها ومن أحوال الناس ومصالحهم، ولكن الرغبة تجرى مطلقة متخفية كل  
هذه الحدود! ومن ثم يقع الاختلال بين مقدار القوة وغاية القوة. وبين الحقيقة  
الواقعة التى لا تتغير والحقيقة المتوهمة التى لا تتحقق، ولا يبالى الناس من ذلك  
شيئاً، لأن الحدود قائمة بينهم برسومها، والحقائق مقدرة بمقاديرها فلا يحل ضرر  
ذلك إلا بصاحبه لا يعدوه، وهذه مادة السخط والهم والنكد =



يساير ظلها الإنسان، فلا حدّ لها مادام هو لا يُثبت لنفسه حدّاً، ولا تتأخر مادام هو يتقدم، وأصبح أكثر الناس في رغباتهم الخالية وما يعملون لها مدة الحياة كرجل ائتلى<sup>(١)</sup> أن يخط دائرة مركزها ليس في محيطها، فكلما رسم دائرة رأى المركز في داخلها، فيجتاز به وراء المحيط ثم يُدير يده فإذا واحدة أخرى تقاطع الأولى ولم يصنع شيئاً صحيحاً مما يحاوله؛ ويمضى على ذلك ما شاء الله ولا يصنع شيئاً، فلا هو يخطئ رأيه، ولا هو يرى من عمله شيئاً صحيحاً، وما بقى من الأرض فضاءً لم يخط عليه، بعد فهناك . . . هناك يرى هذا الأحمق الدائرة المتوهمة التي يخرج مركزها عن محيطها.

من هذا ونحوه أصبحت السعادة وهم من الأوهام؛ إذ لم تعد في إشباع العواطف وتغذية الشعور، وليست في موضعها الذي هو بين الضمير والعقل ولكنها في إشباع جسد لا يشبع مادام حياً، وفي

= والتعاسة في أكثر الناس حين لا يتحقق لصاحب الدرهم من قوة الملك في درهمه ما يتحقق لصاحب الدينار من ديناره؛ ومتى ما طغت الحاسة، وفانت مقدار الجهد والطاقة، وترامت إلى البعيد البعيد منهما كان هذا البعد هو بعينه مسافة انحراف الفضيلة عن نهجها وسبيلها. فتخلفها الرذيلة على مكانها؛ وهنا عمل الإيمان وفائدته، فهو تحديد الشهوات والرغبات والتخلية بين كل إنسان وحدوده التي بلغت إليها فضائله ومواهبه: ففلسفة الإيمان والسعادة والفضيلة تجدها كلها في قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦].

(١) سالت وألى.



تغذية حاسة لا يزيدھا الغذاءُ إلا شرھا وضراروہ؛ فلن تكتفى إلا إذا بَطَلت، وفي موضع مجهول بين هذه الحواس لا حدّ له إلا كالحمد بين ما يجد المعدّم وما يتمنى، فالسعادة على ذلك هي دائماً في الاستعداد للسعادة... وكفى بهذا عبثاً.

ولعمري ماذا تكون الحياةُ بل كيف تكون؟ أليس يعلم الإنسان أنه سائر إلى الموت ويعلم كذلك أنه طالب ما لا يموت؟ فلا جرم كان شعوره بهذا التناقض مؤلماً، وكان هذا الألم هو منشأة الهموم التي لا تدعه لنفسه ولا تدع نفسه له، وكانت حقيقة هذه الهموم التي يجمعها كلها هي شعور الإنسان - شعوراً فطرياً جرى منه مجرى العادة - بالمنازعة بين ما يطلبه هو في الحياة وبين الحقيقة التي تطلبه هو من الحياة، أي الموت، ومن ثم يضطرب كيانه العقلي. فيؤثر كل شيء في نفس هذا الإنسان تأثيراً أكبر من حقيقته، لأن حقيقة هذا الإنسان لم تعد في نفسه، بل في مطامعه، فهو يا بني كالوعاء المثقوب: تصب فيه البحر ولا يزال فارغاً! والحياة عنده هي طلب الحياة، وكفى بهذا عبثاً!.

ولا تحسبن أنه لا يبالي بما مضى من عمره، بل هو يستشعرُ فوق ذلك الخوفَ من أن يكون الذي مضى هو أكثر العمر وأطيبه؛ ولذلك لا يبرح شقيماً بما يُحاول، إذ يحاول أن يجمع طيبات الحياة ويستحوذ عليها في القليل من عمره، ليستمتع بها فيما وراء ذلك؛ كأن الحياة التي قوامها من الغذاء لا تفارق الإنسان ما دام الغذاء في





بيته ، وكان الله يبيعُ المستقبل لمن اجتمع له من الدنيا ما يتوهم أنه يقوم ثمنًا للمستقبل . .

لا يبرح هذا الإنسان شقيًّا ، وهو أبدأ من الهم والغىظ والتوقد واشتعال الأمل والاضطراب فى أسباب الحياة كالسكة المحماة<sup>(١)</sup> :  
يحسب ذلك من نفسه قوة وفضلاً وسعة فى الحيلة ، ولا يدرى أن هذه النار المشبوبة فى صدره تقطع منه أكثر مما تقطع به ؛ وأنها كما تعطيه قوة المضى فى هنات الحياة وهيناتها ، تعطى الأقدار الصلبة مثل هذه القوة عليه ، فلا تكاد تصدمه ، من أى أقطاره<sup>(٢)</sup> حتى يتسلم ويتفلس .

وهل تحسب مثل هذا يكون عناده فى أهل السعادة ، وهو من الحرص على الحياة يكاد يشمُّ ترابَ قبره فى كل حادثة تلمُّ به ، ولا يزال يُصلب على كل باب من أبواب الأيام حين يفتحها الصباح وحين يُغلقها الليل ، ويرمى بالنبل المسموم من فُضوح الدنيا وشهوات النفس الدنيئة ، ويُقتل ضميره كل يوم قتلة الكذب والغدر والإثم ، لأن ذلك من وسائل الحياة التى تبسط عليه الدنيا؟

وما ظنك بسعادة أولها حب النفس وآخرها بغض الناس ، ومن مقدماتها منازعة الفرد للمجموع ، ومن نتائجها منازعة المجموع للفرد ، ومن مبدئها درس الشر علماً ، ومن غايتها مزاولة الخبث عملاً ، ولها اسم السعادة وفيها معنى الشقاء ، ومن شروطها على

(١) نصل يحمى فى النار فيكون ذلك أشد لمضاته .

(٢) أى من أى جهاته فى الحياة . كالصحة والغنى والأمن ونحوها .



صاحبها أنها لا تمتعه إلا بما يمله، ولا تتبرج له إلا فيما يناله؛ ولا تُظهر للناس أبداً إلا ليروا فيه رذيلة من الرذائل، ثم لا تكون مع ذلك في موضعها إلا كالفقير في موضعه: هذا يوازن بين نعم السماء التي تنزل على الضمير وبين هموم الأرض وتلك توازن بين هموم السماء التي تنزل على الضمير وبين نعم الأرض، وآخر أمرها أن لا يعرفها صاحبها إلا على الضدّ مما يعرفها الناس: فهم يسمعون لها الأصوات العالية من الأمر والنهي والجاه وما إليها، وهو يعلم أن هذه الأصوات لم تخرج منها إلا لأنها كبيرة فارغة..

قال (الشيخ على): وبذلك يا بني خسر الناس لذة الحياة، فلا أدري أهم بشر أم آلهة، لأنى أرى كلّ حى كأنما يريد أن يرمّ صدعاً فى الكون، وأن يصلح من هذه الدنيا ونظامها ما لم يصلح له، ولماذا؟.. لأن الدينار الواحد نواة ذهبية، ولكن هذه النواة لا تخرج لكل إنسان نخلة من الذهب...

ولماذا أيضاً؟... ولأن أكل هذه النخلة حين تُؤتى أكلها لا يكون إلا مرّاً!

ولكن أليس فى الأرض غيرَ المال ما يمكن أن يُستلذ وأن يسمى نعمة؟ وأين هى تلك السوق التى تعرض فيها النعم الهنيئة ويقف على جانبيها ملائكة الله يبيعون بالدرهم والدينار، ويبيعون المريض من أولئك الأغنياء عافية، والضعيف قوّة، والحزين مسرة، والخائف أمناً، والفرع اطمئناناً، والهرم شباباً، والمهزول جسماً رويّاً؛ والميت رجعة أخرى..؟



ألا فليعلم الإنسان أن هذا العالم لا يصلح على غير ما هو عليه وما لا بد منه لنظام الحياة، فسيأتى إن خيراً وإن شراً، فكلنا يسمى الصعاب التي تعرض له فى طريق الحياة عقبات: لأننا لا نبصر ما وراءها ولا نعرف فى أى موضع تقرر من نظام الحاضر أو نظام المستقبل، وهى لو تعلمون وسائل لما بعدها، فما تراد لنفسها أكثر مما تراد لغيرها، وهى بأن تكون مقيدة بهذا أخرى من أن تكون مقيدة بذاك؛ ورب صخرة حالت فى طريقك لتلفتك إلى هاوية من ورائها. أو تتقى بها عدواً يدلف إليك من ورائك!

والأعرج الذى يتأبط سناده<sup>(١)</sup> ويتخذ منه رجلاً تبدأ من الكتف، لا يكاد يعرج بضع سنين حتى يستفيض صدره ويكتنز عضلة ويتفتل ويصبح لحيمًا بادناً كأنما جمع فى زنده حجم يده إلى حجم رجله التى رُمى فيها، وكان مرهفًا دقيقًا متهدم الصدر بارز الأضلاع خاوى العروق ممسوحًا فى جملته، ثم أنت لا تراه إلا ساخطًا متبرمًا يكاد يتحطم غيظًا ويلعن سناده وما حمل . . . واليوم الذى حملة فيه، والسبب الذى حملة به، ويرى كأن العرج هو الذى قطعه عن شأو المعالى وكان سباقًا ويظن عند نفسه أن هذا العرج قد جعله فى مشيته الممثل المضحك على مسرح الحياة!

ولا كل هذا يا رجل، فهل نسيت ويحك أن السعال كان ينفضك نفضة الموت، وأن البرد كان قد اتخذ من أضلاعك سقفًا يأوى إليه، وأن الأمراض لم تبرح ترميك أونة بعد أخرى كأنها تلين

(١) وضعناها لهذه الجمالة التى يعرج عليها من أصيب فى رجله، لأنها



عظامك القاسية للضجعة الأخيرة، وأنت كنت لا محالة هالكًا  
تنفثُ رثيتك من شفيتك، وتيصق روحك تحت رجلك، وأنه لولا  
الداء الذي يسمى العرج، لهلكت بالداء الذي يسمى السل<sup>(١)</sup>.

هذه واحدة يا بنى، وما من واحدة إلا وهى أختها، وحكمة الله  
لا تختلف، بل هى فى كل شىء وإن كنا لا نعلم، وما خلق  
شىء عبثًا، فتعالى الله الملك الحق، ولقد أعرف أن ما لم يُقض لى  
فهو مقضتٌ لغيرى، وأنه لا بد أن أذهب فى هذه الحياة بقسط من  
مصائبها، لأنه جزءٌ من نظامها يتوقف على وجودى ويتوقف  
وجودى عليه؛ وهل أنا بدن يملأ الأرض ورأسُ طبَّق السماء،  
فيكون القلُّ عمامتى، والقضاء عمامتى، وكل خير لها متى؟ إن  
أنا يا بنى من هذا الناس فى أقدار الحياة المكتوبة إلا كالجندى فى  
العسكر نصبته الحرب آلة حية تحركها ألفاظ وإشارات من حيث  
تأتى! فهو يندفع إلى الموت ويشوى من لحمه على النار متى أرادت  
خطة الحرب أن تنبعث وتتحرك، وإنما هو بجسمه وروحه وعقله  
نقطة صغيرة فى خط صغير من خطط كثيرة مثله رُسمت بها فكرة  
أمير الجيش على صفحة الميدان؛ فليس للجندى أن يسأل عند  
الحركة: لماذا...؟ إذ هو لا يجدُ عندئذ من يقول له: لأن...!  
ولكنى متى أزفت الأزفة وحُقت النهاية بالنصر أو الهزيمة، رأى  
العمل الذى وراءه كأنما انقلب أحرقًا وكلمات يستوضح منها فكرة  
القائد كما رسمها!

(١) انتهى الطب اليوم إلى معالجة الشلل بإحداث الملاريا.





قال «الشيخ على»: ومن الأسئلة في هذه الحياة ما يولد حين يموت جوابه كما رأيت<sup>(١)</sup>، فهو حُقم من السائل ومضيعة، لأنه لا جوابَ عليه، وربما اعتدّه الأحمق معضلة من المعضلات وكدَّ ذهنه فيه وقصَّر همه عليه وجعل يلقي به الناس ويفتح له الأحاديث، وذلك سُخف لا يوجد به الجواب الصحيح ولكن يضيع فيه السائل، إذ يستنفد من وسعه وعمله وحيلته، ثم لا يرد عليه من كل ذلك سوى الخيبة؛ وهذا - أعزك الله - سر من أسرار ضيق الناس بالحياة وتبرُّمهم بأقدارها، لأن أكثر أعمالهم وآمالهم من جنس ذلك السؤال، فما قلَّ من ينتهز من يومه قبل أن يذهب يومه، وما أكثر من يريد غداً قبل غد . . .

ولكأنى بهذا الإنسان يود لو أسرع الفلك في دورته وجعل يرثمى به المرامى البعيدة لينهب ما في الغيب نهباً ولينال الممكن كله وشيئاً من المستحيل أيضاً . . . فيحيا بعد ذلك حياة طيبة عذراء لا تلد لبايها من مواليد الغيب قليلاً ولا كثيراً . . .

دونك آمال الناس فانظر هل تجد في هؤلاء الحمقى من يصبُّ آماله إلا في قالب يسعُ ضعفيها على الأقل، وهو يحسب أنه بتوسيعه لها يخفى جانب الاستحالة فيها ولا يدري أنه يخفى جانب الممكن المعقول أيضاً . . . يصبُّها في قالب التمني، وما موضع التمني في عالم الحسِّ وفي هذه الحياة الأرضية التي لا تزال تضرب جيلاً بجيل، وتدفن قبلاً بأيدي قبيل، ويُهملها الإنسان في الكثير وهي لا

(١) أي في مثل الجندي «وسؤاله لماذا؟» عندما يؤمر بالحركة الحربية.



تُهمله في القليل ، وهل التمني أن تكون حوادث الحياة ما أريد أنا وما تريد أنت وما يريد فلان ، إلا كما يتمنى كل إنسان من هؤلاء أن تكون غير نفسه ، وكما يتمنى الطفل حين يُجيب معلمه خطأ ويعلم أنه أخطأ - أن يكون الجواب حقيقة كما أخطأ . . . ؟

وقد يقال إنه ليس في العلماء أحمق ممن يكذب ذهنه في ابتكار جواب غريب لمسألة لا تقع لإنسان ولا يحتاج أحد إلى جوابها ، فكذلك لم أر في الجهلاء أحمق ممن يسأل الحياة سؤالاً لا جواب عليه ، أو لا يفهم الجواب عليه ، كل ذلك حمق ، وكل ذلك سخف ، وكل ذلك عبث وباطل ، ولكن يا أسفا على الناس ! كل ذلك من مذاهب الحياة ، وكل ذلك من الواقع !

فالناس من بين طامع جرىء إن نفعته الجراءة ذهب بمنفعتها الطمع ، وقانع ساكن إن أفادته القناعة ذهب بفائدتها السكون ، ومتحيل على الغيب يستجمع له والواقع قد نفذ فيه ؛ ومتبرم بحاضره يبني على السماء والأرض تهدم منه ، وقليل من الناس المؤمن الوثيق الذي يشعر بقوة الله في كل ضيق ، فإن لم ينصره الله على الحياة لا يخذله فيها ، وتراه لا يشك فيما يعرف ولا يريد أن يعرف ما يشك فيه ، وهو يعلم أنه ليس شيء من المصائب والنعم يمكن أن ينزل في غير موضعه المهياً له ، إذ ليس في هندسة الله مكان مختل<sup>(١)</sup> . وأن النعمة الصحيحة ليست لذات الإنسان الحي ولكن

(١) لو أن الله تعالى مد في نظر الإنسان فاخترق الكون كله وأصبح إن يرم بعينه يبصر كل ما وسعته الأرض . ثم بسط من سمعه مثل ذلك فعادت الأذن =



فى حياة هذا الإنسان ؛ إذ الحياة الصحيحة هى التى توجد اللذة ، وأن القوة التى تسمو بالحياة حتى تسخر لها الطبيعة تسخيراً إنما هى قوة العقل ، فإن وهن العقل صارت الحياة طبيعة حيوانية لا لذة فيها مما خُص به الإنسان دون الحيوان من روح الله ، بل تكون اللذة هى فقدان الألم أو إطفاءه إن تسعر<sup>(١)</sup> .

وتالله لو أفرغت طبيبات الدنيا فى جوف هذا الحيوان الإنسانى الذى وصفتُ لك ممن يسمونهم الأغنياء والمستمتعين وأهل الحظ والهناء . ما زادت فى لذته على ما يكون من إفراغ حَقْل من البرسيم فى جوف حمار . . !

قال «الشيخ على» : وكما يفقدُ أكثر الناس السعادة فى كثرة الاستعداد لها والإغراق ، فى وسائلها ، يجدها بعضهم فى إهمالها حين لا يبحث عنها ويذهب باحثاً حقيقة الحياة .

= الإنسانية وعاء لكل صوت يتكلم به متكلم أو يصيح به صائح فى كل وسعت الأرض - لو كان ذلك لما عاش الإنسان لحظة واحدة . ولو عاش لكان من كثرة ما يرى ويسمع لا يرى ولا يسمع فكذلك هو فى الشهوات : يحدّها الله بحدود من رحمته فيما يوسع أو يضيق . . . وما يعطى وما يمنع . ويأبى الإنسان لحماقته وجهله إلا أن يمدّها ويبسط منها أنواعاً وفنوناً وما يدري أنه بذلك يزحزح الحجر الذى هو أساس بنائه شيئاً فشيئاً فيهلك نفسه ويفقد سعادته ويضيع إنسانيته ويخر على أسفله . . .

(٢) من سنن الطبيعة أنها تجعل اللذة شرطاً فى كل عمل لا يقوم الكيان إلا به ، فإذا لم يحدث هذا العمل ضربت الآلام على الجسم . فالطعام ضرورة من ضرورات الحياة إذا فقدت كانت الأم الجوع ، وإذا تيسرت كانت لذة الأكل ، فكانت هذه اللذة ليست فى حقيقتها شيئاً غير انطفاء الألم . وقس على ذلك .



ويا عجباً للناس! كأنهم ملكوا الأعمار، وضمّنوا لأنفسهم دولتى الليل والنهار، فقلما يفكر أحدهم إلا فى زاد الدهر العبيد والحياة المتطاولة والأمد الواسع، وهو لا يرتابُ فى أنه لا يعيش غير عمر واحد محدود، ولكنه لا يدري أنه يحمل على نفسه من تلك الأطماع شقاء بضعة أعمار طويلة عالية السن ويسوقها بين يديه ظالعةً عرجاء تطلبُ السعادةً فى طريق لا آخر له، فهى تسير لأن بين يديها غرضاً ما ينفك مائلاً على بعد منها، ثم تنبعث لأن الطريق لا تنتهى، ثم تقف عاجزةً لأن الحياة قد كلت، ثم تقع وما بها حركة لأنها انتهت إلى الحفرة المجهولة التى تنشقُّ تحت قدمى كل إنسان فى الساعة التى هو رهن ولو كان طريقه فى النعم واللذات على وادى الجنة بين الشمس والقمر!

كل شىء ما شئت أن تتوهم، ولكن الحياة هى الحياة: هى الحقيقة التى تريد أن تعرف، والمدة التى تعمل على أن تنقضى، والمعنى الذى تطير حوله الأقدار وتقع لتلفت الناس إليه، هى الحياة التى لا تتسع لأكثر من قضاء الواجبات، ولا تحمل جسدها إلا ريثما تبليه، واسمها الحياة ومعناها النجاح؛ وهى الحياة لا المال، والحياة لا الشهوات، والحياة ولا المطامع، وإنما قيمة الحياة فيما فيه نذهب لا فيما يذهب بها، فكل لذة لا تجدر لروحك أثراً فيها لذة ميتة، وحقيق بك عندها أن تحسب أن شيئاً من عقلك أو من فضيلتك قد مات فيها<sup>(١)</sup>.

(١) السعادة فى رأينا: هى كل ما استشعرت النفس أنها زادت به أو زادت فيه، وهذا التعريف يجمع كل أنواعها لا يشذ منه شىء، فهى على ذلك تكون =





ولقد نقلوا في أساطير الأولين عن «ميداس» أنه بلغ من فرط الغنى أن لا يلمس بيده شيئاً إلا استحال ذهباً، فأرادت آلهة الخرافات أن لا ينخدع الناس فيه ولا يسحر أعينهم أو يسترهبهم، وأن يعلموا أنه إنسان، وأن فرط الغنى مثله به، فمسخ «أبولون» أذنيه فكانتا... أذنى حمار... ولعل فرط الغنى يا بنى لا يكون في الأعم الأغلب إلا مع هذه الآذان... وما أملحها نادرة وأبدعها إشارة وأحكمها ملححة! فإن كل ما في الحمار لا بد منه لتكوينه حماراً سوياً، إلا أذنيه الطويلتين<sup>(١)</sup>؛ فلو حملها إنسان كميداس رزق غنى الحيوانية فهما برهانان على أنه ليس بإنسان صحيح ولم يستطع أن يكون شيئاً حتى ولا حماراً من الحمير!

وأى شيء هذا الغنى الذي يأكل ويتمتع ولا يرتعى من لذات الحياة إلا الخضراء الناضرة، وقد سلط على هلكة ماله أو سلط ماله على هلكته<sup>(٢)</sup> فإن ذهبت تعتبره إنساناً لم تر فيه من الإنسان إلا النصف الأسفل...

= في الأخذ وتكون في العطاء ألا ترى الأصل الطبيعي في الحب يجعل سعادة ما يناله المحب من حبيبه كسعادة ما يبذله؛ حتى أنه ليبذل روحه في ذلك إذا علم أن نفسه تزيد بها شيئاً عند من يهواه؟ ومن هذا فالتعاسة في كل ما استشعرت النفس أنها نقصت به أو نقصت فيه؛ ومن ثم فكل فضيلة هي من السعادة وكل رذيلة هي من ضدها ولو كان الألم والحرمان في الأولى وكانت اللذة والمنالة الثانية، وهكذا قال (الشيخ على).  
(١) يتنازع الناس بأذنى الحمار الطويلتين ويجعلون طولهما مسبة، ويقولون مثلاً: فلان حمار بأربعة آذان؛ وماذا لو نقص الحمار طويل الأذنين؟ لا شيء إلا اعتباراً أدبياً يخدع الناس فيوهمهم بأذنيه القصيرتين المرهفتين أنه يشبه الجواد الكريم، في حين هو لا يشبه إلا... إلا البغل العقيم...  
(٢) يريد أنه متلاف أو شحيح.



أهو حيوان؟ فأين عمله الطبيعي إذن، فإنني لا أرى هذه الحيوانات<sup>(١)</sup> كلها إلا عاملة النظام الطبيعية كما تعمل الطبيعة لها .

أم هو إنسان؟ فأين عمله الاجتماعي الذي يُسنى منزلته إذا أصبح الناس على منازلهم، وأين الحدُّ الإنساني الذي يصله بمجد الماضي أو يدل عليه في عمل الحاضر أو يلحقه بأمل المستقبل؟

إن الطبيعة يا بني لا تُغفل خطأ ولا تنسى مُذنباً ولا تصفح عن إساءة، ولكنها تضرب بيد أطف مساً من الهواء وأخف موقعا من الضوء، على حين أن صفعتها زلزلة لا يقوم لها بناءً حتى؛ فلو أن مثل هذا الغنى قد أعطى مَعْدَةَ حمار أو أعصابَ بغل أو قوة فيل أو نحو ذلك، لتمَّ تمامه بالمال فوجد في هذا المال مسدَّ حاجته كيف مسَّتْ، غير أنه أعطى شره الحمار دون معدته، وأعطى في هذا الباب من البغل والفيل وغير البغل والفيل دون ما يحمل ذلك وما يبعث عليه، فكأنما مُسَخَّ من باطنه مسخاً على حين أن طبيعته الإنسانية لا تخلو على هذه الأبواب من هذه الشهوات<sup>(٢)</sup> ولا تصلح بها ولا تطعم فيها من الحياة. وقد حدثوا عن امرأة من ذوات النعمة الفاشية في أمريكا اتخذت كلباً فوق وقع منها بموضع محبة شديدة، فاستصفته وتحفَّتْ به وذهبت كل مذهبها في ترفيهه وفتحت عليه من دنياها العريضة، فنصت له السرير، وفرشت له الحرير، وأبدلته سماعَ الموسيقى من سماع الهيرير؛ ومنعته العظم يُعالجه ويقرضه، وحرمته على الجوع

(١) لم يعرف العرب الحيوان بالمعنى الذي نعرفه به ولم يجمعوه على حيوانات، وإنما ذلك على قياس كلامهم فهو إذن من كلامهم .

(٢) أي لا تقوم عليها ولا تصح بها .



يُقَعِّدُهُ وَيُنْهَضُهُ ؛ وما زالت به ترأَّمُهُ وتحنو عليه . فإذا هو يذوى ثم يضعف ثم يمرض ثم هلك ؛ وكانت المرأة كأنما تقتله بالنعمة شرَّ قَتْلَةٍ ، وتصبُّ عليه العذاب صبباً من ألوان ذلك النعيم ؛ فكيف بصاحبنا الغنى حين تُبَالِغُ الطَّبِيعَةُ في ترفيهِه على ما يشاء له الهوى من سُنَّةِ الحمار والبغل والفيل وجماعتها كما بالغت صاحبة الكلب في ترفيه كلبها على سنة الإنسان ؟

قال «الشيخ عليّ» : الحياة يا بني مَدَّةٌ ، والمُدَّةُ ضائِعةٌ لولا العمل ، والعمل على مقدار المنفعة ، والمنفعة بأثارها ، وهذه الآثار هي تاريخ الحياة ، فالأحمقُ الشَّرُّه الذي يعيش مقبوراً في بطنه ، والغنيّ اللثيم الذي يعيش مقبوراً في خزانته ، والفاسق العاهر الذي يعيش مقبوراً في رذائله ومخازيه ، والدُّنْيَاءُ السفلة الذي يعيش مقبوراً في جرائمه وآثامه - كل أولئك لا تاريخ لحياتهم ولا حياة لتاريخهم ؛ فهم أناس خلقوا بخصائصهم لتمثيل ألوان العذاب وأصناف العقاب ؛ يقع ذلك عليهم من الله ثم يقع منهم على الناس ، وإنما يُعَانِ المخذول منهم على احتمال أمره بما هو فيه من الغرور وما يُطَوِّعُ له ؛ وما كان الغرور وصاحبه في عاقبة الحياة ورجع الأمر كرجلين من الحمقى ضمهما طريق فاصطحبا ، ثم أفضى بهما السير إلى جبل قطع عليهما ، فقال أحدهما لصاحبه : إنني أراك شديد الأسر قوی البضعة ، وما أرى إلا أن تحمّل هذا الجبل وتلقيه بعيداً من هنا ، فلا مذهب لنا إلا من ورائه . . . قال له صاحبه : أما إنني كما وصفت ، وإن بي لقدرة على حمله ، فما



عليك أنت إلا أن تضعه على ظهري!...<sup>(١)</sup> فلا الحامل أطاق  
فحمل ولا المعين استطاع فأعان، وإنما هما كحماري العبادي الذي  
قيل له: أي حماريك شر؟ فقال: هذا ثم هذا...

وهكذا يُعين الغرور على طلب الدنيا ويزين للمغرور فلا تراه  
أبدأً إلا على زينة من أمره<sup>(٢)</sup> حتى تذهب الحياة في باطل كالحق أو  
حق كالباطل، فإذا حَسَمَ الموت عنه مادة غروره وجاءه باليقين الذي  
لا مرية فيه! قال: ويحيى! لو رجعتُ لعلى أعمل صالحاً فيما  
تركت! وآه لو عرفتُ حقيقة الحياة قبل الموت، أو عرفتُ حقيقة  
الموت وأنا بعد في الحياة!

أيها المغرور! ما أراك إلا دائباً في طلب الحياة حتى تفقدها من  
شدة الطلب فلا تكاد تستوضح ما هي؛ فإياك وإياها، لا تأخذ  
معنى الحياة من نفسك إن لنفسك أغراضاً حية تريد أن تكون هي  
الحياة؛ ولا من الناس، إن فيهم أغراض نفسك؛ ولا من مدة  
عمرك، فإنها لا تبلغ طرفة واحدة من عين التاريخ.

ولكن أعد نظراً على ما وراءك وخذ معنى الحياة من ستة آلاف  
سنة عرفت من تاريخ الحياة نفسها<sup>(٣)</sup>، ثم من عمر الأرض كله، ثم

(١) سألنا بعضهم عن هذا المثل ومأخذه يظنه منقولاً؛ فهو من كلام (الشيخ  
على) وقد وضعنا أمثالا في كتابنا «المعركة».

(٢) أي فرحاً بما لديه.

(٣) الغرض: من تاريخ العمران، وهو فيما كشفوا لا يتجاوز هذا الدهر أما مدة  
ما قبل التاريخ فيقدرونها في الحياة الإنسانية بنحو مئتي ألف سنة، أكل  
إنسانها التاريخ فيما أكل.





من تاريخ الموت المجهول أوله وآخره؛ خذ معنى الحياة من هذه الأفواه الصامته التي لا تكذب لأنها تحفظ الحقيقة الإنسانية؛ من هذه القبور التي تملأ الرُحْب؛ من هذه الهاوية التي ينصبُّ فيها فراغ الحياة دائماً لأن تحتها مجرى التيار المتدفِّع من النهاية الأرضية المعروفة إلى الأبد الذي لا تُعرف له نهاية، خذها من هذه الكلمة التي وضعتها السماء للأرض، هذه الكلمة الأزلية التي تحقق الإخاء والمساواة في الناس جميعاً بلا شذوذ و، لا تأويل، الكلمة التي يكون القبر زاوية في معناها، كلمة الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

أيها المغرور. خذ الحياة حقيقة لا وهما، وعملاً لا علماً واسمع للحياة إن كنت تعرف لغتها أو اسمع للموت الذي يعرف كل إنسان لغته،؛ فإن كل ذلك يعلمك أن الرجل الحرّ لا يعرف على أي حالة يعيش إلا إذا قرّر لنفسه أيّ حالة يموت؛ وأن الحياة ليست في الوجه الذي توجد عليه من الغنى إلى الفقر، ولكن في الوجه الذي تنتهي عليه من العمل الصالح إلى العمل السيئ؛ وليست في ترفيه الحواس الغليظة، ولكن في النفس والضمير: الضمير النقي، لثواب الدنيا وجمال الحياة ولذة الخير؛ والنفس الطاهرة، لثواب الآخرة ونصرة الخلود ورحمة الله.

قال «الشيخ عليّ»: فلا تسأل يا بني ما هي الحياة؟ ولكن سل هؤلاء الأحياء: أيكم الحيّ؟ ...

\*\*\*



## سحق اللؤلؤة . .

قال «الشيخ على»: وإني محدثك الآن حديثاً يشفى نفسك من الخبر، ويفتح عليك أبواباً من العبرة والموعظة ويحضرك طرف من الدنيا بأقداره وعلله ومذاهب حكمة الله فيه كأنما أنت شاهد أمره، فلتعلمن أن في المال مشغلة عما سوى المال، وأن الحرص عليه حق الحرص لا يداخل أمراً من أمور الحياة فيعترض بين ورده وصدوره إلا ساء أحدهما أو كلاهما<sup>(١)</sup> وفسد الأمر فعسى أن يتصل بما هو أجل منه خطراً وأسنى منزلة، فلا يكون ذلك الحرص إلا مضيعة، ولا تكون الرغبة فيما يستخلف إلا سبباً في ذهاب ما لا يستخلف.

ولتعلمن أن المال شيء غير الحياة، وأن الحياة شيء غير المال، وأن ما يخدع الإنسان فيتلون له من سراب هذه السعادة إنما يكون أكثر ما هو كائن من بريق المال يحسبه شيئاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وعسى أن لا يكون فيما أقبل من نعيم الدنيا إلا ما يدبر بصاحبها، وأن لا تصيب فيما زوى عنك من حظها إلا ما يقبل بخط نفسك على نفسك.

ثم لتعلمن أنه إن كانت للقدر فترة عن رجل من الناس فقيراً أو غنياً أو بين ذلك، فما هي غفلة ولا معجزة، ولعل الرجل إنما يمد

(١) أي البرد والصدر، وهما كناية عن مبدأ الأمر وغايته.



له فى الغنى مدّاً طويلاً حتى إذا جاء يومه انفجر عليه بما لا يطيق له سداً ولا يستطيع له رداً - وأنه رب كلمة تعارف الناس معناها وأجروها على مذهبها فى كلامهم ، فإذا هى نزلت بعض منازلها من الحياة كان لها معنى آخر لا تفسره إلا الحياة نفسها ، ثم لا تفسره إلا على ضد مأخذهم ومقصدتهم ؛ فيقول الناس «فلان الأمير» ومعنى ذلك فيما نراه من حوادث الحياة وأقدارها فلان النذل ؛ ويقولون «هذا الغنى» ومذهب الحياة أنه الشقى بغناه ؛ وفلان أعزه الله وإنما هى أخزاه الله بعزه ، ويحسدون فلاناً إذ يرون أن الله عز وجل قد مكن له وآتاه من بسطة المال والجاه فهو يستعد للحياة بأفضل عدتها ثم تقع الواقعة ويتغشى فلاناً هذا ما شاء الله من الحوادث والأقدار فإذا هو إنما كان يستعد للموت بأقبح عدته !

ولتعلمن كذلك أن الغاية من هذه الحياة كمال الحى فى جسمه ونفسه ، فإن تم بالفقر فذلك غناه ، وإن نقص بالغنى فذلك فقره ، ولا شأن لاصطلاح الناس فيما هو خاص بين المرء وذات نفسه ، وهذا معنى بسطته لك أنفاً ولكنى متلقيك بمثاله من رجل وامرأة ، ولا عليك أن لا تسمع حديثاً عن الباشا و«هانمه» أو أبى زيد وأم الخير ، ولا على أن أجيئك بالمثالين على باخرة<sup>(١)</sup> أجعل ذلك من صرف الكلام وتزيينه<sup>(٢)</sup> وما بلادنا من هذه المخازى بمنتزج ، ولكنى أردت إمتاعك من لذة الحديث على مدار إمتاعك من حكمة

(١) من خارج البلاد ، لأن الرواية عن (فكتور ولوبز) .

(٢) صرف الكلام : أن يزداد فيه ويحسن .



الحادثة ؛ والكلام عن رذائل الحياة في بلادنا هذه كلام غث يتجافى عن الرقة في أكثر مناحيه ، وإذا وجهته إلى أكثر قومك فإنما أنت تشتمهم به أو هم يتلقونه من هذه الجهة ، ولا مناص أن تقع بك ظنة السباب وإن كنت واعظاً ، ويقال عاق وإن كنت برآ ، وغاش وإن كنت من الناصحين .

### الرجل البخيل

أما فلان هذا فهرم بخيل لو مسخ حجراً لتحطمت من غيظها الأحجار ، ولو كان على بخله حديداً لما لان الحديد في النار ، ولو صوره الله طيناً أجوف لما طن في يد أحد على نقر ، ولو خلقه مرة أخرى من تراب لما جمع هذا «التراب» إلا من ثياب أهل الفقر . . . .

وهو نبي أمة البخل ؛ أما معجزته فهي قدرته على أن يستنبط غير المألوف من المألوف ، ويستغل الصفر فيخرج منه ألفاً إلى ألوف وإنه على ذلك لآية ، فما رآه المؤمنون إلا قالوا : اللهم غفراً ، ولا رآه الجاحدون إلا زادوا عتواً وكفراً .

وكم تمنى وهو يتهالك حرصاً أن يكون كإبليس في أنه لا يموت إلا متى هرم الدهر ، ولا يذهب من الأرض إلا حين لا يبقى في تاريخ الأرض ولا شهر ، وإذا خوفته الموت والحساب قال : ويملك دع عنك ، وإذا علم أنه سيعطى كتاب أعماله في الآخرة قال : ليت صحفه من «ورق البنك» !





على أن درهمه في أيدي الناس هم واسمه في أفواههم سم،  
وكم لأمواله من قتيل فمن (استلف)؛ فقد ذهب به التلف؛ ومن  
اقترض؛ لقد انقرض! وكم من بئس قشعت غمامته، ثم غالت  
هامته<sup>(١)</sup>؛ وقضت دينه، ثم أبكت عينه؛ فوالذي نفسى بيده إن  
دراهم هذا الخبيث لتعد من اللصوص، وإنها للثيمة على العموم أما  
هو فلثيم على الخصوص؛ يرسل الدرهم في يد المحتاج فيذهب فيه  
ديناره، ويقدح فكره الملتهب فلا تقع إلا في بيوت الفقراء ناره، ولو  
كان مخلوقاً يوم عرض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال  
فأبين أن يحملنها، لحمل وحده الأمانة؛ وإذا كان مبلغ القول في  
وصف كل غنى كريم أنه «صراف» في خزانة الله فجهد القول في  
هذا اللثيم أنه لص الخزانة<sup>(٢)</sup>!

وهو على غناه كأنه في الناس بؤس المفلس في القمار. وكأنه  
لحقارته ذيل الحمار؛ إن طلع عليهم فطالع زحل، وإن غاب عنهم  
فوباءٌ رحل، ومتى ذكروه، فكأنهم نكروه، وإذا قضى عليهم أن  
يسموه فكأنما شتموه. وإذا وصفوه قالوا وجع الأظفار، وذنب بلا  
استغفار، اللهم قنا عذاب النار!

(١) أي قتلته، والمعنى أنها تنفس كرب المحتاج حيناً ثم تكون له كرباً لا نفس  
فيه، لأنها دراهم تأكل دنابير، ودنابير تأكل أرضاً.

(٢) الغنى الكريم الذي يعرف حق الغنى عليه إنما يعرف أنه مؤتمن على مال الله  
لإنفاقه في وجوه الخير على نفسه وعلى الناس، ولكن البخيل يدخر ولا  
ينفق، وقد ظن بعضهم أن الصراف عامية عربيتها «الصيرف» ولكنهما  
صحيحتان فصيحتان.



أما وجهه فلو أنزل الله مرآة من السماء فنظر فيها لصدت من قبح خياله ، كصدإ ذلك المخزون من ماله ؛ وأما روعته فلو خرج على الحسان لابتلاهن بما يفجأ الأطباء من رؤية الفهد ، وامتلكهن بما يعترى المرضع إذا كشفت عن طفلها فأبصرت الشعبان في المهد ؛ وأما جهامته فلو نظر إليه البدر لغرب ، ولو اطلع عليه الفجر لهرب ؛ أما روجه الخفيفة . . . فلو بعثت خلقاً آخر لما كانت إلا بقية صيف ، في رقبة ضيف ، أو بعوضة تلسع العاشق المهجور فتوقظه وقد ظفر بالطيف ، وحياته كالبلاء المحتوم ، وغناه كالكنز المختوم ، وأما هو فكالقبر الكتوم .

وأحسب لو رسمه أمهر المصورين بأبداع خططه<sup>(١)</sup> وألوانه ، وأنطقه من عينه وعنوانه ، وجعله آية فنه وافتنانه ، وترك من يراه لا يحسب إلا أن المصور قد سرقه ، أو أن الله تعالى مسخه على ورقة ، لبقى مع ذلك في رسمه مغمز لا تصلحه إلا يد الشيطان الرجيم ! ولا تلونه إلا شعلة من نار الجحيم . . . ومن للمصور بشرارتين من الصاعقة ينزلهما في الرسم لتظهر بهما عيناه ، ومن له برقتي البخل والرذيلة يطبق عليهما يسراه ويمناه ، ومن له بلونين من غضب الله ونقمتة يظهر بهما في الصورة معنى فقره وغناه؟

(١) أى الخطوط .

(٢) أى جعل خفيات نفسه ودخائل طباعه ظاهرة في نظره ومعارف وجهه من الصورة . وعنوان الشيء : ما استدلت به مما يظهر على حقيقة هذا الشيء .



ولست أطيل فى القول، فما أنا ببالح من القول بعض صفاته وهيهات أن يصفه على الحقيقة إلا من يعلم لغة الملائكة فينقل إلى لغة الناس كتاب سيئاته .

\*\*\*

قال «الشيخ على»: ذلكم هو «الكونت فيكتور» رجل أملق أموال الناس وزادها فى ماله، وجمع بين سوء حمل الغنى وسوء حمل الجاه، وعرف النعمة ونسى المنعم بها، فكأثما فتح الله عليه من هذه الدنيا ومكن له فى أبوابها وأفشى جاهه ونعمته على ما ابتلاه به فى خاصة نفسه من المحق، ليجعله واحداً من أولئك الذين يخرج للناس من توارىخهم قصصاً فى الأخلاق محكمة السبك فى نسق التأليف الإلهى المعجز الذى يأتى بالحادثة فى موضعها حية وميتة، وينزل الكلمة فى مستقرها من الموعظة ولو أن فيها ذهاب نفس وإدبار نعمة، ويدير المثل والفلك بأسلوب واحد .

وقد أسند هذا الرجل فى حدود السبعين وكادت تحطمه السن، ولا يزال متأبداً<sup>(١)</sup>، ولم يستر سقف بيته امرأة؛ ولا ضحكت الشمس فيه على وجنة طفل يتبسم . وقد نشأ على أن حب المال لا يستقيم إلا ببغض النساء، لأنه أكثر ما يجمع لهن وأكثر ما ينفق عليهن، ولا يرى المرأة إلا أنها «ثورة مالية»، و«سوق فى البيت» و«أزمة يحتال الرجل للخلاص منها بالوقوع فيها» . . . ويقول إنها

(١) يقال: تأبد: إذا ضالت عزبته وقل أربه فى النساء، ويقال: حطمته السن .

إذا أبلاه الهرم .



منذ أكلت من الشجرة الملعونة فى السماء جعلت الرجل شجرتها  
الملعونة فى الأرض ، فهو ما عاش ينبت وينمو وهى ما عاشت  
تحصد وتأكل . . . وقال مرة : إن الرجل لا يزال عقلاً حتى يتزوج ،  
فإذا هو فعل فقد صار من زوجه وأولاده سلسلة بطون . . . فقيل  
له : ولم لا يكون يومئذ من زوجته وأولاده سلسلة عقول؟ قال :  
إلى أن يصبح أطفاله القدماء رجالاً يكون هو قد صار طفلهم  
القديم! . . .

وجاء يوماً مسار يساومه فى أرض له وجعل يراوغه ويترقى إلى  
خديعته بما أوتى السماصرة من خبث ودهاء ، ويقبل به مرة ويدبر به  
مرة ، والكونت فى كل ذلك يعبث وينمى له<sup>(١)</sup> ، ثم صرفه على  
طمع كاليأس ، فلما ذهب مدبراً قال : ويحى ! لو أن هذا السمسار  
كان امرأة جميلة إذن لأدارنى فى يده كما يرقص الدينار على  
الظفر ، فالحمد لله إذ خلق النساء على نظام رحيم فجعل فى هذا  
الشر المحتوم موضعاً للهرب . . .

ولما بلغ الخمسين -بعافية من الله- قال : أحسبني لو كنت  
متزوجاً يوماً فإن امرأتى فى هذه الساعة تلتقم ثدى أمها . . .  
فسأنتظر حتى تصلح لى ! فأجابه بعضهم : وحتى تصلح لها  
أيضاً! . . .

وتواصفوا عنده الجمال مرة وأفاضوا فى حديث النساء والنعمة  
بهن -وقد تعالم ذلك البغض منه- فلما أضجروه قال : حسبكم يا  
(١) يتركه فى قليل الخطأ حتى يبلغ أقصى الخطأ.





قوم، ما أراكم إلا تخلقون إفكاً إن هذه المرأة فى حقيقتها غير تلك المرأة فى وهم الرجل؛ فهى هى حتى يبعث عليها وهمه ويصبغها بألوان نفسه وتستضىء به فكأنها منه أمام الفانوس السحرى! . . . إن المرأة خصم عنيد لا يقتل بالغضب ولكن يقتل بالضحك، وشر ما فيها أنها إن لم يكن منها قتل فليس معها حياة<sup>(١)</sup>.

تقولون إن الرجل محتاج إلى المرأة! فقد كان ذلك أيام كانت المرأة كأنها فى عملها للرجل رجل آخر . . . فتلك حاجة اليد إلى اليد، وحاجة الظهير إلى الظهير، ولهى مناقلة طبيعية فى الجنسين بين قوة تحتاج إلى ضعف يخفف من سورتها، وبين ضعف يحتاج إلى قوة تشد منه؛ فلو كان العالم كله رجلاً؛ إذن لطالت أنيابهم كثيراً ولما وجد على الأرض من يخترع مقصاً للأظافر.

أنا لست أنكر أن المرأة شىء طبيعى، وماهى بهولة من الهول<sup>(٢)</sup> ولا مسخ من المسوخ، ولا أنا أسف على خروج آدم من الجنة بذنبها؛ فإنى رجل اقتصادى، ولقد كان من هذا الذنب رأس مال كبير، فإياكم وإياى، لا تظنوا أنى أكابر أو أمارى، ولا تحسبونى جلقاً يكره الجمال ويريد أن يكون للمرأة بديلاً من رأسها النحيف المكلل رأس جاموسة . . . وبدلاً من يدها الرخصة الناعمة ظلّف بقرة<sup>(٣)</sup> . . . حسبكم يا قوم - حسبكم الله - لا أطيق هذا

(١) يريد بالتى لم يكن منها قتل: المرأة لا تكون جميلة وفاتنة، فإذا هى لم تكن جميلة لم تطلب معها الحياة فى رأيه.

(٢) الهولة: كل ما يفزع به الصبيان.

(٣) انظر كتابنا «السحاب الأحمر».



العبث بي ، ولكنى أسمعكم تقولون المرأة وتصفون المرأة ولا أرى المرأة نفسها كما تحدثون وتصفون ، بل أرى مخلوقة غريبة الأطوار فى هذه المدينة ، وأرى خرقاء إن لم يكن معها الإفلاس فلا أقل من أن يكون معها الندم أو الغيظ أو السخط ، وربما كانت بلاء ماحقاً يزف إلى الرجل يوم زواجه باحتفال . . . يخيل إليها من الفكر فى المال أن الرجل هو مال أيضاً ، وتريد أن تتزوج ، ولماذا؟ لأن المحراث لا يلتصق نصله إلا بعد أن يجدوا له الثور . . .

امرأة متأنقة لا تريد إلا أن تطلع الشمس كل يوم على زى جميل ليكون لزوجها كل يوم هم جميل ، ثم هى أحسن ما تكون حين تخرج من بيتها كأن بيتها منخل لا يمسك منها إلا الحثالة! . . .

إننا يا قوم لقاء المرأة لا تلقاء معجزة من معجزات الأنبياء ، فنحن نستطيع أن نقول هذا خطأ فيها وهذا صواب منها ، ولكنها على أى أحوالها لا تريد أن تكون معها أبداً إلا على حالة واحدة؛ تريد أن تشبه نفسها ، لأنها لا ترى أكمل من نفسها؛ أما الرجل فهو إذا رأى فيها نقصاً فذلك عندها لأن عينه عين ، ورجل تكاد أهدابها تكون من شعر اللحي والشوارب<sup>(١)</sup> . . . فمن ههنا لا يرى الخبيث تلك الحسنات النسائية التى تترقرق من المرأة فى كل شىء صافية جميلة كنور القمر .

(١) مبالغة فى خشونة الرجال ، لأن اللحي والشوارب من خصائصهم ، فكأن العين التى هى من أسرار الجمال فى الجنسين هى فى الرجل أيضاً خشنة .



ترى هذه المرأة أن كل حسن في أعمالها لا يكون إلا أحسن شيء لأنها حسناء؛ ولكنها لا تقر أبداً أن كل قبيح في أعمالها ينبغى أن يكون أقبح شيء، ولماذا؟ لأنها حسناء أيضاً! . . .

هذه المرأة الجميلة قد ظنت عند نفسها أنها شيء مقدس، ولذلك لا تريد أن تعمل عملاً، كبقرة البراهمة، فيا ليت الرجل كان شيئاً مقدساً أيضاً كعجل المصريين القدماء! . . . ولكن البقرة المقدسة في المرأة لا تعرف العجل المقدس في الرجل! . . .

يا هؤلاء، إنما الرجل مخلوق قوى، ولكن معظم قوته منصرف إلى حواسه؛ فمن ثم كان في يد المرأة ضعيفاً، لأنها على ضعفها ينصرف ما فيها من القوة إلى عواطفها، فلا يلتقى الخصمان إلا كانت الهزيمة على الرجل، وقد كان لولا سفاه رأيه في منظر عن هذا ومستمع<sup>(١)</sup>، فما رأيت قط رجلاً يهوى امرأة إلا اعتد سلطانه في أنه يشعر بسلطانها عليه، وكان رضاه في أنها راضية عنه؛ فهكذا هكذا.

جعل الرجل حاجته الكبرى في المرأة، وبالغ في توهم هذه الحاجة، وافتن في تصويرها ألواناً وضروباً، فجعلت المرأة حاجته إليها سبب كل حاجة لها، وبالغت في الطلب، واحتكمت فيما تطلب، وانصاع الرجل في يدها كالبهيمة السائمة، وجعله التمدن الفاسد في رأيها كآلة الساعة: علامة ضبطها وإتقانها «أن لا تقدم ولا تؤخر»! . . . وأن تعجب فاعجب أن هذا الرجل نفسه إذا هو كبحها مرة عن حاجة تطلبها، أرضاها بحاجة أخرى لم تطلبها،

(١) المراد: بعيداً عنه.



فكان هذا المسكين إذا تعبد لها يأبى إلا أن يكون عبداً بشهود وأدلة . . . وتحسب المرأة اليوم أنها غير المرأة من قبل ؛ وغير ما كانت حالها، كأنها رقى فى التاريخ، فقد غيرت نفسها بالفنون والعلوم والأزياء، وبهذا التحكم الباطل وبهذه الدعوى الفارغة، وأنا أول المؤمنين أنها غيرت نفسها ولكن هل غيرتهما الطبيعة<sup>(١)</sup>؟

أيها السادة، إن كلمة «هات»، وكلمة «خذ»، لولا كلتاهما لخربت الدنيا وتقاصرت الأمور والأحوال، وكل عمل وكل عامل يتركب منهما، فالدنيا كلمتان: «هات، وخذ»، والحياة كلمتان: «هات وخذ»؛ والمرأة التى تصفونها كلمتان أيضاً ولكنهما: «هات وهات» . . .

قال «الشيخ على»: ومر هذا الكونت فى فلسفته يمضغها مضغ الماء وربما أصاب شيئاً، ولكن ماذا تنفع كلمة الحق يراد بها الباطل؟ وهذا رجل يتكلم كأنه ابن شجرة لا ابن امرأة . . . ! على أن من تعلق شيئاً من أمور الحياة وكل إليه؛ وهو بعد لم يعرف غير المال يجمعه ويدخره، وقد خلقه الله رجلاً مالياً ويسره لما خلق له؛ وكثيراً ما رأى وجهه فى المرأة فكان يعجبه من منخريه أنهما فى تفرطحهما «كحافرى حصان الجنيه الإنجليزى»! . . .

ولما استوفى عمر السبعين وأصبح فى يبسه وموته كأنه جذر قرن من الزمن، خرج فى عيد مولده إلى سواد المدينة<sup>(٢)</sup> منحدرًا إلى

(١) انظر فى كتاب (السحاب الأحمر) رأينا فى مثل هذا من مثل هذه.

(٢) ريفها وما حولها من القرى.





قرية يملكها، وانطلق يجتلي مناظر الطبيعة، فكان لا يرى في السائمة والطيور والنبات والأزهار إلا شباباً وطفولة، وكان وحده منظر الهرم المستमित في هذه الطبيعة كلها، وأعجبته شجرة قائمة على مسيل الماء، وأعجبه أن يتفياً ظلها وقد تخفى بروحه المتعبة بردها ونسيمها، فانطرح يتشاءب هنيهة وأحب أن يسافر إلى شبابه البعيد على مطية النور، فكبس رأسه على ذراعه فإذا هو نائم كأنما جرع السم فخمده من فوره . . .

ورأى فيما يرى النائم كأن الأرض ترقصه على أعشابها لتمسح عن أعضائه التعب، ثم أبصر السماء في مثل تحاسين الطاووس من ألوانها وأصباغها كأنما أشرف على الأرض فجر يوم من أيام الجنة، ثم نظر فإذا ضوء رطب يتندى وقد تفرق فأصاب شفثيه الذابلتين، ولمح على إثره وجه حسناء كأنها فلقة القمر، فكان ذلك الضوء قبلتها وابتسامتها، وكان على قلبه «برداً وسلاماً» فنصب لها يديه يتناولها فإذا هي تتخطى الغمام هابطة إليه، وإذا هي على الأرض نحوه مقبلة، وإذا هي أمامه ضاحكة، وإذا هي ملء صدره وذراعيه، فازتجف جسمه رجفة شديدة كأن فيها شوق سبعين سنة من الهجر، وما لبثت عقدة أجفانه أن انحلت فنظر فإذا يد فتاة قروية ناعمة تهزه برفق! . . .

فانتفض الكونت كأنما نشط من عقال ولما تصح عيناه من سكرة الحلم فكان يخيل إليه أنه يرى جمال السماء والأرض معاً في طلعة هذه الفتاة وعلى غرتها، ثم كشف لها عن رأس كفروة الأرنب البيضاء، وانحنى متأدباً وقال بلطف: أشكرك يا سيدتى!



أما هي فابتسمت له وقام في نفسها أنها هي ردت عليه روجه؛  
وأنها لو لم تنبهه لما انتبه آخر الدهر، كأنما حسبته ميتاً وظهر هذا  
الفكر في ابتسامتها فأكسبها شيئاً من قوة روحها، وجعل لشفيتها  
الحمر اوين جمالاً كجمال الشفق إذا فتر عن نور الفجر.

وتأملها الرجل بمبلغ ما في نفسه من لذة الحكم وما في صدره من  
ضجعة تلك الحورية التي تلوث عليه وتقلب فيه «وبعث عليها وهمه  
وصبغها بألوان واستضاءت به، فكأنها منه أمام الفانوس  
السحري! . . .» وما خلق الله لذة أهناً للنفس من لذة الأحلام، فكأنما  
ترى فيها النفس شيئاً من تحقيق المستحيل، وإن في أعقاب هذه اللذة  
بعد اليقظة ما يشعر المرء بالأمانى كيف جاءت وكيف ذهبت، فكأنما  
كان في حياة أخرى، وكان نفسه تتمسك بهذه الحياة ولا تريد أن  
تسلمها، فتكون ذكرى الحلم أروح للنفس من الحلم نفسه على  
الحقيقة، لأنها نتاج ما بين لذة لم تكن شيئاً ولذة صارت شيئاً.

وثبتت صورة الفتاة في عينه على ما اشتهى، وكانت زهراء  
اللون، حوراء العينين، ساجية الطرف، أسيلة الخد، باسمة الثغر،  
حسنة التكوين كأنها ريحانة ترف رفيفاً، وتكاد من فرط رقتها  
تتكلم ابتساماً حتى لا يحسب من رآها أن الشمس طلعت يوماً على  
أبدع من ثغرها واللؤلؤ، ولا أحسن من خدها والورد، وكان  
الطبيعة يعتربها أحياناً من سوء الحرص وسوء الخوف وسوء الحيلة  
بعض ما يعترى الشحيح الذي يخبى أنفس ذخائره في أخس  
الأمكنة وأقبحها منظرًا وفيما لا حفل به من الأداة والمتاع. فكانت



«لويز» على ما وصفنا من الجمال والظرف ولم تكن مع ذلك إلا قروية!

أما صاحبها فما أشبهه بعنق النسر: شيخ مضعوف، كالعرق المنزوف والعظم الملفوف؛ ممسوح العضدين<sup>(١)</sup>، ناسل الفخذين، كأنما يتوكأ منها على عصوين... غير أن له عيناً يتوقد فصها ويستنفذ الناس طرفها<sup>(٢)</sup> فلا يملك من تقع عليه أن يضطرب؛ وكذلك اضطربت الفتاة، وما كاد الرجل يلح اضطرابها حتى طبع الله على بصيرته فحسب ذلك معنى من الغزل، وانطلق وراء خياله يمر به أمال الشباب الفانية، وكان لحظ الفتاة ينساب في عروقه دمماً يغلى؛ فحسب أن جسمه قد ثاب إليه<sup>(٣)</sup>، وأنه بعث خلقاً جديداً لهذا الحب الجديد.

... وبيالغ في التطرف ويجلس قريباً منها يستنبثها وهي تطرف له من أخبارها<sup>(٤)</sup>؛ فعلم من روايتها أنها شريفة النسب خالصة العرق، وقد نبا بها المنزل وانحط الدهر على أهلها فهي ذاهبة إلى المدينة تلتمس حياة التقوى في دير العابدات... وعلمت هي من رؤيته أن هذا الموت المائل أمامها حياة، وأنه لا مذهب لها من رواه إذا هي أفلتته إلا مذهب القدر المجهول؛ ورأته كأنما يتشرب لفظها ولا يسمعه، وأبصرت هواها في حماليق عينيه، فجعلت حيناً تبسم

(١) ليس عليهما لحم، وكذلك ما بعده.

(٢) إذا رأوها أرددوا هيبة.

(٣) رجع إليه بعد الهزال مما أثر في أعصابه ودمه.

(٤) تذكر له طرفاً منها وتخفى عنه ما بقى مما لا تحب أن يظهر عليه.



له وتلحظه وحيناً تلحظه وتبسم له ، وما تلفظ من أنه في بث حزنها إلا أحس المسكين أنها نقرة على أوتار قلبه ، ولعل الإنسان لا يمكنه أن يحب إلا إذا هيأت له الطبيعة مجلس الحس على ما يشتهي وعلى ما هو مذهب الحب في نفسه!

وقد مذعت له الفتاة من خبرها<sup>(١)</sup> ، وكتمت عنه أنها طريذة منبوذة استزلها فتى من عشيرتها على أن يتحللها وكان منها مقعد فؤادها زمناً ، ثم طوح بها عاره وغدره ، ولؤمه جميعاً ، فخرجت هائمة على وجهها ولفظها قومها كما تطرح الثمرة إذا دب فيها الفساد من عبث الطير!

قال «الشيخ على» : وانقلب الاثنان كلاهما صيد وصائد : أما هي فأصابت رجلاً مجنوناً بها يحبها حب الجد والأب والزوج والعشيق ، فإن ثاب إليه عقله من جهة بقى مجنوناً من ثلاث جهات ؛ وحسبت أن الموت مصبحه أو ممسيه فهو همها عشية أو ضحاها . ولقد كانت من الضائقة والعوز وشدة الاختلال بحيث لو عهد إليها أن تغسل الزنجى حتى يبيض لقاء درهمين لطمعت فيهما . . . ! وأما هو فقد ظفر في زعمه بالمرأة الطبيعية التي نبتت مع الأزهار ، وطلعت في سماء الحياة مطلع ضوء النهار ؛ وحسب أن هذه الفتاة التي تناهز العشرين إنما هي زيادة عشرين سنة في عمره ينتهبها من القدر انتهاباً ويقضى بها دين الحب طفولة وشباباً . ولست أدري كيف عزب العقل عنه ، ولا كيف خذله رأيه ، ولا

(١) ذكرت له قطعة منها دون سائرها .





كيف وهى ركن فلسفته وكان من قبل وثيقاً وكيف أحب منذ الساعة وقد كان يتصاون عن النساء ويحسب أن بغضهن عقد لا يحله إلا من يحل عقدة نفسه! . . .

ولكن الحب يا بنى لا يكون عجيبيًا بلا شىء يعجب منه ، وكثيراً ما يتملأ الرجل بغضاً ليحب بعد ذلك بمقدار ما أبغض<sup>(١)</sup> ، فمثلته كمثل من يبحث عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التى لا تؤدى إليه ، فمتى أصابه كانت قوة البرهان بطريقة استخراجة العجيبة أشد منها فى البرهان نفسه .

وهى الأرواح ما يزال بعضها يتسلط على بعض ، وما إن يزال فى كل روح معنى هو الوسيلة إلى هذا التسلط ومنه مساعه ومأتاه ؛ فلو قلت إن فى مسلاخ ذلك الرجل معنى الحمار لما كان فى الفتاة إلا معنى العصا ؛ وكذلك انطلقت وهى تسوقه فى طرق مصائبه ، وعند العصا تفرغ حيلة الحمار ولو كان الحمار أيباً .

### فى الحب

من هذه الهيفاء التى تستميل ولا تميل ، وقد استبدت بالجمال فلا يرى فى غيرها شىء جميل ؛ طالعة كالضحى فكل نجمة من ضوئها كاسفة ، لاهية كالنسيم وفى كل قلب من حبها عاصفة ، وقد عبدها العشاق باطلاً كما يعبد المجوس الشمس ، وتمنوا فى دلاها المحال كما يتمنى المرء من أمس ، وكتب عليهم هواها المحتوم : «جند ما هنالك مهزوم»!

(١) انظر فلسفة الحب والبغض فى «رسائل الأحران» و«السحاب الأحمر» .



وكم تمنوا لو أن لين أعطافها، يتعدى إلى انعطافها؛ ولو أن بعض ابتسامها، يشرق على ظلمات اليأس من غرامها؛ وهى تقتل منهم برضاها وغضبها على السواء، كأن حبها الموت: متى قضى جاء به الداء وجاء به الدواء!

### فى الحفلات

ومن هذه الطالعة فى غلائلها، المعروفة فى الحسن بدلائلها؛ المشرقة كالقدر فى ظلمة الحلك، الضاحية كالشمس فى قبة الفلك، تعترف بالهوى فى أحاطها، وتنكره فى أفاضها وتقبل بعينها سائلة عما بين جنبيك، وتلتفت بجيدها مائلة عن جواب عينيك؛ وقد حسرت عن زنديها، ووضعت رمزاً للحب تلك الوردة على نهديها، فلاحت للمحبين كأنها روح القبلات من خديها؟

### فى الرقص

ومن هذه الزهراء كالنار المشبوبة، الحسناء كالدمية<sup>(١)</sup> المنصوبة؛ المشرفة فى زينتها كغرة الدينار، اللائحة فى ميناء الدموع كما يلوح المنار؛ وقد شف قلبها عن الجوى كما يشف الزجاج، وتدافعت من طرب الهوى كما تتدافع الأمواج؛ وحتى ترقص على حركات القلوب فى الضلوع وتسترسل فى سهولة كأنها جسم خلق من الدموع، والأبصار قائمة على قوامها، والنفوس حائمة منها على حمامها، وما هى فى عين المحب إلا خطرات الطيف، أو رقة

(١) التمثال الجميل.

نسمات الصيف، ولا رقصها إلا معركة في الحب قام فيها اللحظ  
مقام السيف؟

### في الموسيقى

ومن هذه الباسمة كالأزهار، الساجعة كالأطيّار، التاركة  
عشاقها كالشمس بين طرفي الليل والنهار، القائمة كالكأس في  
اليد، الناعمة كالحمرة في الخد. وهي تحيي بالصوت لأنه يخرج من  
صدرها، وتسكر باللفظ لأنه يمر من ثغرها ويكاد يخلق من سحر  
القلب المفتون، ومن حركات أناملها العقل المجنون، إذا صدحت  
فحمامة! وإذا رقصت فغمامة، وإذا أرسلت من يدها (صيحة)  
الأوتار أقامت للطرب (القيامة)؟

\*\*\*

تلك هي درة الصدف المطروحة على ساحل الموت وهي حمامة  
ذلك القفص البالي المصنوع من العظام وهي خطيبة الكونت  
فيكتور...!

تلك هي «لويز» القروية الساذجة، كانت نبتة في الطين،  
فأصبحت زهرة في وعاء ثمين، ولأن تكون نبتة مهملة وتنمو، خير  
من أن تكون زهرة مرعية وتجف.

ولقد رأى الكونت -أخزاه الله- أن أحسن ما يكون الاستمتاع  
بالجمال حين يكون الجمال فناً وفتنة، فأما الفتنة ففي عيني لويز  
وجمال تكوينها، وأما الفن فلا سبيل إليه من هناك ولا من فلسفته،



وليس إلا أن يبسط يده كل البسط حتى تنبت له تلك الزهرة من أغصان الذهب والجوهر؛ فأنفق واتسع في الإنفاق، وجعل آمال شيخوخته كلها مقترحات في زينة الفتاة؛ فبرعت البراعة كلها في الرقص والموسيقى وأحسنت من الفن النسائي في أساليب الظرف والجمال والزخرف على جسمها، ما ترك هذا الهرم المتصابي المفتون يفاخر الناس كافة بأنها خارجة من قريحته .

وأعجب ما في أمره أنه على كثير ما أنفق وطائل ما بذل، ولم يكن يرى أنه أنفق على لوز ما لا بد منه لمثل لوز . . . ؛ وهو منذ أصبحت في كنفه، استبدل من الحرص على المال بالحرص على الحياة، وعرف أنه لا بد في الحب من وسيلة، وأن قلب المرأة ليس في يد أحد ولا في يد المرأة نفسها، بل هو يحتكم فيما يختار، ويختار على ما يحتكم؛ وأنه ليس أشد عنفاً من هذا القلب، فهو إن لم يحى قتل: يحب المرأة عاشق غير محبوب منها، ويريد مراغمتها على حبه فيقتله قلبها لوعة وضنى بما يطوع لها من صده أو بغضه؛ وتحب المرأة ثم يمنعها قومها ويرغمونها على غير من تحب، فلا يقتلها إلا قلبها!

وإن (فكتور) ليعرف أنه فارغ الخلقة . . . من وسائل الحب كلها، ويعرف أنه في أحض أنواع الهوى لا يعدل أكثر مما تعدل قشرة الليمونة المعتصرة، فكيف به في الثمر الحلو، وكيف به في حب لوز! لم يبق إذن إلا أن «يخرج الوسيلة من يده»، والمال أضعف الوسائل في الحب الصحيح وإن كان أقواها في الحب المكذوب،





على أنه لا يجعله قوياً من ضعف إلا أن يظل يمد بعضه بعضاً، فإذا انفضت اليد أو أمسكت فلأن يقبض المحب على الريح أيسر من أن يضع يده على ظبية شاردة . . .

ومن أجل ذلك توسع الكونت البذل حتى كأنه كيس مخروق . ولم يعرف لها طلباً إلا بلغ فيه رضاها وحسب أن في رضاها محبتها . فكان يأتي بالحاجة التي تطلبها والحاجة التي لم تطلبها، ويجعل كل شيء شيئين، «وأبى إذ تعبد لها إلا أن يكون عبداً بشهود وأدلة» .

وبقيت «لويز» تتربص به الأجل، فكانت له كحرف التسويف؛ ولا تزال تدافعه عن نفسها؛ وتروضه على الصبر، وتمنيه أنها تستتم فنون الجمال من أجله، وأن هذا القمر متى تم فسيدخل معه في المحاق . . لا محالة . وتظن باطلاً أنه لم يبق منه إلا كما بقي من ذنب الوزغة<sup>(١)</sup> تضرب به يميناً وشمالاً ثم تموت؛ بيد أن الموت لم يستنقذها منه، وإن كان يرأف بها أحياناً وتدخله الرقة عليها فينيب عنه (الروماتزم)<sup>(٢)</sup> ليريحها بضعة أيام! . . .

وكان الرجل يخشى غضبها ويطمع في رضاها فكان يستعين ببعضه على بعضه، ويعلم أنها ترى الصبر أحسن ما فيه فيترك أقبح

(١) هي دويبة معروفة، وهي وسام أبرص جنس واحد، ولكن سام أبرص كباره، وهذا الأخير هو ما يسميه العامة «البرص» وإذا قتلت الوزغة حركت ذنبها قليلاً ثم ماتت .

(٢) هو في العربية الرثية (بفتح الراء وسكون الشاء) ولكننا أثرنا هذه اللفظة لوضوحها .



ما فيه جانباً ويصبر؛ فلما استوت فنتتها ولم يبق من باطلها ما تتعلل به أو تمتلق به علة، ورآها قد أخذت زخرفها وازينت واهتزت ووريت، صار منها كحرف الجر<sup>(١)</sup> لا يريد إلا أن يكون الجار والمجرور (متعلقين). . . وفرغ صبره واستيقن أن له آخرة وأن صاحبه لا تزال في أول دلالها، وكانت تحسب الدهر نائماً عنها فإذا عينه قد انتبهت في أجنان هذا الشيخ فنظر إليها نظرة لا صواب فيها. . .

وباغتها الرجل فخيرها بين أمرين خيرهما شر: إما طريق إلى صدره وإما طريقة من غدره؛ ومع الأولى الوصية بالمال. ومع الأخرى أن تذهب في الحال!

وكذلك غلبها على أمرها وانتصر في معركة كان لا بد أن يخسر فيها أحدهما صريعاً، وقد استحال أن يكون المغلوب غيرها، وإن عثرة تنتهض منها بعد حين خير من عثرة لا تستقيها؛ ورأت الظبية أن لا مناص، ف وقعت في يد القناص. . .

### يا ليل

الليل منسدل كأنه حجاب مضروب بين الحياة والأحياء، مجتمع الظلمة كأنما هي ذنوب الناس في نهارهم جعلت الملائكة ترسلها إلى السماء، وتغشى الأرض معنى من خشية الله فنفرت له دموع المساكين، وأقبلت عليه أنفاس المحزونين، وبرزت له في آثار الظلم دعوات المظلومين، وقد ارتفع إلى الله صوت يتقطع زفرات ويتلهب حسرات، ويسل من الدمع قطرات، وكان صوت «لويز» وهي تزفر

(١) سبق أنها كانت له كحرف التسويف. . .



الزفرة تكاد تنشق لها ، وترسل الأنة تكاد تدفن فيها ، وما بها الغيظ فتسكته عنها ، ولا بها الحزن فتمسحه بدمعها ، ولا بها الهم ولا بها الغضب ، ولا أمر مما يتواصفه أهل البلاء ويثونه في شكوى أحزانهم وإنما ذلك شيء إن يكن من الحياة فليس بالحياة ، وإن يكن من الموت فليس بالموت ولعله منازعة الحياة والموت على قلبها!

ما بك يا لويز وقد بت زوج الكونت الذهبي وهو عما قليل أخذ ما أمامه ، وتارك ما وراءه وما بك أيتها المسكينة وقد كنت فقيرة بائسة لا تملكين قوت يوم فقبضت على أعناق سبعين سنة تجمع المال وتكتره ، وما بك - عمرك الله - وقد خرجت من الكوخ إلى القصر ، وصعدت من العريش إلى العرش ، وإن كانت حواء قد طردت من الجنة فقد طردت أنت إلى الجنة . . . وفي الجنة قوم يقادون إليها «بالسلاسل» . . . !

قالت المرأة وهي تناجى ربها : ماذا قضيت عليّ؟ لقد وضعت الدنيا في راحتي وكأن مملكة أمالي مرسومة في كفي ، ولكن أي فرق بيني وبين تمثال من الذهب الخالص في منزل هذا الرجل! لقد رددتني من فقري وذلتني إلى رجل رددته أسفل سافلين<sup>(١)</sup> فما يريني الدنيا التي أعرف أنها الدنيا ولكنه يريني الآخرة! . . .

يا ويلتا! إن لم يخجل الرجل من شيء أفلا يخجل من أنه لا يخجل؟ أباي هذا الموت لشقائي إلا أن يتخذني زوجته ، وكنت خليفة أن أجعله أسعد رجل في الدنيا لو اتخذني ابنته!

(١) أي بلغ الغاية من الهرم أو الضلال أو ما إليها.



اللهم إنك رزقتني العافية في كل جوارحي ولم تصبني إلا في القلب!

يا ويلتا! ما أنا إلا لعبة في يد هذا الطفل ، لا يلذه شيء أكثر من تحطيمها في طرق لذته ، وقد خلقت يا رب من يحطم القلوب الصحيحة ، ولم تخلق من يستطيع أن يجبر القلوب المكسورة ، وأنه ليس فيما برأت وذرات مخلوق أشد تعباً ممن يفتش في قلبه عما ليس في قلبه ، وهل في الممكنات أو في أشباه الممكنات أن أحد في ناحية من قلبي حب هذا الزوج؟

لقد عرف الناس أن قلب المرأة كثير العبث ، وهذا الذي يسمونه دلالاً ويحسبونه في الحب أنما هو شيء من عبثه ، وأن هذا القلب إنما خلق ليحب ، ولذلك أعطى قوة يخلق بها الحب من العدم ، غير أنهم جهلوا فيما يجهلون من أسرار المرأة أن ذلك القلب إنما جاءه العبث بالرجال من أنه لا يطيق أن يعبث به أحد من الرجال ، ومتى وجد من هؤلاء من يريده بنادرتة ويجعله من هزله معرض السخرية وموضع العبث ، لم يكن في الدنيا أحد أبغض إلى المرأة منه وإن كانت الدنيا كلها في طلعتة ، وإن كان مخلوقاً من رونق الشمس .

أليس النساء يحبن حتى الكلاب ويرفهنها ويغالين بها وينزلنها منزلة الولد في الحب والانعطاف والتوجع والتحزن؟ فسبحانك اللهم! إن هذا القلب الذي يسع حب الكلب يضيق عن حب كثير من الرجال إذ يحبون المرأة حباً ليس فيه شيء من روحها - حب





الزانية أو الاستمتاع أو الخدمة - فكأنهم بذلك يبغضونها بغضاً فيه كل روحها.

يا ويلتنا! أعجزت أن أجد في هذه العاجلة نفساً أرى فيها نفسى؟ وهل حرمت على كلمة الحب فلا يفيض بها صدرى ولا ينطلق بها لسانى؟ وهل خلقت لؤلؤة لأكون في عقد من الحصى، ورسمنى الله بهذا الجمال ليعذبنى بهذا القبح؟ وما عسى أن ترد على هذه النعمة مادامت لا أجد لها سبيلاً إلى قلبى، وما دام هذا القلب لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يعامل بالمال؟

ضل ضلالكم أيها الناس إذ تحسبون النعمة حق النعمة فى الغنى وحده، وتمضون الأمر على ما تخيلتم من ذلك، ولا تدرون أن الله ينتقم بالغنى أشد مما ينتقم بالفقر، فلو أنى ابتليت بالمصيبة وأنا امرأة حامله لا حتملتها وقلت خمول عرفته فما يبلغ بى ولا يزيدنى بنفسى ولا بنفسه معرفة، ومن رحمة الله بالفقراء الحاملين أن فى كل بلاء يعترهم ما يعينهم على حمل بلاء أشد منه، ولكن الضربة اليوم لا تصدع الصدقة بل تسحق اللؤلؤ، فاللهم لا قوة إلا بك!

وما أشبهنى إذ قتل هواى هذا الكونت، بزنجى من زنوج أمريكا اغتال سيداً من البيض، فلم يجدوا له عذاباً إلا أن يشدوا قتيله فى وثاقه، وتركوه يبلى تحت عينيه ويسيل جوفه تحت أنفه ويتناثر لحمه على صدره! . . . وهكذا يقتله القتل وحده بالرعب والجنون قتلة لا وصف لها فى لغة الحياة.



ولقد كانت بائسة يطير بها القضاء ويقع فلا تزال دهرها تحت جناح مخفوض من رحمة الله أو فوق جناح منشور من الأمل فى رحمته؛ فلما وجدت الغنى واستشرفت للسعادة، شغلنى الله بهم نفسى، فشغلتنى نفسى عن النعمة فلا تزيدنى النعمة إلا همماً! وقد كتب الله على أن يقتلنى بغض هذا الرجل فوهبنى الغنى من يده وحسب الناس أن ذلك لكيما استمتع به وعلم الله أن ذلك لكيما اتصل بقاتلى! فاللهم قد أحيط بى وليس ورائى منفسح، فمن حيثما التفت لا أرى غير ما قضيت على أن أرى، وهذا امتحان أينما أتوجه فى الحياة لا تقابلنى الحياة إلا بمسألة من مسائله المعضلة!

إن كلمات القضاء لا تقرأ لأنه لا ينزل بالناس إلا معانيها، على أن الكلمة الأزلية التى يكون معناها هذا الزواج وهذا الزوج لا بد أن تكون جملة كاملة من غضب الله فى السماء، لا يقابلها إلا سيرة كاملة من ازدراء الناس فى الأرض.

\*\*\*

قال «الشيخ على»: ونفرت دموع هذه المرأة تخفف من بأسها، وإنه ليأس أكبر مما تحتمل نفسها من الصبر لو أنه من وجه ذلك الزوج وحده... فكيف به ومع ذلك الوجه شبابها الهالك، وآمالها الضائعة، وغصة من شماتة الناس وازدراؤهم، وبلاء من نعمة سابغة ستقلب فضيحة وسخرية؟

وأها لك أيتها المسكينة! إن مصيبة الأغنياء لتكشف نفسها فهم يحملونها ويحملون آراء الناس فيها، وإن المصيبة لتكون واحدة



ولكنها تترد إليهم من قلوب الشامتين من أعدائهم والمتربصين من حسادهم والمتوجعين من سائر الناس وكأنها مصاحب كثيرة لا تعد .

والمرء لا يأخذ من الله بشرط ولا يعطيه الله على شرط ، فإن كان فى الغنى تلك النعمة ففى الغنى هذا الهم ، وما رأيت أيسر اضطراباً من الماء الراكد قذف بحجر ، إلا الغنى الغافل قذف بمصيبة !

ويحكم أيها الأغنياء ! متى رأيت ثمرة لا تسقط أبداً من غصنها الأخضر وثمرتها تسقط من الغصن ثم ترد إليه فتعلق به وتنضج عليه ، فاعلموا يومئذ أن غناكم هذا نعيم لا رزية فيه ولا مصيبة ، لأن هذا الكون حينئذ يكون فوضى لا نظام له ولا قرار .

\*\*\*

وانصدع الفجر ، وأقبلت الحياة تتنفس من مباسم الأزهار ، وتتغنى بألسن الأطيوار ، والفتاة موجسة أن ترى طلعة شيخها ، وكان هذه الطلعة صبح غير الصبح ، وودت لو وقف الزمن ، فإن لم يمكن فوقوف الأرض ، فإن لم يمكن فوقوف قلب هذا الشيخ ، وخيل إليها أنها ستُقرَف بإثم منكر إذا هو بادرها قلبة الصباح على مثل شفق الشمس من خديها ، وأنها لا ترمى بمسبة أوجع ولا أمض من قوله : حبيبتي ! . . . وانسلخ الليل ، وطارت الأحلام ، وأفصحت الحقيقة ، واستيقظ الكونت . . .



على المائدة

زهرات ناضرة كأغما اختبأت فيها ابتسامة الفجر، عاطرة كأنها رسالة اللقاء بعد الهجر بديعة التتميق تحسبها قصيدة من شعر الألوان، متفتحة للحب وكأنها لكتاب الحب عنوان، متلائمة مصفقة، متلائمة كالشفة على الشفة، قائمة في جلالها وحسنها كأنها في خلقة الجمال آية، وكل زهرة في لونها كأنها لدولة من دول الحسن راية، وقد جلست إليها غادة فتانة كأنها في رقتها روح النسيم وفي نضرة شبابها روح الحديقة، ولاحت الأزهار كأغما هي خيالات جمالات جمالها، وظهرت الغادة كأنها هي الحقيقة.

تلك هي «لويز» في صبيحة عرسها على المائدة وقد أثبتت في كل زهر لحظاً من لحاظها، ولا يشك من رآها في تلك الحال وهي ترتقب ظهور زوجها أنها تنفس على هذه الأزهار شبابها ونضرتها وحسن ملاءمتها، وتحسدها على أن ليس فيها أعواداً من الحطب . . . يفسد نظامها وتنكر بهجتها وتغض من حسنها كما ابتليت هي بزواج من عود . . . (١).

وإنها كذلك، إذا خفق أقدام وضوضاء وموكب وشيء كال موسيقى، فما لفتت جيدها حتى أبصرت الكونت داخلا يتوكأ على خادمين وله نغم مختلف . . . وآهات وأنات، ومع النغم

(١) في المثل «زوج من عود، خير من قعود»، وقد أصابت الكلمة حقاً في هذا الموضع الذي وضعناها فيه.





سعال كقرع الطبل . وكان الروماتزم قد دب في مفاصله تلك الليلة وبات يفتل في عروقه وأعصابه ، ووعكته الحمى واجتمعت إليه علل الشيخوخة كلها تهنئة بالزفاف . . . غير أنه لم ينس مع هذا البلاء كله أن عروسه ترتقبه على المائدة ، فحفزه الشوق وعاوده الصبى فطار إليها بجناحين من خادميه . . .

ولما بلغ ظلها أفلت الخادمين ثم ارتقى عليها يقبلها رياء ومصانعة ، ثم تمسك بها يستند إليها ، ثم انحط إلى يمينها ، وما كادت تناوله قدح اللبن يرتضعه . . . حتى غمره الألم وهاج داؤه ، ففتح فاه وصدحت الموسيقى بنغم مختلف من آهات وأنات ، ومع هذا النغم سعال كقرع الطبل . . .

ورأت «لويز» ذلك فرقصت أحشاؤها . . ! فلم تملك المسكينة أن اقتلعت جسمها من الكرسي وانكفأت هاربة إلى حجرتها ، وانطرحت في غمرة أخرى من الألم ، وبقيت هناك ملقاة يدار بها ، وكانت لم تغتمض في ليلها ، فاصطلح على جسمها هم الليل والنهار .

### فصل خامس في السنة

وزالت هذه الغشية عن الكونت بعد أيام ، كانت العروس فيها من روح الأمل كالمختلعة<sup>(١)</sup> إذا أخذت كتاب طلاقها ، أو الأمة إذا

(١) هي التي تكره الرجل فتخلعه لتتزوج بغيره ، وهذه الكلمة في الأصل يراد بها الطلاق ببدل .



ثم انصرف من لدنها على أن ترصد للسفر أهبتة وأن ينطلقا على جناح غراب<sup>(١)</sup>.

واستقبلت العروس ليلتها وجعلت تقلب وجهها في السماء وترنو إلى النجوم بعينين قد ثبتت في إنسانيهما خيال ذلك الرجل كما يثبت خيال القاتل في عين المقتول<sup>(٢)</sup>، فلم تر في النجوم إلا هرم الدهر وتحجر الأيام وقد استيقنت أن نجمها طامس لا محالة<sup>(٣)</sup> وكأما خرج عن الفلك، وضل في ذلك الحللك!

وما هي خطرة الفكر حتى لاح في مرآة نفسها خيال ذلك الشاب الذي اختلبها أياما بالهوى، وكان لها منه الداء وكان له منها الدواء، وأغواها في عرف الناس ولكنه هو ما ضل وما غوى. وكان هذا الفتى قرويا فحلا، ظريف الهيئة، مستوى القامة! عريض الصدر، تام الخلقة وثيق التركيب قد ارتوت مفاصله واستحکم نسجه، وله مع ذلك خلافة، وفي لسانه دعاية، فما أطلى حديثه وأنداه. وما أحلى خبره إذا كان من الغزل مبتداه.

وقد أحب الفتاة أكثر مما أحبته، ولكنها كانت غريرة لا تتبين منزلة ما بين الحب والاستسلام، وبين ما يعده الرجل وعداً بالفعل وما يراه وعداً بالكلام، ولم تعرف أن هذا الحب سلاح ذو

(١) أي باكراً جداً.

(٢) اكتشفوا أن صورة القاتل تثبت في إنسان عين المقتول حتى ليتمكن علاجها ونقلها بألة التصوير.

(٣) أي ذاب الضوء قدمات وانطفأ فلا حظ لها.



ثم انصرف من لدنها على أن ترصد للسفر أهبتها وأن ينطلقا على جناح غراب<sup>(١)</sup>.

واستقبلت العروس ليلتها وجعلت تقلب وجهها في السماء وترنو إلى النجوم بعينين قد ثبتت في إنسانيهما خيال ذلك الرجل كما يثبت خيال القاتل في عين المقتول<sup>(٢)</sup>، فلم تر في النجوم إلا هرم الدهر وتحجر الأيام وقد استيقنت أن نجمها طامس لا محالة<sup>(٣)</sup> وكأنما خرج عن الفلك، وضل في ذلك الحللك!

وما هي خطرة الفكر حتى لاح في مرآة نفسها خيال ذلك الشاب الذي اختلبها أياما بالهوى، وكان لها منه الداء وكان له منها الدواء، وأغواها في عرف الناس ولكنه هو ما ضل وما غوى. وكان هذا الفتى قرويا فحلا، ظريف الهيئة، مستوى القامة! عريض الصدر، تام الخلقه وثيق التركيب قد ارتوت مفاصله واستحکم نسجه، وله مع ذلك خلابة، وفي لسانه دعاية، فما أطلى حديثه وأنداه. وما أحلى خبره إذا كان من الغزل مبتداه.

وقد أحب الفتاة أكثر مما أحبته، ولكنها كانت غريرة لا تتبين منزلة ما بين الحب والاستسلام، وبين ما يعده الرجل وعداً بالفعل وما يراه وعداً بالكلام، ولم تعرف أن هذا الحب سلاح ذو

(١) أي باكرًا جدًّا.

(٢) اكتشفوا أن صورة القاتل ثبتت في إنسان عين المقتول حتى ليتمكن علاجها ونقلها بألة التصوير.

(٣) أي ذاهب الضوء قد مات وانطفأ فلا حظ لها.



حدين ، فالمرأة تقتل به من ناحية الرجل ، فإن غفلت مرة عن نفسها قتلت هي به أيضا من ناحيتها ، وأن حب الرجل حب مجنون بطبيعته ، فإذا لم يكن حب المرأة عاقلا انقلب كلاهما حيوانا طامس القلب<sup>(١)</sup> لا يبالي ما جنى على نفسه ، وأن الرجل يقاد من رغبته ما دامت أملا في قلبه ، فهو يعد المرأة ما شاءت وشاء لها الهوى ، حتى إذا انقطع هذا الزمام انقطع ما بين لفظ الوعد ومعناه ، فأخذ منها ما أخذ وترك في يدها ما أعطى ، وما عسى أن يكون قد أعطاها إلا آمالاً ومواعيد وغروراً من زخرف القول؟ وكذلك أمر الرجل والمرأة: تحب الفتاة إذا هي أحبت فاستأسرت لصاحبها أنها تبذل في مرضاته أعز ما تملك ، وتنوله خير ما استؤمنت عليه ، وتعطيه ما لا تستعيز منه آخر الدهر ، وأن ذلك أحرى أن يؤدم بينهما<sup>(٢)</sup> ، وأن يكون ميثاقاً للحب غير منقوض ، ويحسب الرجل أنها لم تنله إلا شيئا هينا قريبا المنالة ، هو عندها وعند كل امرأة فإن كان سرى الخلق نبيل النفس رثى لها مما صارت إليه ، وندم كما يندم على الإثم ، ولا يكون همه إلا أن يلتمس المخرج من أمرها ، فإن طارحته حديث الزواج رأى أن من فرطت له حرية أن تفرط فيه ، وبهتها بهذه الكلمة<sup>(٣)</sup> وسلم وقد مات الذي بينهما ، وإن كان لثيم الطبع خسيس النفس شد

(١) لا يعي شيئا .

(٢) المراد المحبة والاتفاق .

(٣) اتهمها في وجهه .



على رقها واتخذ من ضعفها قوة ومن خوفها أمناً حتى إذ ملها تنكر لها ثم أنكرها ، فإن استقضته ما وعد من زواجها رأى أن الزواج قد سبق أوانه . . . فلم تعد تصلح له ولا يصلح لها ، وكلا الرجلين سافل دنىء زمر المروءة<sup>(١)</sup> وإن قال الناس فيهما سرى ولثيم .

فالسحابة تنهل بمائها ، ثم تجمع مرة أخرى فى سمائها ، والزهرة تقطف لحسنها ثم تنبت مرة أخرى فى غصنها ، ولكن العذراء حين تفرط فى خدرها ، وتضع نفسها دون قدرها ، لا تبرح شقية حتى تنزل فى قبرها .

وهكذا لا يزال الرجل فى عتوه وظلمه كالساحل ، ولا تزال المرأة فى ضعفها ولينها كالموجة فلو أن ألف موجة عاتية يصد من الساحل لاستباحهن وما سلبنه مقدار شبر من الرمل ! وما اعترض رجل وامرأة فى خلق العفة ، إلا كانت هى الساقطة وحدها فى الاعتبار ، لأن العفة إنما عرفت بالمرأة من أصل الخلقة ، وإنما يتصاون الرجل تشبهاً وتقليداً ، فإن هو زل مرة وقارف الإثم فقد أخطأ فى التقليد ولم يفقد شيئاً من طبيعته ، ولكن المرأة متى فعلت ذلك فقدت من نفسها وغيرت فى تكوينها وأخطأت فى الأصل الذى بنيت عليه طبيعتها وقامت شرائع الله وهى فيه نظام الأمم فلا جرم كان عقابها على الخطأ عقاباً نفسياً يجمع من شدة الطبيعة إلى عنت

(١) قليل المروءة .



الشرائع إلى قسوة الاجتماع، ولهذا كان شر عيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة بها<sup>(١)</sup>.

قال «الشيخ على»: وانطلقت نفس «لويز» لمسرى خيال حبيبها، وكانت تبغضه دون البغض إذ هو مسعدها ومشقيها، فصارت بعد زواجها تحبه فوق الحب، إذ لا ترى لها مسعداً غير ذكراه، ولا تعرف على ظهر الأرض من أشقاها غير الكونت.

ولما ذكرته انهملت دموعها فجعلت تبكى حتى انحلت سحائب همها، ثم أشرقت كما تصحو السماء في أعقاب المطر، فلو رآها أشعر الناس في ذلك الجمال المشرق الحزين الذى تورده حتى التهب، لوقف عندها وقفة العابد فى المحراب يشعر بالقوة الأزلية ولا يحسن أن يصفها. وأى شاعر تحيط نفسه بهذا الشقاء الذى رفعه جمالها الساحر من بين آلام الأرض وألحقه بذلك الألم المنفصل من السماء الذى لم تشهده الأرض إلا مرة واحدة يوم جلست حواء تبكى أول بكائها بعد خروجها من الجنة.

ويا لله ما أروع الجمال حين يتألم ويحزن ويحضر الجميلة همها! إن مثل من يحاول أن يصف دموع هذه الجميلة وحسراتها ووصفاً ناطقاً يتنفس به القلب كمثل من يريد أن يخلق من سحر البيان زلزلة ترجف بها الأرض حين يبالغ فى وصف الزلزلة، وما اللغة إلا

(١) انظر فلسفة هذا الباب فى فصل «الربيطة» من كتابنا «السحاب الأحمر» والربيطة: المرأة تقوم مقام الزوجة (Maitresse).



أداة، فكيف (ويحك) تستعمل هذه الأداة فى صفة قوة تعجز عندها كل وسيلة حتى الشعور الذى أبدع اللغة؟

لقد جمعت المقاييس بين أقطار الأرض، وطوت ما بين الأرض والسماء، وداخلت ما بين أنجم السماء بعضها من بعض، ولكن أية أداة تعين لنا درجة الإحساس بين نفس عاشقة مدنفة تشهد آلام نفس معشوقة، وبين عيني شاعر غزل وثاب الخيال تنظران فى عيني امرأة جميلة باكية، وبين ألم جامد جاف يضطرب فى نفس الرجل، وألم سائل متدفق تضطرب فيه نفس المرأة...؟

إن هذه الأنفس إنما تشعر بمقدار ما فيها من الإحساس لا بمقدار ما فى الحقيقة من مادة الشعور، وكأى من رجل أبله متغفل يدور مع الآلام والأوجاع دوران الغبار فى العاصفة، فإذا رأته توجعت له وداخلتك الرقة عليه وثارَت نفسك من أجله ثورة السخط على هذا الاجتماع الإنسانى وتمر بالرجل ثم تنساه ولكن هناك طفلة، طفلة صغيرة قريبة العهد بالغيب<sup>(١)</sup> قد ضلت بيت أبويها فى المدينة المترامية فمشيت ذليلة ضائعة يتحير الدمع فى عينيها كما تتحير الألفاظ بين شفيتها، وقد ساورها الخوف، وتوثبت نفسها فزعاً لهول ما هى فيه، وجعلت عيناها تتوسلان إلى الناس بالبكاء، ولسانها يتلجلج بألفاظ مرتعدة كأنما ينتفض عليهن قلبها الصغير. وهى فى ذلك لا تبرح تتمثل أبويها فتضطرب اضطراب الفرخ إذا سقط من وكره ولم ينتهض، وترى أن المصيبة قد انحصرت فيها

(١) كناية عن صغر سنها وحادثة عهدتها بالوجوه.



وحدها من دون الناس ، فتبكي بكاء تنشق له ثم تعود إلى التوسل بعينيها الدامعتين وبألفاظها المتلجلجة<sup>(١)</sup> فانظر وأنت أبو مثلها ما عسى أن ينزل بك من الحسرة ويتغشاك من الهم إذا رنت إليك هذه الطفلة من وراء دموعها تسألك أن تدلها على بيت أبيها المائل فى رأسها الصغير ، وهى تحاول بذلة ومسكنة أن تنقله إلى نفسك وتبنيه فيها بألفاظها وإشارتها الضعيفة لتهدى أنت إليه؟

فالمصيبة ليست مصيبة بمادتها ولكن بما يقاتل هذه المادة من نفوسنا ، ومن ثم فهى لا تؤثر فىنا بنفسها ولكن بالكيفية التى تقابلها بها .

قال «الشيخ على» : ثم سكنت «لويز» هنيهة لذكرى أيامها الأولى وهى تعلم أن لا رجعى لها ، فقد استيقنت أن هذا الغنى ضرب بينها وبين الفقر حجاباً ولكنه رفع بينها وبين الشقاء حجاباً آخر كان ذلك الفقر وحده هو الذى يمنعها منه ، وكأن القدر لما اختط لها التعاسة رسم هذه الخطة بقلم من ذهب . . .

واستشرقت نفسها لخاطر غريب ألمَّ بها فأضحكها على ما بها من الهم ، فقد أحضرت خيالها ذلك الحبيب الأول فى شبابه الغض ، وقوته الثائرة ، وفورته العنيفة ، ونشاطه المهزوز ، وإرادته على حب امرأة فى أرذل العمر - هو عمر «الكونت» - يلوح وجهها فى العين كما تلوح القفار ويمتد أنفها بين الوجنتين كأنه حجر فى

(١) انظر فى كتاب (السحاب الأحمر) الفصل الذى عنوانه (الطفل) فإن فيه بقية هذه المعانى ، وقد بنى على طفلين ضللا بيتهما .





أحجار ، ويضحك ثغرها الأورد<sup>(١)</sup> فلا تشك أنه فى تلك الصحراء «غار» ، وقد ثابت عليها الاوجاع والأمراض ، حتى أصبح جسمها بين يدى الموت كالخيوط بين شقى المقراض!

ثم جعلت ذلك الحبيب يتزوج منها لمالها وغناها وقد أصاب عندها ملء أطماعه ذهباً وفضة ، ثم وصلت بين شعلة فؤاده الملتهب هوى وشباباً وبين هذا الجسم الفانى الذى يشبهه حطام اليبس<sup>(٢)</sup> ، ثم أرادته على أن يعتقد أنها «السكره» التى وضعت فى كأس حياته لتحليها ، ثم نظرت لترى ما يكون من أمره وأمرها فى الحب حين لا يكون الحب إلا مراغمة وإكراهاً ، فإذا الحلم قد انهال ، وإذا الوهم قد استحال ، وإذا الشاب لا يحب تلك المرأة ولا فى الخيال ، فجهدت أن تذكر فى تاريخ الناس من يكون قد امتحن بمثل هذه المصيبة وصبر لها كما يصبر من ذات نفسه على آفة أو عاهة أو مثله ، فأبى عليها الواقع أن يخرج لها مثالا واحداً . . .

. . . فكادت ذهنها فى تصور هذه الحال وتقليبها على وجوه مختلفة ، فلم تستقم لها صورة صحيحة ، وثبت عندها أن حب شاب قوى فى الثلاثين لعجوز هالكة<sup>(٣)</sup> سبعين هلكة . . أمر يكاد يكون فى استحالة الجمع ، كطرح السبعين من الثلاثين فى حسب تعدد!

(١) الذى سقطت أسنانه .

(٢) كالتبن ونحوه من يبس النبات .

(٣) كناية عن بلوغها السبعين .



وعجبت أن يستأثر الرجل وحده بهذه الأنفة ويلتمس لنفسه في هذا الباب ما ينكر على المرأة أن تستنكره، كأن هذه المرأة عجماء لا تبالي من صاحبها إلا العلف، ولو انتهى بها إلى التلف، وكان كل امرأة إنما هي اسم على جسم فليس على رجل إلا أن يختار اسماً ثم يثبتته في وثيقة الزواج بعد أن يساوم عليه أو كأن المرأة بلغت من الجفاء وضعف التمييز بحيث لا تأبى أن تتخذ أعواد فرشها من أعواد نعشها، وأن تقيم لها قبراً في البيت وتنظر كل صباح في وجه ميت وإلا فكم من فتاة كالقمر أخفاها نهار المشيب، وكم من عروس للحب زفت إلى غير حبيب، وكم من وجه صبيح يقبله ثغر قبيح وكم من كعاب، سال عليها اللعاب . . . وكم من حسن هو رمزه وكم من قد أهيف كالألف لا يرى إلا شيخاً أعجف كالهزمة .

وهنا انتبهت «لويز» إلى زوجها المتهدم الذي هو همزة القطع، وإلى تصابيه المضحك وحماقته العمياء ووجه الأخرق فانتفضت من الغيظ وكاد بعضها يحطم بعضاً، وجعلت خواطرها تنبض في رأسها كلمح البرق وأخذت تلتمس الوسيلة لرد هذا البلاء عنها أو مدافعة بيد أنها كلما ابتدأت فكراً انتهى بها إلى قولها ما عسى أن أصنع؟!

هي لا تفكر إلا فيما ينبغي أن تصنعه، ولكن الفكر يفضى بها إلى هذا السؤال بعينه، فكأنها من الهم والحيرة منعزلة عن نفسها، وقد نفر منها فكرها وقلبها وحظها ولم يبق معها إلا روحها المعذبة، وهي كذلك بينها وبين زوجها وبين القدر!



ولبثت زمناً لا تجد من رأيها إلا قطعاً وأشلاء، حتى لمحت من نافذة القصر مركبة تدرج فى الطريق، ورات سوط الحوذى يتلقى الأمر منه إلى الجوادين فلا ينزل عليهما إلا انطلقا ملء العنان، كأنما يحاولان الهرب منه ولا يعلمان أنهما يهربان به فرثت المسكينة للبهيمتين، ثم كأنما حشرت لها كل مركبة على الأرض فى صعيد واحد، فلم تذكر أنها رأت قط سائقاً ليس فى يده سوط ما دام بين يديه حيوان . . . !

وظلت واجمة عند هذا الخاطر هنيئة، لأنها ما برحت تتلقى من ضربات القدر وهى تعدو فى الحياة عدواً فيه من السرعة بمقدار ما فى هذه اللذعات من الألم! . . . ثم قالت: ترى أى حيوان فى ملاخ<sup>(١)</sup> هذا الهرم؟ وما كذبت أن قلبت الخاطر على وجهه الآخر، فتناولت السوط واستولت على مركبة الأقدار ولم يبق أمام عينيها إلا سبيل الحياة وظهر الكونت!

وكذلك فاءت من غضبها إلى رضا أقبح من الغضب، ورات أن هذا الشيخ المأفون الذى يتطاول<sup>(٢)</sup> للصبى وقد جاوز السبعين وهلك فى الدهر، ثم لا يستحى أن يجعلها مثلة على أعين الناس، وأن يكون هو مخزية ولا كالمخزيات جدير به أن يجد منها كفاء ما وجدت منه، وجدير بها أن تبدله من شهر العسل شهراً هو أحق به وأهله، وهو على ذلك أقرب الأشياء من العسل لأنه . . . «شهر النحل» . . . !

(١) أى جلد.

(٢) يتكلف حتى يستطيع.



قال «الشيخ على»: هكذا يفسد الرجل المرأة وهو يدري أو لا يدري فهو يبتغيها متاعاً ويريدها ملهاة، ثم لا يقدر فيها غير الطاعة لما ابتغى وأراد كأن الطينة الإلهية التي جبل منها الرجل شديداً متماسكاً بقيت منها بعده هنة ضعيفة فتركت حتى ركت وانسحقت ثم خلقت منها المرأة ذليلة طائعة . . . وإن أقدر خلق الله ليكون معه الدرهم فاضلا عن حاجته فلا يجد ما يمنعه أن يبتاع به الزهرة الناضرة، ولكن العجيب من أمره أنه إذا احتارها لا يلويها بين أصابعه، ولا يدينها من أنفه إلا بعيداً بعيداً وقليلاً قليلاً، بل إنه ليستحى لقذره من طهرها ولنتنه من عطرها، فلا يحملها حتى يتجمل لها، ولا يظهر بها حتى يكون في الجمال أهلها، وما أدري كيف أدبته الطبيعة هذا الأدب مع شبه الجمال، ولا تؤدب مثل ذلك الهرم الأحمق مع الجمال نفسه؟

ويعمد الرجل متى أصاب مالا إلى الطيبات من صنوف الطعام وملذات الشراب فيتضلع ويتملاً، وليس في ذلك من حرج، إذ هو ماله ينمو في باطنه، فإن ربح أو خسر فإنما المضاربة في معدته . . ثم يعمد أقبح خلق الله وجهاً وأظلمهم سنة وأشأمهم طلعة، بذلك المال نفسه إلى أجمل النساء فيرخى عليها أستار بيته<sup>(١)</sup>، ويساهمها قبحة وجمالها، وإنما هي في رأيه بعض الطيبات وصنف شهى من طعام القلب، فتري في أى جهة ينمو هذا المال الذى بذله وتندى به، فإننى لا أرى له نمواً في قلبه ولا في قلب تلك الحسناء؟

(١) كناية عن البناء بها أو احتفظائها.





أما هو فما إن يزال يعرف منها البغض وأما هي فما إن تزال ترى فيه القبح ، وأحسب لو أنفقت ما فى خزائن الأرض كلها على التأليف بين الحسن المبغض وبين القبح المحب ما ألفت ذات بينهما ولا زدت كل واحد إلا من طبعه<sup>(١)</sup> .

وكيف يرى هذا الدميم أن مرآة بيته التى اشتراها وبذل فيها واختارها على عينه لا تظهره أبداً إلا دميماً ، وهو كلما بالغ فى رونقها وصقلها بالغت هى فى إظهار قبحه ودمامته ، ثم يريد أن لا تراه امرأته الحسناء الفاتنة إلا جميلاً فاتناً ولا تكلمه إلا فى الحب ، ولا تقبله إلا قبلة الهوى كأنه هو الذى خلق لها عينين ولساناً وشفيتين؟

ولعمر الله لو أن فى أضلاع هذه المرأة قلب رجل من صيارفة اليهود قد جثم على منكب الطريق وسرح الذمة والدين والظن واليقين وجنود إبليس أجمعين ، فى طلب الدرهم يأكله سحتاً وينحته من أيدى الفقراء نحتاً ، لما رأته على ذلك المال وذلك القبح إلا كالخرقة فيها دينار فهى هى لم تخرجها قيمة الذهب الغالية عن كونها فى اليد والعين خرقة بالية!

أريد أن الرجل لسعادته امرأة لا نفس لها ولا قلب؟ لعله يحاول ذلك ، ولكن كيف تسعده إذن؟ إنى رأيت فى معاشرة الحزين للحزين شيئاً من الفرح يتنفس به الحزن على الحزن فليت

(١) تشذ الطبيعة فى هذا المعنى أحياناً فيكون من بين النساء من لا تعشق إلا القبيح الخلقة ، ثم لا تهواه إلا لقبحه : وذلك واقع ولكنه نادر . وله تعليل لا محل له فى هذا الموضوع .



شعري أى مهناً<sup>(١)</sup> أكثر لذة وأحسن إمتاعاً من معاشرة اثنين كلاهما  
يهناً الآخر؟

أيها الهرم الأحمق الذى يستبد بالجميلة الفاتنة! إنك تعبث  
بذنب السفينة فإذا انحرقت هنا وهنا زعمت أنها تضل الطريق لسوء  
تركيبها . . ألا فاعلم (ويحك) أنك لا تصلح أن تكون ربان هذه  
السفينة وإذا كنت تستطيع أن ترفع شراعاً وتحرك مجدافاً فما أنت  
وهذه الباخرة؟ ماذا تصنع (ويلك) فى آلات هذا القلب الذى  
صنعتة يد الله ليخوض لجج الحب فى بحر الشباب إلى ساحل  
السعادة، وليس بينه وبين الهلاك إلا أن يرتطم فى ذلك البحر  
بصخرة الموت التى لا تكون أكثر ما تكون إلا من رأس رجل هرم!

عسيت تقول إنك غنى ملء الأمل الواسع، وإن هذه الحسنة  
ستفضى من طريق مالك إلى طريق حبك لأن المال - زعمت - أوسع  
طرق الحياة وأطولها وفيه منفذ إلى كل طريق شئت أو شاء  
الهوى . . فلعمري إن هذا المال كما تزعم، ولكن لا يذهبن عنك  
أنك لا تعرف إلا فاتحة الطريق إلى هذه الحسنة، وأن خطط الآمال  
ليست من «شوارع التنظيم» أو الطرق السلطانية التى يفضى كل إلى  
جهة بعينها أو جهات لا يخطئها من انطلق بسبيلها فقد تبدأ تلك  
الحسنة من طريق هذا الغنى الذى تفتحه لها ثم لا تلبث أن تنعطف  
إلى مذهب من مذاهب قلبها، ثم تأخذ من هناك فى ناحية من  
(١) هو ما يعبر عنه الناس بلفظ الهناء، ولم يرد الهناء فى منقول اللغة بهذا  
المعنى الذى يستعمل فيه ولكن المولدين أجروه فى أدبهم وفشت الكلمة فى  
النظم: النشر.



نواحي مصائبك لأن سبيل حبها وسعادتها من تلك الناحية ثم تفضى من كل ذلك إلى طريق من الحياة إذا هي أبصرتك فيها رأتك وليس من ورائك للبغض مذهب . ورائت وجهك ثمة كأنه صفيحة مما تكتب عليه أسماء الطرق ، وقد كتب عليها «شارع المقبرة» . . .

أنت أيها الأحمق استنقذت هذه الحسناء من الفقر ، ثم جعلت تباعد ما بينك وبينها ، فأخذتها خادمة وجعلتها سيده ، وبصرتها بما كانت تجهل من فنون الجمال وأساليب الهوى ، ثم جعلت غاية كل ذلك إمتاع جسمك الفانى ولذة قلبك الخرب فنسيت نفسك بادئ الرأي ولم تذكر إلا الفتاة فاتخذتك صديقا ، ثم نسيت الفتاة آخراً ولم تذكر إلا نفسك فاتخذك عدواً ، فلولا تركتها على جهلها وغرارتها ما دام العلم بالحب لا يكشف منك للحب إلا عن خرافة .

ويا عجباً من غرام الشيوخ بالفتيات ! فإن أكثر من أنت واجد من المحبين وأهل العشق متى أصابه الكبر وذكر حوادث حبه ، رأى فيها ما يسميه جهلاً وما يسميه حماقة وما يسميه غفلة وما يسميه خطيئة كأن الهرم يجعل الأشياء نفسها هرمة ، إذ ينزع منها أو هام الشباب وغروره فلا تظهر من ثم إلا حقائق مخلصه ، فما عسى أن يرى الشيوخ فيما يسمونه غراماً؟ بل ما عسى أن يرى الحب فى هؤلاء الشيوخ «المتطفلين»<sup>(١)</sup> إلا ما يسمى حماقة وجهلاً وغفلة وخطيئة؟

(١) من التطفل أو تكلف الطفولة .



يحب الفتى الناشئ حباً طاهراً يستوجف قلبه<sup>(١)</sup> فيقول أكثر الناس : أحب قبل زمن الحب!

ويعشق الرجل الهرم عشقاً فاسداً يستوقد ضلوعه فلا يرضى أن يقول مرة واحدة ولا أن يقول عنه أحد إنه أحب بعد زمن الحب ، مع أن الفتى رجل بينى ، والهرم رجل يهدم؟

ولو لم يضرب الله على بصره لعلم مما تشرع الطبيعة أن أحق الناس بالخيبة رجلاان : رجل وحيد قبل زمنه فلا يحسن أن ينفع أو ينتفع ، ورجل أتى بعد زمنه فلا يحسن أن ينتفع أو ينفع!

متى كان الرجل حقوقاً فقط وكانت المرأة واجبات لا غير ، فقد خلا الرجل من العقل وخلت المرأة من القلب وخلا الاثنان من هذا المعنى الروحي الذي يسمى الحب ؛ فإن لم يستطع ذلك العاشق الهرم أن يسترد لنفسه الصبي الذاهب حتى تحبه تلك الحسناء طائعة ، فليسترجع لتاريخ الأرض وخشيتها الأولى حتى تلوذ به تلك المرأة كارهة!

ويل للإنسان من هوى نفسه فلولا هذه الحماسة فيه لما وجد على الأرض خطأ ، لأن كل إنسان حين يخطئ فإنما يريد حقيقة من الحقائق غير أنه يجعل مركزها في رأسه ولا يعتبرها إلا من هناك ، مع أن مركزها في العالم .

\*\*\*

(١) يذهب به .





## شهر النحل

قال «الشيخ على»: كل خطب عظم مدة هان بعدها، إلا خطب المرأة فإنه متى عظم لا يزال يعظم، وما رأيت في أصناف البلاء كالمرأة السلطة إذا هي استكلبت<sup>(١)</sup> فكأنما جعل الدهر الجائر أيامها خطأ من خطوط مداره، واتخذ من دار زوجها متحفاً ثم أودعه تلك المجموعة من آثاره... ويا رحمة لهذا الزوج! فهو كلما خرج من بيته خرج خزيان يتنقب، وكلما انقلب إليه انقلب خائفاً يترقب؛ ولا تزال تعرف في عينه نظرة مغلوبة وأخرى مسلوبة، وفي قلبه مصيبة مستقرة وثانية مجلوبة، وترى على وجهه سمة استخذاء<sup>(٢)</sup> كأنها مسحة استهزاء، ولروحه ظلاً على فمه كأنه ظل النخوة الهاربة من دمه ولا يزال مع امرأته المكابرة كأنها ذنب وكأنه ندامة، وقد جمعت عليه الدنيا والآخرة فكأنه من خوفها في موت ومن لسانها في «قيامة»..

وما في الله خلق أعظم من المرأة، فهي طبيعة وحدها، غير أنها الطبيعة الدقيقة الحس؛ وليس يدرك الرجل حقيقة نفسه قبل أن يخلطها بنفسه؛ فإذا رأيتها حاملة مغمورة، أو ساقطة مزجورة، أو ميتة في الأحياء مقبورة فلا ترين أنها مغلوبة للرجل ولكنها مغلوبة لإحساسها، وقد وفر الله عليها من القوة ما شاء ولكنه غمز منها

(١) يقال استكلبت المرأة واستسعلت: إذا أشبهت الكلاب والسعالى؛ والمراد البذاءة والشر كسلاطة اللسان.

(٢) هو الذل والخضوع.



موضعاً دقيقاً فخرجت بحيث تراها أقوى الأشياء وترى هي نفسها كأن لا قوة فيها، وهذا سر من نظام الطبيعة، فإن أشجع الناس الذي لا يخاف شيئاً يخاف أشياء كثيرة من نفسه، فلولا أثر الله في إضعافها ما قامت للرجل معها قائمة.

وهذا الموضع الذي أسلمها ضعيفة مستخذية إنما هو جهلها بتصريف إحساسها، فليست القوة إلا شيئاً طبيعياً في هذا الوجود كائنة ما كانت، وإنما الشأن كله في العالم بطريقة استعمالها، وما من رجل يدارى المرأة نوعاً من المداراة فترضى عنه وجهاً من الرضا، إلا رآها في يده أضعف ما خلق الله، هينة لينة سمحة مطمئنة، إن كانت دون الملائكة فهي فوق الناس، إذ هو إنما يستولى على إحساسها فيأمن أن تصرفه في غير مرضاته ومحبته؛ ومن ثم تصبح كأنها صورة من إرادته وكأن في نفسها نفسه.

فإن جهل الرجل كيف يداريها، وانقطعت الأسباب المختلفة بينه وبين رضاها، ولم يكن أهلاً منها لما هي أهله منه استوقد إحساسها وبصرها كيف تناله ومن أين تأتيه، فابتلى منها بفتنة ما تهدأ وقدها، فما السابح في البحر إذا أراد أن يقيد الموجة العاتية بالحبال، ولا المصروع إذا حاول أن يدفع بيده ما أفزعه من جن الخيال، ولا الطفل يبتغي أن يمسك القمر في الماء، ولا المجنون يتناول فيقتلع النجم من السماء - بأقدار ممن تبغضه المرأة إذا زعم القدرة على إرغامها، وتصريف زمامها، ومن تمضغه المرأة إذا زعم القدرة على إسكانها، والسلامة من بركانها...؛ ومن تحقره المرأة



إذا زعم القدرة على ردها، وإرجاعها دون حدها؛ ومن تصول عليه المرأة إذا ادعى القدرة على إسقاطها، والقوة على التقاطها!

فليس يعجز الرجل في سلاطة المرأة إذا هي سلطت عليه ما يكون من حدة جنانها، وشدة عنانها، وشراسة لسانها، فكل هذه وأمثال هذه إنما هي ضروب مما تحاول من إظهار عظمتها الطبيعية المغلوبة؛ ومن أجل ذلك قلما كانت المرأة السليطة إلا غالبية، إذ هي نفس منفجرة.

ولقد يعجز الإنسان أحياناً كثيرة أن يكون نفسه؛ إذ لا تنقاده الطريقة التي يغلب بها على الحوادث أو يجاريها أو ينبه لها الحذر؛ ومن ثم ينكر نفسه كأنها غير التي يعرف من قبل، ولكن المرأة متى ثارت لا تعجز أبداً أن تكون نفسها، وما نفسها إلا أعظم ما في الخليقة من الخير والشر!

قال «الشيخ على»: كذلك صارت «لويز» مع زوجها وانحازت إليها طبيعته الغالبة فكانت قوية به وبنفسها وكان ضعيفاً بها وبنفسه.

ألا وإن أخلاق المرء إنما هي أعصاب أعماله، فانظر (ويحك) ما عسى أن يكون في البغض أشد من أعمال امرأة أبغضت بعقلها وبقلبها، ولحاضرها ومستقبلها؛ وصارت حياتها كلها من الشر والسوء كأنها لعنة يصبها الله على رأس هذا الهرم؟.



وكذلك اندمج في إرادتها كما يندمج الثعلب في فروته الجميلة الناعمة: ترميه بالنظرة حين يتكلم فتقف الكلمة بين حلقه والوريد، ويجيئها وقد أجمع النية أن يأمرها فلا تأخذه عينها حتى يسألها ما تأمره، ويجهد أن تعلم أن زوجها ثم ينقلب وهو يتمنى لو تعلم أنها زوجته . . . ، ويوسع قلبه عزمًا أن يفعل ويفعل، ثم يراها فيخشى أن تكون اطلعت على أن في قلبه شيئًا من العزم!

وهو لا يعلم بزعمه كيف أنكرته وكيف تغيرت عليه وكيف تنكرت له، ولكنه يريد أن يسأل كل شيء عن ذلك إلا وجهه . . . ذلك الوجه الذي جعله الحب أقبح ما عرف من دائه، وأشد ما خاف من أعدائه، وما أفضى إليها مرة وهو يحمله . . . إلا عرف أنه من ذنبه في حبها، وأنه من عذرها في بغضه، فيطرق إطراقة يتكلفها ويحسبها تشفع له عندها، لأن فيها ذل الشيبة، وألم الخيبة، وشدة الهيبة، ولكن وجهه يظهره وقتئذ مظهرًا ليس في معنى السماجة أسمح منه، إذ يكون كاللص الذي لا ينكر على ملأ من الناس أنه سارق، وهو مع ذلك يحرص على أن لا يؤخذ منه ما تجشم في سرقة، وقد عرفت المرأة أنها لا تغمز منه إلا مكاسر عظمه الواهن، ولا تطأ منه إلا كل مفصل مرضوض، ولكنها عرفت كذلك أنه ظالم لنفسه، إذ حملها ما ليس في طاقته؛ وظالم لها! إذا أرادها على ما ليس في طاقتها، فهو ظالم أشبه بمظلوم، وما مثله في حبها إلا كمثل الفراشة؛ لا ترجع دون المصباح إلا أن





تخالط ناره، فما تحتال من حيلة إلا أحست منها حتفها وتلفتها، غير أنها لا تزال تنزع من ذلك ما ينبغي أن تنزع عنه، وكلما تهافتت انحصر جناحها من ناحية، ومع هذا كله لا تسكن ما دامت فيها حركة تنبعث .

وما من شيء إلا وقد جعل الله فيه النفع والضرر، فمن التمسه على حالة منهما لم تؤده إلى الأخرى، وما تغنى الإنسان معرفة الأشياء على حقائقها إلا إذا عرف مع ذلك فروق ما بينها، وتبين الحدود الفاصلة بين الشيء والشيء الآخر، وبين الجملة والحالة في الشيء الواحد، فقد يكون الإفراط من الدواء داء مع الداء، وقد يجتمع من طعامين بلاء لا يكون من جوع يومين!

والمرأة هي هي في حاجة الرجل إليها، ولكن كل امرأة تكاد تكون جنساً بعينه في حاجتها إلى الرجل، فمن ههنا أحببت وأبغضت .

ولو أن هذه المرأة مما تنبت الأرض وتسقى السماء لقد كانت تصلح مع كل رجل كما تصلح لكل رجل . ولكن لها قلباً، وحساً مع هذا القلب؛ ونفساً مع هذا الحس، ورقة مع هذه النفس، فهي إن لم تحب الرجل من هذه الجهات الأربع لا تكون قد أحبته ذلك الحب الروحي العجيب الذي يوصف بأنه حب المرأة<sup>(١)</sup> .

(١) نحسب أننا استوفينا كثيراً من معاني الحب وأوصافه الجميلة في كتاب «رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب» وصنوه (السحاب الأحمر).



قال «الشيخ على»: وقد رأت «لويز» أن زوجها خرب من كل جهاته، وأكبر ما فيه أنه كالأرض الفضاء: إذا ضرب عليها سور وجعل في هذا السور باب، ووضع على هذا الباب قفل...، فما غناه العريض، وما ماله الكثير، ولا اسمه في أهل الغنى - إلا كتلك الحدود المضروبة على ما وراءها من الفراغ والفضاء.

وكانت ترتاع لذله وترق لخضوعه، وتود لو استطاعت أن تراه غير من هو فتعرفه غير ما عرفته وتجزيه غير ما جزته، ولكنه لم يكن يجيئها أبداً إلا بادی المقتل، ولا يريد مع ضعفه أن يعدل عن محزها، وما أماتت من نفسه نزعة إلا انبعثت فيها نزعة أخرى، كأنه رأى في غضبها جمالاً لم يره في رضاها، وأحس من سورة شبابها وفورة غيظها ما يعالج منه خمود الهرم وبرد الموت في عظامه، فاعتاد منها ما تجزيه؛ واعتادت منه ما يخزيه، ومرا على ذلك دهرأ مات فيه الوفاء، ومرض الحياء، فإذا تاريخ هذه المرأة كله لعنات، وإذا عرض ذلك الرجل كله طعنات؛ وأصبحت ملكة عليه وأصبح معها كما قال ذلك الحكيم: «من أراد مصاحبة الملوك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس...!».

### وبعد

... فإن آلام النزع وإن لم تكن هي الموت ولكنها أشد منه، حتى إن الموت ليكون راحة منها؛ وقد مد الله في نزع «الكونت» مدآ طويلاً؛ فكان يقظان العين نائم الروح وكأنه مقبور في جلده،



وكانت زوجه لا تألوه موتاً . فليس يراه أحد إلا ظن أنه لما به (١) ، ولكنه لا يموت ، لأن أيامه كانت بعض ما كتب في الأزل من تاريخ هذه البائسة ؛ وقد حمله الله على الأمل ، والأمل معطية دائبة لا تكل ولا تنقطع ولو ذهبت تقطع مسافة ما بين الضدين لتجمع أحدهما بالآخر ، فما يزال يحسب أن لزوجته فيئة بعد شرة الصبي ، وأن تقادمه في الهرم وتقدمها إليه سيصلحان ما أفسد الدهر منهما جميعاً ، وليس في الناس أحق ممن يدفع نفسه إلى ما يظن ، في حين تدفعه نفسه إلى ما يستيقن !

أما هي فرأت أن لا سبيل إلى انهزامها أو تراجعها بعد ما أنزلت أخلاقها إلى المعركة . . ، كأنها ماتت قبل أن تموت فليس يضرها أن تقع في هذه المعركة هالكة ، وليس ينفعها أن تخرج منها حية ، وكل شيء تستدرك منه الحيلة ، إلا ما أفادت المرأة من شرفها النسائي ، فإنه إن فرط منه فارط لم يستدرك . . ، فبسطت عنانها في يد الأقدار وانطلقت على أثرها صاغرة !

وقطع الفلك في دورته عشر سنوات حتى تفرى الليل عن صبح لم يشهده «الكونت» (٢) ، فترك لامرأته ما جمع ، وترك فيها ذلك الموت الحى . . . ، وتركها في تلك الحياة شجرة مرداء (٣) غير أن اللذات لم تبق عليها بعده ، فقد لا تقل الآلام إذا أسرفت على النفس ولكن اللذات لا بد قاتلة ، وكان الطبيعة فرضت على

(١) أى في الموت ، كأن ما به لا بد أخذه .

(٢) كناية عن موته .

(٣) لا ورق فيها .



الإنسان أن لا يلذ بالعيش إلا حيث تكون لذته اختلاصاً، فإنما ركب على أن يشده ما يؤلمه، ويبنى منه ما يحسب أن يهدمه، فإن هو حمل نفسه على لذتها، وأطلق لها ما بين هواه ورأيه، فقد أراد لبنيته الضعيفة وضعاً ليس في هندسة الحياة، فلا تترك فيه اللذات إلا أمراضاً، ولا تحمل منه الأرض إلا أنقاضاً...، ولو لم تكن هذه اللذة المسرفة سبباً إلى الموت، لما ركب في غريزة الإنسان كره الموت من حب الاستمتاع بها، والحياة في «عمليتها الجراحية» المؤلمة لا تحز إلا بأسلحة الآلام الحادة واللذات الحادة!

وبيع ذلك القصر وما ضمه، وكان فيما يحويه بعض رفوف من الكتب يباهى الأغنياء بتنسيقها ليظهر من ألوان جلودها رسم ليس في الحائط...، فاشتراها أديب تأدى إليه خبر الكونت وامراته، فإنه ليقرأ منها ذات يوم في كتاب يصف البأساء والضراء من هموم الحياة، إذا ندرت ورقة كانت بين صحفه فالتقطها فإذا فيها تعتلجان<sup>(١)</sup> بين هذين السطرين:

الفقر خلو من المال؛ ولكن أقبح الفقر الخلو من العافية!

«فيكتور»

والغنى أن تملك من الدنيا، ولكن أحسن الغنى أن تهناً في الدنيا...!

«لويز»

\*\*\*

(١) تصطرعان وتقتلان.







الحظ

قال «الشيخ على»: وإن في نفسى أشياء من كلمة بين الكلام قد ضل بها الناس ضلالاً بعيداً، لا أعرف كيف استحدثت ولا من أين انصبت على الدنيا، وقد خرج الناس من أن يهتدوا فيها إلى حقيقة مخلصه، إذ لم توضع فى لغاتهم موضع شرح وإبانه، ولكن موضع غموض وإبهام . . .

ويا عجباً للإنسان! كيف اهتدى إلى التعبير عن المعانى الإلهية التى يكون المعنى الواحد منها تاريخاً طويلاً لقدر من الأقدار المستكنة فى غيب الله من لدن يقضى إلى يوم يقع، وكيف تلقى فى نفس هذا الإنسان معانى الغيب فيردها ألفاظاً يحمل منها السماء بأفلاكها على بضعة أحرف! (١).

على أن أعجب ما فيه أن يعبر عما تناله قوته بألفاظ صريحة خالصة لا لبس فيها ولا اختلاط؛ فإذا انتهى إلى ما يضعف عنه أو يعجز دونه أشار إليه بحروف مبهمه لا يكون لها فى نفسه من الدلالة الغامضة أكثر مما يدل المجهول على أنه مجهول . . . ، فالإنسان متى أحس القوة رأيته كأنما يحاول أن يسمع السماء بطنين ألفاظه المكشوفة عن معانيها أنه موجود على الأرض، ويحاول أن

(١) ككلمة (حظ) مثلاً، فهى ثلاثة أحرف وتحمل الغيب.



يظهر للأرض بصراحة هذه الألفاظ أن له إرادة تعمل مع الأقدار في تسخير الطبيعة، ولكنه عند العجز والضعف، وعندما يتخيل صفات من القوة الأزلية ولا يحسها، تراه يرسل الكلمة الخفية التي تشير إلى كبريائه بشيء من الصراحة اللغوية المحدودة، وإلى ضعفه وعجزه بإبهامها المطلق فما إن تزال في هذا الوجود اللغوي خالية من المعنى على وجه التعيين والنص، حتى يقع بها قدر من الأقدار فيكون هو معناها<sup>(١)</sup>.

وضعف الإنسان لا حد له فلا حد لما يستعمل من الكلام المبهم الذي يحمل ما شئت أن يحمل، ولولا ذلك لما صح أن تكون الفصاحة نفسها وسيلة من وسائل التعمية في محاوراة الخصوم.

قال «الشيخ على»: أما الكلمة التي أشرت إليها، فهي لشمول معناها الطبيعي وإبهامه كأنها لغة للنفس الإنسانية أين وجدت، ولكن ليس للإنسان أن يفسرها، بل هو يتعلل بها ويتعلق عليها ويعلم أنها كذا خلقت؛ لأنه إن قدر معناها قدره على قياس لا يبرح يطوى هو من طرفه ليعرف ماذا يبلغ وما هي مسافته، ويعد القدر من طرفه الآخر ليفسد عليه ما عرف.

فهي كلمة يستوى عندها خطأ الإنسان وصوابه، ولهذا يراها واقعة في موضعها وفي غير موضعها، ولا معنى لها عند هذا الإنسان إلا أنها اتجاه حركة القدر، وهي «الحظ».

(١) حين ينجح الإنسان يقول: فعلت وفعلت. ولكنه حين يخيب يقول: «القدر» ويسكت.



الحظ يا بنى كلمة غامضة غموض النفس الإنسانية، يتعزى بها أهل الأرض جميعاً ويظهرون فيها إيمانهم الفطري الذى لا بد منه للقلب؛ فما دام هذا الكون على تركيبه العجيب، وما دام هذا التركيب على غموضه المعجز بحيث لا يمكن أن يعرف بجملته، وما دام هذا الإعجاز وضع حيرة للعقل، فلا بد فى اللغات من ألفاظ تصور كل ذلك وتصفه على تلك الوجوه العجيبة، بحيث تكون اللفظة إقراراً من الإنسان وإن جحد؛ وصورة لإيمانه وإن كفر.

وهذه الكلمات من أوضاع الإلهام فلا تخلو منها لغة من اللغات، وهى بعد فى تفاوتها وظهورها كدرجات الإيمان من أدناها إلى أعلاها، فمن لم يؤمن بالله وجد فى لغته لفظاً للقدر وهو الإيمان بعمل الله فإن كفر بالقدر اعترضته نفسه بكلمة «الأمل» وهو الإيمان برحمة الله؛ فإن جحد هذه اعترضته طبيعته الإنسانية بكلمة «الحظ» وهو الإيمان بقدره الله، ولا أحسب أن فى الأرض رجلاً يكفر بهذه الأربعة جميعاً!

ومن ههنا كان الكفر نفسه لا يخلو من إيمان، وكان الكافر كأنه إنما يؤمن من أضعف موضع فى الكون<sup>(١)</sup>؛ وما أشبه الإيمان بجبل راسخ يحمل الناس كافة؛ غير أن المؤمن يصعد مرتقياً من جهة والكافر ينزل منحدرًا من الجهة الأخرى!

والعجيب أن كلمة «الحظ» نفسها يضعف معناها ويقوى بعكس ما يكون فى الإنسان من قوة الإيمان وضعفه. فالرجل المؤمن

(١) أو هو (اليقين) على طريقة، كما مر فى الفصل الأول.



القوى فى إيمانه بالله كلما يفهم من هذه الكلمة إلا أضعف ما تريد النفس منها، فهى تبعثه على تذكر قضاء الله والاستكانة لقدره والتعزى عما فات بما لا يزال فى الغيب، ولكنك واجد ضعفاء الإيمان لا يفهمون منها إلا القوة المسخرة لحوادث الدنيا، ولا يريدون بها تسخير هذه القوة فى منافعهم؛ ومن ثم تهيج الكلمة فى أنفسهم من معانى السخط والارتماض أكثر مما تبعث فى نفوس المؤمنين من معانى التسليم والاستكانة؛ وهذا عجيب من طباع الناس لولا السبب الذى كشفته لك!

وما أراك تحسن معرفة هذا السبب ما لم تعرف حقيقة ما أريد بكلمة (الإيمان)، فلست أريد بها ذلك المعنى الذى يتعاون على تمثيله البناء والنجار والحداد وغيرهم من أهل الصناعات، حين يشيدون المساجد والبيع والصوامع ونحوها من أمكنة العبادة؛ فإن هى إلا بعض مظاهر الدين الاجتماعية لا غير؛ ولا يمكن أن يحصر الضمير الإنسانى بين حائطين.

وإنما الإيمان هو ذلك المعنى الذى يلقي على روحك السكينة لأنها متصلة بالله، وفى ضميرك المحبة لأنها متصلة بالناس، وهو ذلك المعنى الذى يعلمك ما أنت ممن حولك، وما حياتك مما وراءها؛ وهو ذلك الاعتقاد الكبير الذى تصغر عنده الحياة بما فيها من الخير والشر؛ وتهون بما فيها من النفع والضرر لأنه قائم على الفكر الذى هو بقية ما نفخ الله من روحه فى الإنسان الأول<sup>(١)</sup> فلا

(١) يشير إلى قوله تعالى فى خلق آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].





يضعف أبدأ ما دام فى الكون قوة، ولا يفتقر أبدأ ما دامت الطبيعة غنية بجمالها، ولا يسقط أبدأ ما دامت السماء قائمة؛ ولا يموت أبدأ ما دامت الحياة باقية، ومتى خضعت له استحال عليك أن تذللصغائر الحياة، لأنه هو لا يذل ومن مظاهره تلك العظمة التى تكون فى الأبطال فيستهينون بالحياة إذ هم أهل الموت، وفى العظماء فيتنزّهون عن الدنيا إذ هم أهل الأخلاق، وفى الحكماء فيزهدون فى حطام الدنيا إذ هم أهل النفوس.

ومن ثم الإيمان الصحيح حرية صحيحة، لأنه يعصم من ضروب الذل كلها؛ وكان منفعة خالصة، لأنه الحد القائم بين النفس وشهواتها، وكان عزاء نافعا، لأنه العقل السماوى الذى يُلهم الإنسان حكمة كل مصيبة، أو يلهمه الثقة بالحكمة التى يجهلها؛ ولو أن للفضيلة عبادة لكان لها من أخلاق كل رجل صحيح الإيمان مسجد تعبد الله فيه!

ولا يصح إيمان المرء حتى يتبين لنفسه طريقاً إلى ربه، فيرى كأن قطعة من السماء فى باطنه تضىء له الحياة؛ ومتى عرف هذه الطريق وامتد بها ضميره إلى حيث يتصل بجلال الله، فمن هذه الطريق نفسها يرد مصائبه إلى الغيب كما جاءت من الغيب، لأن للقدر طريقين: فواحدة يندفع منها، وهذه لا تعرف إلا بعد أن تقع الواقعة فتدل عليها بنفسها، والأخرى هى التى يتصرف إليها القدر فى حركة الدهر، وهذه لا يوفق إلا معرفتها غير السعداء ومن كتب الله لهم أن يكونوا مظهر حكمته أو مظهر حمده.



فقوم يجدونها فى إيمانهم الوثيق ، وآخرون يصيبونها فى حكمتهم البالغة والمؤمن إنما هو صورة قلبية من الرجل الحكيم ، والحكيم إنما هو صورة عقلية من الرجل المؤمن ؛ فإذا نزلت بأحدهما المصيبة وبلغت منه ما لا يبلغ الصبر ، فتح لها طريق السماء فى باطنه فيبصرها كأنها مدبرة ، والمصيبة متى وجدت كالحياة متى ولدت : لا محل للعقل أبداً فى أولها ، فإن ذهبت مدبرة اعترضها المرء على عينه فتتكشف له عن معناها ، فيتبين حكمة الله منها ويرى حينئذ كيف تنقح يد الله فى تاريخه .

وما أرى المصائب فى نظام الكون إلا حركات ظاهرة تسير بها نعم مجهولة لا تزال ومن وراء الغيب ، وكثيراً ما يكون من هذه المصائب ما ينبه الله به الناس من غفلاتهم حتى لا يقعوا فى أشد منها إذا تركوا لما هم فيه ؛ فليست النازلة هى المصيبة ولكن المصيبة من جهلنا وضعفنا ؛ ألم تر إلى كل نعمة من الجهل والضعف كيف تحمق<sup>(١)</sup> وتضعف حتى لا تكون مع صاحبها إلا قريباً مما تكون المصيبة مع صاحبها؟

قال «الشيخ على» : والحقيقة يا بنى أن من لم يكن كفواً لما يناله هلك بما يناله ، فالحظ توفيق ، والتوفيق أن لا يكون لك إلا ما تصح له فأنت بذلك مطمئن ؛ ومن ثمرة الاطمئنان الرضا ، ومن غاية الرضا أن تستمتع بما أنت فيه ؛ فأیما رجل أصاب فاطمأن فرضى فاستمتع ؛ فهذا هو ذو الحظ وإن كان عند غيره لم يصب إلا قليلاً

(١) معنى تكسد من قولهم : حمقت السوق (بضم الميم) أى كسدت .



ولم يظمن إلا من ضعف ولم يرض إلا من عجز ولم يستمتع إلا بأهون المتاع .

إن كل امرئ يريد لنفسه لا لسواه ، وإن أول التوفيق أن تريد ما يصلحك وأول الخذلان أن تريد ما لا يصلح لك ؛ وما الطمع إلا فقر حاضر ولو كان طمع الغنى .

وإن هذه النفوس لتبلى من طول ما يلبسها قدر ويجعلها قدر ، فلقد رأيت غير الموفق حين يجور في إرادته ، ويضل في مسعاته ؛ ويلتمس من الغيب ما يقدر لنفسه دون ما قدرت له نفسه - لا يبرح يكد ويسعى ، وكلما لبس حالة من دنياه فاضت عليه فخلعها أو ضاقت عنه فخلعته ، ولا يزال ذلك من دأبه ودأب القدر معه حتى يهن ويضعف ويصير إلى البلى في نشاطه وحزمه وفي طمأحه ورغبته ، وقد أنفق من حياته ما لا يرد في ابتغاء ما يدرك ؛ وهذا كله هلاك بطيء يأتي على العمر ، والعمر بمقدار الزمن الذي تعيش فيه ، ولكنه مقدار ما توفق من عيشك .

وهل سمعت برجل كان يحفر قبره منذ عقل معنى الموت وقد نذر أن لا يحول عنه ، ثم لم يزل يوسع الأرض من عمله ويفسح في جوانب هذا القبر وعمراً طويلاً وغبر على ذلك دهره ، حتى أصبح قبره يأكل القبور كلاً<sup>(١)</sup> ثم أدركه الموت فانطرح فيه رمة بالية فإذا هو لا يملأ من جوفه عمل يوم واحد مما كان يعمل ؛ وبقيت الحفرة كأنها فم مفتوح تصيح منه الأبدية : أين الميت العظيم الذي أعد كل

(١) كناية عن السعة . كأن القبور في جوفه .



هذا لجيفته . . . وما بال هذا الساعد وما بال هذا المنكب ، وفيما كان ذلك العمل ، وما هذا النبوغ الميت الذي ضاعت فيه الحياة ولم يعظم به الموت؟ . . .

إنك إن لا تكن سمعت بهذا الرجل فلقد رأيت كثيراً من مثله يعملون للحياة عمل ذلك الأحمق بعينه للموت ؛ فهو لم يمت بمقدار ما أعد لنفسه ، وهم لا يعيشون بمقدار ما جمعوا لأنفسهم ، ومنهم من أنفق العمر في أكثر من حاجته ، ومنهم من أضاعه في غير حاجته ، والعمر لا يستخلف ، وكلا الفريقين طرف من قياس واحد في الخذلان وإن كان أحدهما يبتدىء من عكس الجهة التي يبتدىء منها الآخر .

لا يوجد على الأرض من يملك شيئاً في الأرض غير محدود ، ولكن ما من أحد يكن طمعاً محدوداً في نفسه ، ومن هنا كثر ما يسميه العامة «سوء الحظ» وإنما هو سوء التوفيق .

أما حسن الحظ فما أحسب الناس يعرفون ما هو ، ولا أراه إلا رغبة مجنونة لا يقرها العقل السليم ولا يستقيم بها نظام الدنيا ؛ وإنما عرف الناس في كل وجه من وجوه الحياة كيف تكون الخيبة ، وكيف يمرض الأمل ، وكيف يهلك الطمع ، وسموا ذلك «سوء الحظ» فحسبوا أن لهذه الأحوال ضدّاً ، وجعل كل واحد يتمنى لنفسه هذا الضد ويصفه ويسميه «حسن الحظ» لأنه زعم لا سوء فيه ؛ كالذي يسمع بالموت فيحسب أنه يعرف ما هو الموت؟ والحقيقة أنه لا يعرف منه شيئاً وإنما عرف الحياة الهالكة!





يأبى كل أحرق إلا أن يختط لله خطة يبني له عليها مستقبله ،  
فكأنما يريد أن تمشى يد الله فى التقدير على أجزاء الصورة التى فى  
خياله (١) . . . ! ولو جمع الله أبنية الأمانى من أوهام الناس ومثلها  
وكشف عنها الغطاء فأبصرناها لرأينا ثم (مدينة المستقبل) التى لا  
يملك أفخم قصورها إلا الصعاليك . . .

أما أنا فلا أرى كلمة (الحظ) فيما نأمله وفيما نتعلل به إلا لحنًا من  
الألحان الطبيعية التى خلقت فى أفواهنا لتغنى بها تحت الأحمال  
الثقيلة من مصائب الدنيا وأطماع النفس ، كى تجم الطباع وتنشط  
للسير بأحمالها ، فما الإنسان إلا دابة للحمل ، وعليه أن يحمل من  
معانى المادة التى يعيش فيها أو يعيش بها ، والزمن نفسه بحكمته  
وعلومه وحوادثه إنما يعلمنا كيف نحتمل الأسواء والهموم أكثر مما  
يعلمنا كيف نتقيها .

قال (الشيخ على) : ولكن يا بنى ما هذا الذى يرتفع بالخامل ،  
ويتقدم بالعاجز ، ويجعل النكرة معرفة والمعرفة نكرة ، ويضرب  
وجه الحق عن مستحقه ، ويفلج (٢) الضعيف وما يسمو به أمل ،  
ويحرم المجد وما يشك فى الظفر ، ويخالف فى سبيل الأقدار بين  
نصيب ونصيب ، ويقطع فى محاولة الأمور بين الأسباب والغايات  
ويبعد المنفعة مما به تمامها فإذا هى مضرّة ومفسدة . . . ؟

(١) من كتابنا (السحاب الأحمر) فى فصل الصديق : «ما الخيبة إلا رد الأقدار  
علينا حين نقول : لا» وقد أفضنا هناك فى هذا المعنى فانظره .

(٢) أى يظفره بحاجته .



لعلك تقول، إن كل هذا يجتمع فى كلمتين هما (السعد والنحس)، وهما تنطويان فى لفظة واحدة هى (الحظ) ألا فاعلم أن هذا من وضع الإنسان لا من وضع القدر، وهى مذاهب لغوية تمر بين أنفسنا وبين أفهامنا، وقد جئتنى بجمل تنطوى فى كلمتين، وكلمتين تجتمعان فى لفظة، وأنا أتيك بجمل فى كلمات فى صوت واحد، فما هى صرخة الألم مثلاً؟ أليست قطعة طويلة من كلام النفس يجمعها الحس الشائر المتألم ويتنفض فيها فلا تكون إلا صوتاً واحداً! وانظر أين هذا الصوت مما يشرحه لك الطبيب من أسباب ذلك الألم وعوارضه فى كلام طويل وعبارة سابغة لا يتألم منها حرف، مع أن أحدهما إنما يفسر الآخر كما ترى!

وأنا فلا بد أن أعلمك من أين خرجت هذه الأسماء<sup>(١)</sup>، لقد خرجت من تاريخ النوع الإنسانى كله، فإن هذا الحيوان العاقل كان يشعر بمعانى الأشياء قبل أن يضع ألفاظها، وكان السخط والغیظ والحسد والمنافسة ونحوها من غرائزه الطبيعية: إذ هى المعانى التى بثها الخالق فى نفسه لتنشئ فى الأرض تاريخ هذه النفس، فكان إذا تعادى رجلان أو فئتان فبغى بعضهما على بعض، أحس الغالب منهما أن قوى الطبيعة معه، وأيقن المغلوب أن قوى الطبيعة عليه، لأن الإنسان لم يكن عرف نفسه بعد، وكان هو وحده يمثل فى هذه الطبيعة المخيفة الرائعة فكرة الخوف العاقلة!

فهذه الثقة فى القوى الطبيعية المجهولة من الإنسان، وهذا الشك

(١) أى السعد والنحس والحظ .



فيها والخوف منها، هما الأصل في تاريخ لفظتى: السعد والنحس .

ولقد كانت الأم القديمة كلها تتوسل إلى الغيب المجهول بوسائل غريبة من الطلاسم والتمائم والتعاويذ ونحوها من الأعمال والعادات الماثورة في تاريخ كل أمة، لأن ذلك المعنى بعينه قد ارتقى مع العقل واشتد مع الإنسان فخرج من مخافة الطبيعة إلى الرغبة في إخافتها، حتى تنزل على حكم الإنسان في اجتلاب الخير ودفع الشر، والزمن لا يأتى على الغرائز فيمحوها، ولكنه يحول منها شيئاً ويهذب منها شيئاً، ومن هنا كانت كلمة (الحظ) فاشية في المتمدنين لأنها آخر صورة مهذبة من تلك الغريزة الأولى!

أما إن في حوادث القدر أشياء لا نفهم وجه الحكمة فيها، وهى الحظوظ والأقسام، فذلك صحيح فى نفسه بمقدار ما هو خطأ فى أنفسنا، والشذوذ فيما يقع من حوادث الدنيا وفيما نشهد من تصاريق القدر أمر معلوم، ولكن لماذا لا يكون قاعدة لأشياء نجعلها ما دمنا نجعل الغيب كله ولا نعرف منه شيئاً؟ . .

ما رأينا قط فى تركيب هذا الكون المعجز شيئاً خارجاً عن موضعه، ولا شيئاً زائداً فى موضعه؛ فلم نزن مثل ذلك فى الجهة التى بنا من حكمة الله، جهة السعد والنحس؟

يا بنى، إنما قربت النعمة من فلان لأن القدر يسوقها إليه، وإنما بعدت النعمة عن فلان لأن القدر يسوقها إلى غيره، وإذا أراد الله



أمراً هياً أسبابه ، فربما سعى المرء بكل سبب فلم يفلح ، ثم يقع له سبب لم يمتهد له وسيلة قط فإذا هو عند بغيته ، وإذا هو قد ملأ يديه مما كان قد يئس منه ، فلا يكون عجبه كيف خاب في الأولى بأشد من عجبه كيف نجح في الثانية !

وهذا هو مظهر إرادة الله ، فإن صادف من بعض النفوس الضعيفة حسداً أو غيظاً أو سخطاً أو منافسة أو نحو ذلك مما يكون مظهراً للضعف الإيمان في النفس ، تحول المعنى إلى لفظ يحمل كل هذه العواطف الوحشية ، فليس الكلمة التي تسلب الإنسان قوة نفسه وتكاد في إبهامها تسلب الأقدار قوة الحكمة أيضاً ، وهي كلمة «الحظ» ، ألا ترى أن أحداً من الناس لا يتعلل بهذه الكلمة ولا يحتج بها ولا يسكن إليها إلا من غيظ أو سخط أو حسد أو عجز أو ما هو بسبيل من هذه المعاني؟ . .

قال «الشيخ على» : فلم يبق من معنى «الحظ» إلا أن يقال : ولم وفق فلان ، ولم خذل الآخر وما هو به بدونه ، وربما كان أحق منه ، وربما كانت المنفعة به أكثر والنعمة عليه أظهر؟ ولم كان ذلك سعيداً ، وبأى شيء صار سعيداً؟ وهذا شقيماً ، وبأى شيء عاد شقيماً؟ إلى نسق طويل من هذه المسائل التي لا تجيب عليها السماء ولا تكف عنها الأرض أبداً . . .

ولكن ، يا هذا لم تخفى أنت وحشيتك المهذبة وتكاتم الغيظ والسخط والحسد ، ثم تحتال على أن تخرج هذه المعاني الخشنة في ألفاظ لينة ، وأن تعترض على القدر في أسلوب من التسليم





والرضا ، وتطرح بينك وبين الله لفظة إن لم يكن معناها مخاصمة القضاء فمحاسبته ، وإلا فمعتبة عليه ! .

وهل تعلم أنت ما هي شعوب الحوادث وفنونها ، وما الذى سيفعله المجدود<sup>(١)</sup> حين تقبل عليه الدنيا ، والمحروم حين تدبر عنه النعمة ؛ وماذا يكون مما يترتب على الحرمان أو ينشأ عن الحظ ؛ وهل تدرى لم أساء بعض الأغنياء حمل الغنى دون البعض ؛ ولم أحسن بعض الفقراء حمل الفاقة دون البعض ، ولم ابتليت طائفة بالتمنى وابتليت غيرها بالضجر مما تتمناه الأولى ، وحبب إلى تلك ما بغض إلى هذه ، ولم انتزعت نعمة بعد أن استمكن حبلها ، وأقبلت الأخرى بعد أن استيأس أهلها؟ . . .

أليس من كل هذا يتهياً البقاء للحياة الإنسانية فى نظام لا يخفُّ على نوع الإنسان فيهمله فيفسد به ، ولا يجور عليه فيستأصله فيذهب به؟ . .

وهل الناس إلا خطوط فى لوح الغيب يستقيم ما يستقيم منها ويعوج ما يعوج لأن كل ذلك مما لا بد منه فى جملة الوضع وإحكامه ؛ فإذا أردت أن تسأل لم استقام هذا ولم اعوج ذاك ، ثم ما قصر وطال ، ثم ما دق وجل ، ثم ما علا وسفل ، ثم ما انفرد واختلط فسل : لم خلقت الدنيا ولم خلق الناس ، وسل الخالق ولا تسئل «الشيخ على» . .

(١) ذو الحظ .



كل ذلك يا بنى حكمة وكل ذلك انتخاب، وقد ظفر العلماء فى حركات النظام بما سموه «الانتخاب الطبيعى»، وعرفوا أن ذلك سر من أسرار التقدم والارتقاء؛ فاعلم أن ما نحن فيه من معنى «الحظ» إنما هو «انتخاب إلهى»، وذلك سر من أسرار الحياة والبقاء، وما من حركة لى ولك ولكل إنسان إلا هى تمس قطعة من تاريخ الحياة وطائفة من الأحياء؛ فليس من حى هو لنفسه وحدها، وليس من حقيقة هى لنفس واحدة، وإن عرف الإنسان بعض الحقيقة من نفسه فأكثر الحقيقة لا يعرفه إلا من سواه، ومن أجل ذلك يقضى نظام الحياة بما نسميه «الحظ» وإن كنا لا نفهمه كما يقضى به نظام الحياة، وإنما قوة الحركة وضعفها على حسب ما يراد بها فى الدفع والجذب؛ فكن واثقاً بالله مؤمناً بالقدر خير وشره، فالثقة وحدها حظ عظيم؛ والله تعالى يصيب الناس بنياتهم، إذ هى حقائقهم الصريحة، وإذ هو وحده المطلع عليها؛ فهو يوفق السعداء للنية الحسنة ثم يسعدهم بهذه النية على الوجه الذى يعلم أنه من سعادتهم، فإن لم يكن لهم الحظ الذى يريدونه فلهم الحظ الذى يلائمهم، وربما كان زمام العافية بيد البلاء وكانت النعمة فى عاقبة المصيبة، وكان الإنسان عابساً من طلعة القدر والقدر يضحك له!

وإذا لم يكن للأقدار نواميس أرضية تجرى عليها وتقع بحسبها فإن أقرب ما يصح أن يعد من نواميسها فيما أرى هو نيات الناس.

وما النية إلا خلاصة الفكر والضمير ونتاج ما بينهما، فلا تنطو على ما يسوؤك أن تنم به السنة الغيب وإنما الحوادث من هذه



الألسنة ولا تعقد هوى ضميرك على ما تحسبه أملاً من حيث لا يكون إلا حسداً للناس ولا يعقب إلا نكداً لنفسك، وما تظنه عزماً منك وهو طمع في الله ومخادعة للقدر .

وحسبك من المتاجرة مع السماء بضاعة صالحة من الإيمان الذي لا غش فيه، ومن المتاجرة مع الأرض بضاعة طيبة من النية التي لا دنس فيها، فإن ربحك من هذه البضاعة التي لا تكسد في أسواق السماء والأرض، أن يلقي الله عليك محبة منه وتأييداً وسكينة؛ وإن رأى الناس أنك خسرت شيئاً من الغنى أو الجاه أو متاع الدنيا، فإنما تعلم أنت يقيناً أنك لم تخسر إلا الهم والشقاء والتعب بالدنيا وأهلها .

ويومئذ يكون لك من حسن الإيمان، وحسن النية، وحسن الأخلاق، ما نعرف منه كيف يكون «حسن الحظ» .

\*\*\*



الحرب (١)

رقعة من الأرض كأن فيها شيئاً من الطينة التي خلق منها الإنسان، فهي تُمطرُ من دماؤه، وكأنما عرفته في سماء الله فلا يكاد ينزل بها الجيشان حتى تعد أرواح أكثرهم إلى سمائه؛ ينجذب إليها الجندي لأن فيها ترابه بل لأن فيه من ترابها، وينطرح عليها لأن اقتراب منيته في اقترابها، ولا تزال تصرعه وكأنها من شوقها تضمه، وتلقيه على صدرها ميتاً أو جريحاً كأنها تُعلمه بذلك أن الأرض أمه، وهي مزرعة الموت، نباتها الرؤوس فمنها قائم وحصيد، وثمراتها النفوس فمنها داني القطاف ومنها بعيد؛ وقد رواها بالدم الحى فنبت فيها العظم وأثمر فيها الحديد!

بل هي ساحة الحرب ترفع عليها القوة راية وتنزل راية، ويحشر إلى مسرحها الناس ليمثل لهم الموت، كل يوم رواية؛ وقد اضطربت فيها الآجال فكأنها أمواج في بحر القدر زاخرة، وتناثر فيها الرجال، فكأنهم عظام في بعض المقابر ناخرة، وظهرت تلك

(١) هي الحرب العظمى التي ارتكس فيها العالم سنة ١٩١٤ للميلاد، وبلغ ما أنفقته الدول عليها مائة ألف مليار ذهباً، وهلك وتعطل بها نحو ثلاثين مليون نسمة، فكانت حصاداً للأرض وأهلها، وعمل فيه الموت والخراب جميعاً، وقد كتب «المساكين» في سنة ١٩١٦ قبل الهدنة بستين.





الساحة وقد كشرت عن أنياب من السيوف وأسنان من الأسنة كأنها لأهل الدنيا قهرُ الآخرة .

أما الجنود فإذا رأيتهم يلتحمون قلت زلازل الأرض قد خلقت على ظهرها ، وإذا شهدتهم يقتحمون خلت نفوس الكرام قد حملت على دهرها ، وقد أيقنوا أنهم إن لم يكونوا للموت كانوا للأسر ، ومن لم يبين منهم على «الفتح» بنى على «الكسر» ؛ وما منهم إلا من يحمل رأساً كأنه لا يملكه ، على عنق لا يدرى كيف يمسكه ، فى بدن لا يعرفُ يأخذه الموت أم يتركه ؛ فهو لا يبالي أظلمت الشمس أم أظلم عليه الرمس ؛ ونهض للتاريخ مع الغدأم ذهب فى التاريخ مع الأمس .

وإذا كان من صفة الميت أنه اسم فى الحياة بغير جسم ، فمن صفة هذا الحى أنه جسم يعيش بغير اسم ، وما الجندى إلا عدد فى فى حساب الحرب ، فسيان قطعه «الطرح» أم أخذه «الضرب» . . وإنما هو حيث يتهيأ له انتظار الأقدار ، إلا الصبر ، ولو فى بطن القبر ؛ وحيث يطبخ له النصر على «النار» فشم المكان ، ولو فى جوف البركان ؛ وآية عقله أن يكون كالألة المتقنة تعمل بلا عقل فلا يخشى الجيف ؛ ولا يسأل لماذا ولا كيف ؛ ومن ذكائه أن يكون من صحة الذهن . . بحيث لا يفرق فى الموت بين الجمر والتمر ، وأن يكون من «خفة الروح» بحيث تحمله اللفظة الخفيفة على جناح الأمر .



وما الحرب إلا أن يتنازع الناس على الحياة فيقيموا الموت قاضياً، ويطلبوا من الشريعة المدونة في صفائح السيوف حكماً على الحياة ماضياً، فكلا الفريقين يُقدّم الحجج، من المهج، ويتكلم باللسنة الروح من أفواه الجروح، ويأتى من بلاغة الموت فى خصامه بكل «ضرب»؛ ويُجرى الحياة مجرى «الاستعارة» فى «بيان» الحرب.

وقد تواقف الرجال فى يوم أطول من يوم العرض، وتقاذفوا بالأجال حتى أوشكت السماء لكثرة ما ينزل منها أن تقع على الأرض، فالخيل منقضة كأنها صواعق أرسلها الموت فى أعنة، أو نوازع من السحاب يروقها الصوارم والأسنة، مسرعة كأنها تسابق تلك المنايا التى جرت بها الأقدار. جائلة كأنما تحيرت كيف تفر من ساحة الموت بما حملت من الأعمار، وعلى ظهورها كل فارس كأنه بين الرماح أسد فى غاب وكان الموت من سيفه سم خلق فى ناب، وكان العنان فى يده سوط ولكنه سوط عذاب، لم يُعدّ فى الفرسان، حتى لم يعد من الإنسان، فإذا صاح بقرنه عرفت الوحوش ذلك الصوت، وإذا هاجته الحرب لم يفته من ضروب النعمة فوت، وإذا نظر فى مقتل عدوه حسبت عينيه نقطتين على تاء الموت.

وقد ثار الغبار كأنه طريق يُمد من الأرض إلى السماء، أو كأنما أراد أن يُمثل السحاب وقد رأى المطر تمثله الدماء، أو كأنه أرض ثامنة بدأت تتخلق مبعثرة فى الفضاء، أو كأنه لما رأى الحرب تتوقد هب مستجيراً بالهواء من الرّمضاء، أو هو قد فر من الأرض لما خشى أن تنفلق الأرض من حوافر الخيل، أو كأنه أنف أن يأتى



الناس أعمال اللصوص في نور الشمس فضرب عليهم قبة من الليل، أو حسب عقول الجند في أيديهم وأرجلهم... (١) فطار ينظر أين تلك الهام، أو هو لما رأى المطر أحمر خشى على الأرض فثار إلى السماء ينظر ماذا دهى الغمام.

وقد رمت الأرض تلك المدافع بزلزالتها، وألقت على الجنود صوراً من شر أفعالها، فتركتهم كالغابة الملتفة إذا استطار فيها الحريق، وانحطَّ فريق من أشجارها على فريق؛ وكأنما انقض عليهم من قنابلها جدارٌ من الجحيم، وكان كل مدفع في صيحة الحرب إنما هو عنق شيطان رجيم.

تحمل في بطونها أجنة من النار ترتعد الحصون لهول ميلادها، وتتحنى القلاع مخافة منها على أولادها (٢)، ولها صوت بعيد كأنما تنادى به السماء لترسل المنايا الطارقة، أو لتستقبل الأرواح المفارقة أو كأنه نشيد فخم تفتخر به الأرض على الرعد والصاعقة.

وهي القارعة وما أدراك ما القارعة، أما يومها فيوم يكون الناس كالفرّاش المبعوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٣)؛ وهو إن لم يكن يوم النفخ في الصور فإنه يوم تحصيل ما في الصدور (٤)، وإن لم يكن يوم يُبعثر من في القبور فإنه يوم يُبعثر الناس في القبور.

(١) لأن أعمالهم كلها من البطش والفتك بالأيدى والأرجل.

(٢) هم الجند.

(٣) العهن: الصوف وهذه الكلمات اقتباس من القرآن الكريم.

(٤) المراد هنا تحصيل الأرواح، والكلمات أيضاً اقتباس.



وهو المدفع حسبه قوة أنه من الحديد، وحسب ما يحويه قولُ الله عز وجل ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] وحسبه رُعباً أنه شكل (عصرى) من عذاب الخسف القديم أعده الله لهذا الإنسان الجديد . . . ، فكم من حصن منيع اعتز به أهله، فتركهم فيه تراباً وعظاماً، وكم من قلعة شامخة اغترَّ الجندُ بقواها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها<sup>(١)</sup>.

وأما الرصاص فهو من سماء الموت حَبُّ غمامه، وله صفيير كأنه ترخم الشيطان ببعض أنغامه؛ ولو أن عاصفة كُنست أرض الجحيم لما شوت الوجوه بأشد من ناره، ولا حملت من هناك إلا ما تحسب هذا الرصاص من حصاه وغباره، يثور كما تثور الأعاصير، ويندفع كما تندفع المقادير، ويقع على الأجسام بالأجل أو يطير، ويتناثر فكأن في السماء نجماً تفتت فسقط، أو كأن قطعة ذابت من الشمس فألقت على وجوه الناس هذه النقط، أو هو فوج<sup>(٢)</sup> من ذباب النار، هبط إلى هذه الدار؛ فلا همَّ له إلا الجلود وإنضاجها بلذعه، والعيون وإخراجها بنزعه؛ والعروق واستخلاصها، والدماء وامتصاصها، والأرواح بعد ذلك واقتناصها.

وكأنه زفرات غير أنها لا تخرج من الصدر بل تنزل فيه، ولولا أنها تشويه ولا تشفيه. وهو أوقع في الرءوس من الأوهام وأنفذ في

(١) دمدم عليهم: طحنهم فأهلكهم، والجملته من قوله تعالى: ﴿قدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾ [الشمس: ١٤].

(٢) الطائفة أو الجماعة.





الأغراض من مكاييد الأفهام، وأحرُّ على الأكباد من كل ما يُضرم غضب الجبار المغيظ، وما هو إلا العذاب الرفيع إن كان المدفع هو العذاب الغليظ . . .

\*\*\*

وهناك من الروع ما لا يُحصيه الوصف ولا يحصّله، وإن عرفت آلة التصوير كيف تجمله فليس يعرف القلم كيف يفصّله؛ ولعمري لو كان البحر الأسود في المحبرة، لما بلغ في وصف هذه المقبرة، غير أنها الحرب التي ابتدعتها العلم لهلاك الإنسان، والقوة التي رزقها العقل فكانت بلاء على الأبدان.

قوة المعجزات التي أركبت هذه الديانة الإنسانية على متن الغمام، وطوت لها من السماء بين جناحي النور والظلام، فإذا سمت (الطيارة) خفض لها السحاب جناح الذل وأقبلت الملائكة تسأل ربها ما هذا الجزء من العالم بل ما هذا ككل، وما هذه الجرادة التي رأسها في ظهرها<sup>(١)</sup>، وسرها في جهرها . بل ما هذه الحياة الأرضية التي عرجت في السماء فخرجت من حدود دهرها، وما هذا العقل الإنساني الذي لا يوزع جأشه<sup>(٢)</sup> والذي يرفعه إلى السماء ارتعاشه وهو مع ذلك يندفع على أهله بالويل اندفاع السيل، ويطلع نصفه كالنور على الأرض<sup>(٣)</sup> ليطلع نصفه الآخر كالليل؟ .

(١) المراد برأسها الطيار الذي يركبها، لأنه يكون في ظهر الطيارة.

(٢) كناية عن عدم الاضطراب والخوف.

(٣) كناية عن المخترعات والأعمال النافعة مما به قوام العمران، ومنه قولهم:

«العلم نور».



وهي الحرب العامة كأنها ثورة الدهر وقد ضجر من هذا العلم وطغيانه، ومل من سماجة إنسانه؛ واشتاق إلى عصر حيوانه، فزفر زفرة أيقظت الموت وكان نائماً، وتركت هذا الإنسان من الفزع لجنبه أو قاعداً أو قائماً؛ واستنزلت من القضاء ما كان في علم الله غيباً؛ واشتعل من هولها رأس الأرض ببياض السيوف شيباً؛ وجعلت من البيوت قبوراً لأهلها، وسارت في معاش الناس بين صعبتها وسهولها، وأظهرت لعقول العلماء أن أكثر علمها من فنون جهلها...؛ فالأرض في بلاء منتشر لا يُعرف له حجم، والشعوب في ظلام من اليأس ملتهب النجم، والدول في عصر كليل الشياطين كله رجم...

\*\*\*

قال «الشيخ عليّ»: تلك هي الحرب القائمة ولكن كما ترى خيال النار في الماء؛ أما الحقيقة فكل حرف منها جيش، وكل كلمة أمة، ووراء ذلك معنى رائع هو استجماع الحياة الأرضية لمقابلة الموت. ولو أن لهذا الكون مرضاً يعتريه كما تعترى الناس أمراضهم لقلت إن شقَّ الأرض قد ضُربَ بالفالج<sup>(١)</sup> فأصبح شقها الآخر لا يكاد يجرُّ ظله حول الشمس، لأن الحركة مقسومة بينه وبين ذلك النصف الميت؛ فقد اشتبكت العلائق بين دول الأرض جميعاً، إذ لا تعرف دولة بين الناس ترعى شعباً من البهائم، ولم بدأ الإنسان يعرف نفسه في عصر العلم والمدنية عرف أخاه، لأن أكثر حقيقته

(١) هو المرض المعروف، وهو استرخاء لأحد شقي البدن.



الإنسانية فيه ؛ ومن ثم اتصل به اتصال اليد بأختها فى المعاونة على ما يُسّرَت له كلتاهما ؛ وجمع العلم بين هذه الأمم لأنه لا ينتسب لواحدة منها وليس له فى الأرض خال ولا عم ، ولا يعرف شىء يقول العلم «يا بنى» ويقول له العلم «يا أبت» إلا التاريخ الإنسانى .

ولها سَفَر بين أم الأرض كلُّ ما يخرج من رأس الإنسان وما ينتج من يده . واتصل ذلك واستفاض حتى كأنما دارت الأرض دورة جديدة من داخلها ، فما إن يقع الاضطراب فى ناحية منها إلا دخلها من الأثر فى سائر نواحيها ، من هزة ترجف ، إلى زلزلة تهدم ، إلى الخسف الذى يجعل عاليها سافلها .

وإنى باسطُ لك شيئاً من الرأى فى كلمات قليلة ، ولكنها كالمعركة الأخيرة التى يحقُّ بها النصر ، فتكون هى تاريخ الحياة ولا يكون ما سبقها إلا تاريخاً للموت .

ألا فلتعلم أنه لو كان لحوادث الدهر منذ نشأ الدهر تاريخ صحيح يصف لنا ما كان سبباً فى كل حادثة وما صارت كل حادثة سبباً فيه ، لأثبتَ يقيناً أن ليس فى الأرض شىء من خير أو شر غير ما يلزم لبناء هذا التاريخ الأرضى على الوجه الذى يتفق مع بناء الإنسان ، والتاريخ يطرد حيناً ثم يعطف ههنا وههنا فى مجراه من الغيب ، فلا يتحول إلا انشقت له ناحية من العالم .

فإن خربت دولة أو سقطت أمة فما هى بصاحبة الدهر كله ، وقد كان لها قسمها منه ثم عاد الدهر يطلب قسمه منها . ولن يُجددَّ البناء القديم حتى يكون الهدم أول العمل فى تجديده .



فالْحَرْبُ شَرٌّ لَا بَدَّ مِنْهُ ، لِأَنَّهَا مِنْ عَوَامِلِ التَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ فِي تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَهِيَ بِذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ اسْتِمْرَارِهِ . وَكُلُّ شَرٍّ لَا بَدَّ مِنْهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَا غِنَى عَنْهُ . . . . وَهَلْ يَبْتَغِي الْإِنْسَانُ أَنْ تُضْرَبَ الْعَصُورُ وَالدُّوَلُ كَمَا تُضْرَبُ الدَّنَانِيرُ وَالدَّرَاهِمُ مِنْ مَعْدِنٍ مَعْرُوفٍ عَلَى وَجْهِ مَعْرُوفٍ وَلِغَايَةِ مَعْرُوفَةٍ ؟ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَنَا مُسْتَقْبَلُ التَّارِيخِ وَكُنَّا فِي عَمْرٍ مَحْدُودٍ فِيمَا نَحْنُ وَالرَّأْيُ فِي بِنَاءِ هَذَا الْمُسْتَقْبَلِ ، وَكَيْفَ نَقْدِمُ آلَاتِ الْبِنَاءِ ثُمَّ نُحْكِمَ الشَّرْطَ أَنْ لَا يَكُونَ فِي هَذِهِ الْآلَاتِ مَا يَحْتَقِرُ أَوْ يَكْسِرُ أَوْ يَرْضُ .

إنما يجعل للحرب ذلك الوصف الذي يُطير لها كل أرض صوتاً<sup>(١)</sup> بالذم والسوء ، أنها لا تأتي إلا بغتة ، ولا تطبق إلا في غفلات العيش ، وأنها تثور في بياض الأمن حمراء من لون الموت ، وتطلع في خصب النعمة سوداء من لون القحط ، وتنبثق بالشر من حيث يكون الشرُّ مأموناً وتصب المحنة على من لا يطيقها ، ثم لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تلف من جانبي الحياة لفاً ، وهي في كل ذلك البلية المكشوفة التي تشتهرها الأحاديث<sup>(٢)</sup> ، وتضرب فيها الألسنة ، وتسيل عليها الأوهام بما في طباع الناس من طبقات الأخلاق ضعفاً وشدة ، وخوفاً وطمعاً ، وبخلاً وكرماً ، وحذراً واندفاعاً ، بحيث تصبح وكأنما ترتمي على رأس كل إنسان بالموت ، أو بالخوف من الموت ، أو بالخبر عن الموت أو بما يشبه الموت ، أو بما يكون الموتُ خيراً منه ! .

(١) كناية عن تحدث الناس عنها بدمها .

(٢) تدمها وتشهر بها .





وإلا فكم يترضض الناس<sup>(١)</sup> كل يوم، وكم يجدون من صنوف الدمار فى الأعمار ومن ضررب الأرزاء فى الأرزاق، ما لو جمع بعضه إلى بعض فى نسق واحد لطمَّ على هذه الحروب كلَّها، ولأظهر لك أن فى السَّلم ما هو شر من الحرب وإن لم يصرخ به صوت الموت .

وما البغى والظلم والكيد والفتنة والاستبداد ونحوها مما يشمل أكثر وسائل الحياة الإنسانية إلا ضررب من القتل الخفى، وربما عدَّ الموت فى بعضها راحة من الموت . . . ، ولكن ذهب بإثمها فى اصطلاح الناس أنها خططُ موضوعة للمغالبة على الحياة؛ وأنها لا تنالهم إلا فرداً فرداً، وكأن باطل الأمم غير باطل الأفراد، لأن الاجتماع قضى منذ أول العهد به أن تكون الأمة مظهر السرعة وأن يكون الفرد مظهر العقاب، ولكن ليت شعرى لمَ يكون الفرد كذلك من الأمة ولا تكون الأمة كذلك من أمة غيرها؟

فالحرب هى عقاب الجماعات، وهى كذلك ضرورة اجتماعية، ولن يخلو منها تاريخ الإنسان إلا إذا رجع الناس أمة واحدة فى تركيب مستحيل لا يتهىأ أبد الدهر ما يقسم هذه الأمة على نفسها، ولعمرى إن ذلك التركيب الاجتماعى الذى يخلو من الحروب ليزهد الناس فى جنة الله ولا يدع للأديان محلاً على الأرض، ويحسبون أنه صلاح فى الطبيعة وهو يفسد الطبيعة كلها، فما هو إلا خيال شعرى فى تاريخ الحقيقة الإنسانية؛ وما أرى الحرب إلا البرهان الذى تقيمه الطبيعة أحياناً على فساد ذلك الخيال كلما أوشك الضعف الإنسانى أن يتوهمه حقيقة . . .

(١) يتكسرون، يقال: ترضض الحجر: إذا تكسر.



وإذا كان الله لم يخلق إنساناً من النور فلا تظلم نفسه ، ولا من الثلج فلا يحمى دمه ، ولا من الصخر فلا يهن كاهله ، ولا من الحل فلا يحيف على غيره ؛ ولا من الرضا فلا يطمع فى سواه ، ولا من الكتمان فلا تخرج أضغانه ، ولا من السكون فلا يتحرك فى نزاع ؛ فكيف لعمري يخلق بعض الكتاب والفلاسفة هذا الإنسان الجديد من عناصر السلم وحدها؟ .

ألا إن الإنسان لا يولد ساكناً ولا نظيفاً ، وإنما يخرج من بطن أمه فى ثورة دموية تنفجر من حوله ههنا وههنا ؛ وما أرى الحربَ أكثرَ ما تكون إلا ولادة للتاريخ على هذا الأسلوب ، فكأن من التاريخ ما يولد على أسلوب الحيوان فى ثورة من الدم ، ومنه ما يوجد على أسلوب النبات فى تحول ساكن غير منظور .

قال «الشيخ على» : والحركات المجهولة فى نظام الأرض كثيرة ، بعضها يجرى على الطبيعة وبعضها يجرى على الإنسان ؛ فكما يُدكُّ الجبل وتخشفُ الأرض ويغطى الماء وتشور العواصف وتتفجر البراكين ، يجرى على الإنسان من مثل ذلك القحط والوباء والحروب وغيرها ؛ لأن الإنسان فى الحقيقة هو الطبيعة الرفيعة ، وما القوة المركبة فيه التى تخرج من مجموع غرائزه إلا تهيئة حربية فى نفسه<sup>(١)</sup> .

فلولا أن هذا الإنسان مهياً للحروب بأدواتها الطبيعية ، وأن هذه الأدوات هى كذلك من أسباب بقائه اللازمة له ، لما قامت فى الأرض حرب قط ، ولو أبعدنا فى مطارح الفكر ونظرنا من وراء

(١) لو لست الغرائز الإنسانية مادة لما لبست إلا الأسلحة .



النفوس الإنسانية إلى ميادين القتال لرأينا أن الحرب التي تقوم بين الأحياء إنما هي حرب قائمة بين مذاهب الحياة .

وكما يجتمع العلماء وأهل السياسة لتنقيح الأنظمة والقوانين ، تجتمع الأمم المتحاربة لتنقيح الطباع والعادات ؛ وما أعجب أن يكون القتل تنقيحاً في قانون الحياة<sup>(١)</sup> . . . فلا تنظر من الحروب إلى هؤلاء المساكين والمتوجعين والمحزونين ؛ فذلك كله إلى نهاية ولا يبقى منه على الأرض شيء قلّ أو كثر ولا أحرق ممن ينظر ساعة الهدم إلى آثار الهدم ولا يعلم أن ذلك سبب لما بعده ، وأنه إذا لم يهلك يومٌ في سبيل الغد هلك المستقبل كله .

(١) من تمام هذا المعنى ما ذكرناه في كتابنا «تحت القرآن - المعركة بين القديم والجديد» في كلامنا عن فساد الحضارة الغربية ، ننقله توفية للفائدة «الروح الإنسانية متى أصبحت موتورة ساخطة متبرمة بأسباب مختلفة كأسباب هذه المدنية من سياسية واجتماعية ووطنية ، لم تكن روح الحياة ولكن روح القتل وما في حكمه ، ومن ثم فلا بد في هذه الحضارة من انفجارات حربية مستمرة ، ولا بد لها أن تجد من تقتله ومن تظلمه ومن تستعبده ! وإذا تجازت الدول وتنازكت زماً فإنها يسمن بعضها بعضاً في مراعى السلم والعيش وكل أمة عينها على شحم الأخرى . . . !

«ولقد كانت الحرب العظمى تنقيحاً إلهياً عنيفاً لهذه الحضارة الزائفة ، فوضع الله يده عليها فمحت أكثر حسناتها ورقائقها وطرفها البديعة ، وأميتت طباع الترف لتنبعث طباع القوة ، وقرّ في الرجل معنى الرجل وفي المرأة معنى المرأة ، وكانا قبل ذلك وإن الرجل نصف امرأة . . . وإن المرأة ضعف نفسها ، فكان الحرب كانت مصفاة للحضارة ثقبها الخرائب والخنادق والقبور ، ومن جمعت الأوساخ بعد زمن فالمصفاة باقية» .



ولكن متى تكون الحرب حقاً ومتى تكون باطلاً؟ فهذا ما لا سبيل إلى وجه الرأي فيه، وربما كان الجواب عليه سؤالاً آخر، وهو: متى تُعرض في حياة الناس تلك المسائل التي لا يصلحون هم أنفسهم لحلها؟ ومتى تكون الحركة العنيفة التي يتحول بها التاريخ الإنساني كلما وجب أن يتحرف ليتبع مجراه من الغيب؟

أليس ذلك هو السبب في أن العقل أحياناً يكون أول ما ينهزم في الحرب كما تراه اليوم<sup>(١)</sup>، فيصبح الفلاسفة والعلماء المتفنون ولا هم لهم إلا إدارة حركة الموت هجوماً ودفاعاً، وترى الصلوات والأدعية والتسابيح تصاعد إلى الله وفيها ريح الدم والنار والغازات، كأنها قنابل صنعت من العواطف؟

وقد يقول بعضهم إن في الحرب إسرافاً اجتماعياً بما تأخذ من الموتى وما تترك من المرضى؛ ولكن كم من الإسراف الطبيعي والأخلاقى بقاء الناس موفورين بعلومهم وفنونهم وشهواتهم ونعمهم ومصائبهم ونحوها، مما يؤدي إلى انطواء هذا المجتمع الإنساني في الأدمغة والقلوب بما تبعث عليه تكاليف الحياة الاجتماعية السامية التي تحاول أن تجعل الإنسان حيواناً على شكل مخترع.

فلا تُرَيْنَ يا بني هذه الوحشية التي تعترى الناس في حروبهم إلا سبباً في رجوعهم بعد ذلك إلى الإنسانية الخالصة التي أفسدوها

(١) كانت الحرب العظمى حرب مخترعات فاتكة جهنمية لم يعرفها تاريخ الإنسانية من قبل، كأنما يجربون أن يخترعوا جهنم.





بحضارتهم وضربوا عليها الحدود من مصطلحات التمدن ومن  
أصول المعاملة ، فأصبح الإنسان منهم يقضى العمر وهو يتعلم كيف  
يصير إنساناً . . . !

وأنا يا بنى فى خاصة نفسى أكره الحرب ، لأنى أراها تصور بكل  
ألوان الهلاك والخراب فكرة العدم المبهمة عل قطعة من أديم  
الأرض ، وأمقتها لأنها تلوث الحياة بدماء الرجال ثم لا تغسلها إلا  
بدموع النساء والأطفال ، وأبغضها لأنها تدفن تاريخها الصحيح  
المستقبل ولا تترك للحاضر إلا تاريخها المشوه فى أعضاء الجرحى ،  
ولكن البغض يا بنى لا ينفى الحكمة مما تبغضه ؛ وما سرور نصف  
الناس إلا بما يكره النصف الآخر !

وأكبر شخص اجتماعى وهو الأمة ، كأصغر شخص اجتماعى  
وهو الطفل : كلاهما يبكى ويتألم حين يضرب لتأديبه .

(قال «الشيخ على» : وهذا آخر قول الشيخ على . . . )

\*\*\*



على الكوكب الهاوى

حسناء أفقرتها الحرب، وكيف تلقاها الحقيقة؟

طريدةٌ بؤس مل من بؤسها الصبرُ  
وطالت على الغبراء أيامها الغُبرُ  
تنكرت الدنيا لها ورمت بها  
على الكوكب الهاوى حواه فضا قفر  
وكانت كما شاءت وشاءَ جمالها  
كما اشتتهت العُلّيا كما وصف الشعر  
تلاّأ في صدر المكارم درة  
يُحيط بها من عقد أنسابها دُرُ  
وما برحت ترقى السنين وتعتلى  
وكلُّ المعالى فى طفولتها حجرُ  
فكانت كزهر نضر الفجر حسنه  
ولما علمت كالنجم أطفأها الفجر!

\*\*\*

رمى الدهرُ أهليها بحرب ولم يُرد  
بها الشرُّ لكن الحروب هى الشر



ومن يحطم الكأس الروية وحدها  
فقد ذهب اثنان: الزجاجة والخمر  
تقاسمت لحسن الإلهي وانثنى  
يقاسمها، فالأمر بينهما أمر  
فللشمس منها طلعة الحسن مُشرقاً  
وفيهما من الشمي التوقيد والجمر  
وللزهر منها نفحة الحسن عاطراً  
وفيهما ذبولٌ مثلما ذبل الزهر  
وللظبي منها مُلتقاها وجيدها  
وفيهما من الظبي التلفت والذعر  
وما قيمة الحسناء يقبُحُ حظها  
وتذوى بروض الحب أيامها الخضر  
من الحسن معنى يهلك السن عنده  
كما أهلك الأزهار أن يؤخذ العطر  
فما السنُ فخر للحسان وإنما  
لخالقه فيما يريد به سر

\*\*\*



ضعيفة أنفاس المنى بعد ما غدت  
رقابُ أمانيتها يُغللها الفقرُ  
وبين خُطى أيامها كل عشرة  
يزلزلُ أقدام الحياة بها العُسر  
وزجت بها الأحزان في بحر دمعها  
وليس لبحر الدمع في أرضنا بر  
يقاذفها موج الليالى ومالها  
سوى زورق واه يقال له العُمر  
وما التمت رأس الرجا عند صخرة  
فكان سوى الردى ذلك الصخر  
إذا استنبأوها أرسلت من دموعها  
لآلى حزن كل لؤلؤة فكر  
وإن سألوها جُلجَتُ فكأنما  
عرا اللفظ لما مر من فمها سُكر  
مُشردةٌ حيرى تنازعَ نفسها  
فريقان ذل لم تعوده والكُبر  
وما قتل الذلُ امرأ من عبیده  
وكم من فتى يرمى بهامته الفخر





ولو أنصف الإنسان في قدر نفسه  
 رأى قدرها أن لا يهون لها قدر  
 فلا تتساءل كيف تقعد وادعاً  
 ولكن نتساءل كيف يسعى بك الذكر  
 وكن رجلاً كالضرس يرسو مكانه  
 ليطحن، لا يعينه حلو ولا مر  
 ولا تتوقع أي جنبيك واقع  
 إذا انطبقت يوماً حوادثها النكر  
 ولكن تلق الدهر غير مفزع  
 بصدرك ولتعر الخطوب كما تعرو  
 فعز الحسام الهندواني صدره  
 وذل العصا أن العصا كلها ظهر  
 ولن يهين الحر انتضى عزماته  
 وصال بها من صبره الخلق الحر  
 وإن تغلب الأبطال في كل حومة  
 فما عرفت حر بها غلب الصبر!

\*\*\*



وليلة هم ما يطير غرابها  
ولا انحط من وكر الصباح له نسر  
تطل عليها الشهبُ أعينِ نعمة  
تطائر فيما بينها النظر الشزر  
ويزفر فيها الليلُ زفرةً مارد  
تطير لها من بَرَقِ الشَّمَلِ الحمر  
ويخفق في أحنائها كلُّ عاصف  
خفوق فؤاد بات يُسلمه الصّدر  
ويغضب من آثامها الموت غضبة  
يُرجُّ لها في كل ناحية قبرُ  
دُخانيَّةٌ هوجاء لو مُدّ نفعُها  
لقام على وادي الجحيم بها جسر  
وأهونُ ما في أرضها وسمائها  
على الناس ، هاتيك الحزينة والبدر<sup>(١)</sup>  
ثوتٌ تحتها تلك الفتاة عليه  
تنزُّ كما أزلتُ على نارها القدر

(١) حتى البدر لا بهجة له إلا في ليالي الصفاء، وفي غيرها يتصعلك في

سمائه.



وفى غرفة مما بنى الله لا الورى  
 فليس على من حلّ ساحتها أجر . . .  
 جوانبها شرق الظلام وغربه  
 وفى سقفها ضاءت كواكبه الزهر  
 ممددة كالسطر فى صفحة المنى  
 وأطمارها تبدو كما «شطب»<sup>(١)</sup> السطر  
 فإن يك أهل الأرض أرقام حاسب  
 فتلك وراء العالمين هى الصفر

###

رمت عينها يمنى ويسرى فلم تجد  
 على الأرض خلقاً ليس فى جنبه غدر  
 رأت كل مخزاة من الشر تلتوى  
 ويهرب ذعراً من جنائتها العذر  
 رأت أثراً تدنى به الأرض والسما  
 وليس سوى الإنسان فى جرحه ظفر

(١) هذه الكلمة مما استعمله المولدون، وفصيحتها الترميج، وهو إفساد الأسطر بعد كتابتها، وفى معناها ألفاظ أخرى.



رأت ذلك الإنسان يطغى بعلمه  
ويجهل أن العلم عن جهله زجر  
أليس يرى الإنسان فى القرد شبهه  
فهل ذاك إلا من تكبره سخر  
كما عاقب الله الأسود لكبرها  
فحاء لنا فى صورة الأسد الهر  
رأت هذه الحرب الضروس كأنها  
مراحل يطويها من الزمن الحشر  
وما حمد الشيطان للناس مثلها  
ولا كان للشيطان فى مثلها شكر  
وما الحرب إلا رجفة الأرض رجفة .  
يموت بها عصر ليحيا بها عصر  
وما الحرب إلا مطرة دموية  
إذا دنست روح الورى فهى الطهر  
وما الحرب إلا غضبة الله لامست  
مخازى الدهر فانفجر الدهر





فيارب، جلّت هذه الحرب محنة  
 على الناس، لا الإيمان منها ولا الكفر  
 ففي كل نفس غصة ما تسيغها  
 وفي كل قلب كسرة ما لها جبر  
 وبين شفاه الناس للناس لعنة  
 إذا لم يشرها الحق ثار بها الخسر  
 وما لوت الأسياف في الأرض عروة  
 من البغض إلا والرؤوس لها زر  
 فلا تخذعوا الإنسان عن نزغاته  
 فما الناس إلا ما أساءوا وما سروا  
 وكم قيل «إنسانية ومحبة  
 وعلم وتمدين» وأشباهها الكثر  
 فيا قدرًا يجرى دماء ويلتظي  
 سعيرًا، أذاك الحب أنت أم الهجر  
 ويا هذه لا تجحدي، إنما الورى  
 كما خلقوا والمكر بعد هو المكر



وأين من الناس الكمال ولم نزل  
نرى السود سوداً ليس يغسلهم بحر  
ولابد من ضدين في كل حالة  
وبينهما إما النجاة أو الأسر  
بذلك يجبر الغيب إن طار أو هوى  
فإن جناحيه المنافع والضرر  
فلا تطمعى أن تُغفل الأرض أهلها  
ولا مدّ فوق البحر إلا له جزر  
ولا تطمعى أن «يرفع» المال أنفساً  
يُحركها من ذلّ مطمعها «الجر»  
ولا تأملى الأيام خضراً على المدى  
ففى كل حين يسقط الورق النضر  
ولا تسألى الزلزال ترقيص طفلة  
وأصغر ما فى كفه الجبل الوعر

\*\*\*

ألا إنما الدنيا سلاليم يرتقى  
بها الناس تغريم أو آخرها الغرُّ



نذروا عُلاها للكمال ، وعندهم  
من العلم أسباب يُقر لها السحر  
فما برحوا يرقون كل بعيده  
ولم يعلموا أين الكمال ولم يدروا  
فلما علوا واستحمقوا وتتابعوا  
وغيرهم بالله ذلك فاغثروا  
... تهاوؤوا على أعناقهم وتحطمت  
بهم درجات كان من فوقها النصر  
كذاك سلاليم الحياة ، فكلنا  
طموح لأعلاها وفي الوسط الكسر

\*\*\*



### الجمال والحب<sup>(١)</sup>

وكأنما أنظر الآن في قلب رجل لا في وجهه، إذ تهلل على السحاب وجه «الشيخ على» شيخ المساكين .  
أراه كما كنت أعرفه، ضاحكاً غير الضحك الذي يلبس وجوه الناس، فلا يضحك لشيء إنساني، بل ما هو إلا أن تراه قد تهلل فرفع وجهه إلى السماء وأرسل من فمه مثل نور التسبيح في إشراق جميل؛ حتى لقد كان يخيل حين أبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحك ولكن قلبه يرتعش بعضلات وجهه .

لو أراد الله بالناس خيراً لوضع في أبصارهم أشعة تنبث في أطواء القلوب فتعرف ألوان العواطف وتميزها لوناً من لون، ولكنه جعل الوجه غطاء على معاني القلب ثم سلط الفكر على معاني الوجه ومعارفه يصور فيها ما شاء مما له أصل في الحس وما لا أصل حتى ليختبئ الإنسان عن الإنسان وهو مكشوف لعينيه . . . وإذا كان الله سبحانه قد أوجد الخير والشر صريحين فقد أوجد الإنسان ثالثاً لهما وهو تلبيس أحدهما بالآخر؛ وأراد الخالق ذلك ويسره للإنسان فجعل فيه آلة واحدة للصدق وهي القلب، وألتين للكذب وجهه ولسانه .

(١) هذا هو الفصل الذي أشرنا إليه في تعليق صفحة ٤٤ نقله عن كتابنا (السحاب الأحمر) وقد وضع هناك (المساكين) الحب؛ وهو رأى من آراء كثيرة استوفيناها في ذلك الكتاب صنوه (الرسائل) .





كان «الشيخ على» يشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته<sup>(١)</sup> وكانت الدنيا كأنما نسيت أنه فيها فتركت له روحه صافية منطلقة تتطعم الحياة غير مستقرة في شيء كما يتطعم النسيم رائحته من ورق الزهر فهو يتسحب عليه ولا يستقر فيه ولو أنه ورق الزهر .

وما زالت روح هذا الرجل منى منذ عرفته كأنها نضاحة عطر<sup>(٢)</sup> تمج رشاشها على حياتي روحاً وعبيراً وندى، وكان الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي يملأ ما حوله ابتساماً وطفولة ورقة؛ ولو أن أحداً خلق من عيني الطفل الضاحكتين لكان هو -الشيخ على- رحمه الله، على أنه كان رجلاً من سوسه القوة معصوباً متكديساً<sup>(٣)</sup> يملأ جلده كأنه جذل من أجذال الشجر<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

وانقبضت نفسى انقباضة شديدة إذ تغير الرجل فى خيالى<sup>(٥)</sup>،

(١) أكثر من ترى الناس لهم حظوظ الإنسان ولا إنسانية فيهم والشيخ على لم يكن له من حظ الإنسان إلا الجرعة واللحمة وغمضة العين .

(٢) رشاشة العطر وهى وضعناها لكلمة (vaporisateur) ويسميتها العامة «بخيخة العطر» .

(٣) المتكديس: الممتلى عضلاً، والمعصوب: الشديد طى الجسم بعضه على بعض، ومن سوسه: أى أصلبه وطبيعته أو كما يقول العامة «من عوده» .

(٤) ما عظم من أصولها .

(٥) أى حين ظهر على السحاب الأحمر، وكنا نستوحى ذلك الكتاب من أرواح نتخيلها فى شعاع أحمر كما وصفناه فى أوله .



فنظر إلى نظرة ينقذح منها شرر الغيظ ، فلو أبصرت عيناك طائراً  
ضعيفاً أراغه نسر فاستطرده في نواحي الجو وهكذا وهكذا<sup>(١)</sup> ، ثم  
أهوى له بمخالبه ، ثم سدد إليه نظرة غرزت هذه المخالب وانفجرت  
بآلام لحمه ودمه ؛ فاعلم أن تلك هي نظرة «الشيخ» إلى .

ولقد تبعثت لها شياطين نفسى فانطلقت يحاول كل شيطان  
منها مهرباً ، وكانت توسوس في صدرى أن استمد من روح  
«الشيخ» قوله في الحب ، هذا الحب الذى مهما اعتبرته لم تجده إلا  
كإحياء الخيالات بقتل حقائقها ؛ ثم ما لبث أن استضحك وأطلق لى  
نفسى وجاشت عيناه بنظراتهما الحكيمة ، فقلت : ويحك يا نفس !  
إن عين «الشيخ» ترى من الجمال غير ما نرى ، ثم تعلم مما نظرت  
فيه ، ثم تقدره على حساب ما تعلم منه ؛ فما يدريك لعل هذا  
الرجل الروحانى لا يرى إلا ما وراء تلك البشرة الجميلة التى تكسو  
وجوه النساء الجميلات ، كما نبصر نحن من وجوه الموتى وقد تأكل  
جلدها وتناثر لحمها وبرزت عظاماً كسائر العظم من كل حيوان ؛ فلا  
موضع قبله ولا سحر نظرة ولا إشراق بسمة ، وما هو إلا تركيب  
من العظم صنع هذه الصنعة تيسيراً لما خلق الله ؛ ولعله يا نفس لو  
حشر الله لعينيك أجمل الجميلات فى صعيد واحد وحشر معهن  
إناث البهائم صنفاً ، ثم نزع من تلك الوجوه كلها ذلك طراز من  
الجلد وما وراءه من اللحم مزعة بعد مزعة<sup>(٢)</sup> حتى لا يبقى إلا

(١) أى هنا وهناك فراراً من الضعيف وطراداً من القوى .

(٢) هى القطعة من اللحم .



الوضع فى بناء العظام وهندستها ؛ فما يدريك لعل أجمل الجمال  
عندنا هنا لا يكون حينئذ إلا أقبح القبح هناك ! .

أفمن جلدة على وجه امرأة يجىء الشعر والجنون معاً ويجتمعان  
فى هذا الخيال الذى يسمى الحب ويستتر لان معانى التقديس من  
أعلى السماوات إلى عين تلحظ لحظة ، وشفة تبسم بسمه؟<sup>(١)</sup> .

إنه القلم الإلهى المبدع الحكيم هو الذى صور ولون وافتن ما  
شاء ؛ فإن رزقت امرأة جلدة جميلة مشرقة كأنما تجرى فيها  
الشمس : وألبست أخرى جلدة قبيحة سفعاء<sup>(٢)</sup> تجول فيها رهبة  
الظلمة ، فكلتاها صورة من صنع الله ، وكلتاها تظهر لونا من  
ألوان الحكمة ، وكلتاها جاءت لمعنى ، وكلتاها بعد غشاء زائل  
على وضع ثابت لا يختلف فى هذه ولا فى تلك ، وضع الحقيقة  
الجسمية التى تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة . والحياة لا تعرف البشرية  
إلا غطاء على ما وراءها أسود أو أبيض ، وكان من لون المرمر أو من  
هيئة الطين .

ولو أن كل وجه فى نساء الدنيا خلق دميما نافراً على أشبع ما  
نتصوره من القبح لكان كل الدنيا جميلات إذ يالف الطبع الإنسانى

(١) لرسائل الأحران والسحاب الأحمر فى فلسفة الجمال والحب : كتاب ثالث  
متمم لهما واسمه «أوراق الورد - رسائلها ورسائله» (وسنستوفى به ما بقى  
مما لم تثبته فى الكتابين ، وفى هذا الكتاب رسالة مفردة «وأنه أسلوب من  
أساليب الطبيعة لخداع صورة بشرية بصورة بشرية مثلها» .

(٢) السفع : سواد مشرب بحمرة ، والمراد به هنا فساد لون الوجه وقبحه  
وشاعته ..



تلك الصورة الواحدة ويتقرر بها الذوق في الجمال وتستمر بها العادة فلا يستبين وجه من وجه آخر في صفة ولا يخالف مذهب مذهباً في حالة .

ولكن هذا الإنسان كتب عليه الشقاء ؛ فخلق وخلق معه ما يطغيه وما يستفزه وما يخرج عن طوقه ، كما خلق له ما يزهده وما تطمئن به وما يحصره في إنسانيته فالجماليات والقبیحات كلهن سواء في أنهن نساء هذه الإنسانية لا تقصر في ذلك واحدة عن واحدة وإنما يتفاوتن في أسباب الشقاء الإنساني الذي يتلى الرجل بالمرأة ويمتحن المرأة بالرجل .

ولو سما عقل الرجل إلى الغاية العليا من كماله لرأى المرأة الجميلة الفاتنة في نصف جمال بالمرأة القبيحة ، ولبانت الواحدة عنده من الأخرى بأن الدميمة مهياة في نفسها لمعالي الأخلاق والجميلة مهياة لسفسافها<sup>(١)</sup> ؛ ولرأى مع هذه من بعض طباعها ونزغاتها شراً مما تقدم بها من جمال وجهها ، ومع تلك من أكثر طباعها وصفاتها خيراً مما قصر بها من حسن صورتها .

بيد أن من شقوة الطبع الإنساني أنه سخط القبح فأحاله فساداً وعبد الجمال فأحاله فساداً من نوع آخر ، إذ كان في نفرته وحببه لا يعتبر المنافع والحقائق ولكن الأهواء والشهوات ؛ والمنفعة والحقيقة كلتاها لا تكون إلا في قيودها ، أما الأهواء والشهوات فهي دائماً

(١) السفساف : الدنيء ، وأصله ما يتطاير من الغبار إذا أثير ومن الدقيق إذا نخل لأنه أهونهما ولا فائدة منه .





لا تقع إلا متخطية حدود العقل إما إلى النقص وإما إلى الزيادة ولا تغرى بشيء إلا أوقعت به السوء إذ لا يستوى في القصد ما خرج عن الحقيقة وما هو مقيد بالحقيقة .

\*\*\*

كان هذا وحى «الشيخ على» في نفسى غير أنى رددته عليه وأزلى شيطان الحب مرة أخرى فقلت : أفترى الشوهاء على ما بها مما ركع الدهر وسجد<sup>(١)</sup> ، ثم تلك المرارة التى سمج تركيبها فتحامتها العيون ، ثم الأخرى التى قمعت فى بيتها تختبئ فيه من القبح<sup>(٢)</sup> فصارت سرآ فى صدر الحيطان ، ثم تلك التى تلوح فى النساء كالسطر المضروب عليه أفسده الخطأ ، ثم المهزولة التى أدبر جسمها<sup>(٣)</sup> وتقبضت أعضاؤها وأصبحت جلدة تمشى وتتكلم . أفترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكلة فى ألوان الثياب كأنما تلبس بدنهما الجميل بدنًا معنويًا يدل على معانيه ، أو الأخرى التى تظهر فى جمالها الفتان عاطلة من كل حلية ومع ذلك ترف على حسنها روح الياقوت والماس واللؤلؤ مما عليها من البريق والشعاع أو المطوية المشوقة المسترسلة كأنها فى قوامها ووجهها غصن الجمال وزهرته ، أو الحسناء اللعوب المزاحة كأنما اجتمعت طباعها من نور

(١) كناية عن فقرها من الجمال وسقوطها فيه ، ويقال ركع للدهر وسجد إذا كان فقيراً ساقطاً وراء ما به من الذل .

(٢) هى القمعة «بوزن ملكة» وجمعها قمعات «كملكات» من تستر لما ابتليت به من قبح الصورة .

(٣) كاد يفنيها الهزال وتسمى المصوصة .



القمر أطل في ليلة من ليالى الربيع يداعب أوراق الورد النائمة!  
أو... أو تلك<sup>(١)</sup> «يا شيخ على»...؟

قال «الشيخ على»: فياويلك! وإنى والله بك من رجل  
لخبير<sup>(٢)</sup>؛ أفمن أجل واحدة؟ أما إنه لعل الذى جعلها حقاً عندك  
هو الذى يجعلها باطلا عند سواك، ولعله ما حسنها فى عينك إلا  
أن طبعاً من الجد فيك استملح طبعاً من الهزل فيها، كما ترى معنى  
مكدوداً فى إنسان يستروح إلى نقيضه فى إنسان آخر.

ولعل من أمتع اللذات وأبهجها لقلب المهموم أن يتصور فى همه  
من يعرفه طروباً فرحاً، وإن كان كلا الرجلين لا يسكن لعشرة  
الآخر لو تعاشرا واختلطا. وهذه القلوب لا تؤتى من مأتى هو أدق  
وأخفى من توهم ما فيه اللذة، فإن النفس ترجع عند ذلك بكل  
حقائقها إلى نوع واجد من الوهم ينصرف بها إلى تمثل هذه اللذة  
التي استشرفت لها وطمعت فيها، فإذا طمعتها فى الدم يهيج لها  
سعار<sup>(٣)</sup> الجوع العصبى. وما هى السرقة مثلاً إلا أن يضع اللص  
عينه على المال أو المتاع ويتذوق طعم اليسر والفائدة فتجن أعصابه  
جنون الحاجة، فلا يرعوى إلى شىء من الرأى يزجره أو يمنعه أو  
يكفه، ويكون فى الحقيقة سارقاً من قبل أن يسرق؛ وكذلك يكون

(١) إشارة إلى فتاة «رسائل الأحزان» فانظر وصفها هناك.

(٢) أى خبير بك وبما تبطن وما تخفى.

(٣) ما يأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون، وحالة الأعصاب متى احتاجت لأمر  
لا تكون إلا هكذا، وبخاصة إن كان هذا الأمر من الحب.



الفاسق متى نظر إلى المرأة واشتهاها ونبه معانيها في معانيه ، وقل  
مثل هذا في كل من طار قلبه أو طار صوابه .

أله عن وهمك يا بنى وضع الأمر على قاعدته . وسدد نظرك  
إلى حقيقته ودعنى من حبل الباطل الذى تجر فيه شيطان هواك أو  
يجرك هو فيه . وما نتكلم عن اثنين من الخلقة أنت وهى ، ولو أن  
الأمر قد انحصر فيكما وفنيت بالحب فيها لكانت هى الكون كله ؛  
ولو فنيت هى فيك لكنت أنت ذلك الكون ، وهذا حرسك الله  
موضع النقص فى النفوس العاشقة إذ تنقطع إحدى نفسين من  
العالم إلى نفسها الأخرى . وهو نقص أشبه بجنون المجانين بل  
هو متمم له ، فإنما ذهاب العقل فى المجنون المختبل هو نصف  
الجنون الإنسانى ، أما النصف الآخر فهو مجرد العقل فى العاشق  
المتدله .

نصف الجنون فى العاشق الذى يتجرد من الناس إلا من أحب ،  
ونصفه فى المعتوه الذى يتجرد من الزمن إلا الحاضر . إنه ليس  
للمجنون عند نفسه ماض ولا مستقبل إلا يأمل هذا ولا يذكر ذاك ،  
وكل سعادة نفسه فى هذا النسيان الذى طمس عليها وتركها كأنما  
تعيش فى غير عمرها ، بل فى كل أعمار الإنسانية بل بغير عمر ؛  
وكذلك ليس العاشق مع الحبيب شخصاً آخر ممن مضى وممن يأتى  
ما دام الحب قائماً ، فالحبيب هو الحبيب ، وكل الناس بعده أدوات :  
وشخص واحد هو : الألف واللام والحاء والباء ، والناس جميعاً  
نقطة صغيرة ملقاة تحت الباء فقط .



وقال «الشيخ على»: ثم يبرأ المجنون ويثوب إليه عقله فيعرف أنه كان مجنوناً، ويبغض المحب أو يسلو ويبرأ من وهمه في تلك المرأة، فلا يرى إلا أنه كان بها مجنوناً، أفلا يكفى هذا ويحك في الدلالة على أن الحب والجنون من أم واحدة وإن اختلف أبواهما . . . وأن رأى العاشق في كل النساء كراى المجنون في كل الناس، لا يجوز أن نأخذ بواحد منها إلا إذا أخذنا بالآخر وأقررناه في باب الصواب والعقل؛ إذ كلاهما حاصل من حالة متى هي تغيرت فانقلبت اعترف صاحبها عليها بالجنون وإن كانت إحدى الحالتين في طبيعتها ووصفها غير الأخرى! ويلمه وصفًا من العاشق لو كان مع صاحبه رأى<sup>(١)</sup> ويلمه رأياً من المجنون لو كان مع صاحبه عقل!

قال «الشيخ على»: سئل الحلاج<sup>(٢)</sup> وهو مصلوب يعانى غصة

(١) كلمة تقال لتفخيم شأن الأمر، تشعر الذم ولا يريدونه وأصلها (وبل أمه) ولكنهم يسقطون الهمزة، ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة وترسم كلمتين إذا أمن الخطأ فيها.

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفى الشهير اختلف العلماء فيه اختلافاً كثيراً ورمى بالكفر وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة وهو فيما قرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة وما زال هذا التصرف كالحقيقة نفسها هي موضع المعرفة وموضع الجهل معاً: ومن أبدع ما قرأناه في ذلك أن أصحاب الشيخ عثمان القرشى من أكبر علماء مصر فى علوم الحقيقة والشريعة قالوا له يوماً: مالك لا تحدثنا بشيء من الحقائق؟ فسألهم كم أصحابى اليوم؟ قالوا: ستمائة، فقال: انتخبوا منهم مائة فانتخبوهم، فقال: اختاروا من هؤلاء عشرين فاختاروهم، فقال: استخلصوا من العشرين أربعة، فكان الأربعة أئمة الجماعة ابن القسطلانى وأبا الطاهر وابن الصابونى وأبا عبد الله القرطبي. قالوا: فلما انتهى الأمر على ذلك قال الشيخ رحمه الله: لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رءوس الأشهاد لكان أول من يفتى بقتلى هؤلاء الأربعة. قلنا: فتأمل غور هذا البحر فما أبعد غوراً، وتوفى القرشى سنة ٥٦٤ هـ.





الموت : ما التصوف؟ فقال لسائله : أهونه ما ترى . . . فهذا رجل يموت فى سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماوى العجيب ؛ وعلى أنها قد دقت المسامير فى أطرافه وجمعت لموته آلام الحياة كلها، وأنبتت فى كبده من وخزات الجوع شجرة من الشوك، وأطلقت فى عروقه من لذعات العطش لهيباً من النار، وتركته على عوده ممدوداً تتساقط نفسه كما ينشر الثوب الذى بلى وانسحق فهو يتمزق من كل نواحيه على هذا البلاء كله، لم تتغير الحقيقة فى رأى الرجل ولا فسد موضعها فى نفسه، ولا أرى ما يكرهه الناس من الألم مكروهاً فى ذاته فيميل عنه، ولا ما يحبونه من اللذة محبوباً فيميل إليه، ولا تسحب قلبه حركة واحدة السخط على الحكمة الإلهية فانتقصها برأى أو اغتمز فيها بكلمة؛ بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحد الإنسانى المنتهى فيه، إلى ما يبدأ عنده الحد الإلهى الذى لا ينتهى، ورجع آخره إلى أوله فكأنما يقول بلسان حكمته فيما نزل به : اللهم إنك بدأتنى طفلاً غراً جعله فقدان العقل لا يملك مع أحد إلا صياحه فخذنى إليك طفلاً عاقلاً جعله العقل لا يملك مع أحد ولا صياحه .

واذكر الطفل يا بنى فرب معضلة من أمور هذه الدنيا يحار الناس فى آخرها وهى محلولة من أولها، وما هؤلاء الأطفال إلا الأساتذة الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا، غير أننا لا نأخذ عنهم فلا نصلح، ويأخذون عنا فيفسدون . أفرايت ولد الشوهاء تعرف عيناه فى كل ما طلعت عليه الشمس أجمل من وجه أمه، أو يرى طائلاً



فى وجه سواها؛ أو يحن إلى غير طلعتها أو يسكن إلى صدر غير صدرها، حتى كأن الله لم يخلق وجه حبيب لقبلات محبه إلا وجهها هى لقبلاته؟

إنه فى ذلك ينظر من ناحيتين: الأولى ناحية صفاته هو فإن القلب إذا لم يكن بهيمياً منعكساً أشرق صفاؤه فيما حوله فلا يرى إلا خيراً، ولبت المرئى صفة الرائى فلا ينظر إلا جمالاً، واتصل الشعور الطيب الرقيق الجميل بين نظر النفس وبين ذات النفس كما يصل الشعاع الذى يلقى على حائط من المصباح - بين هذا الحائط وبين المصباح فيغشيه النور وإن كان الحائط نفسه من الطين.

فإذا كان القلب بهيمياً زائغاً عن الإنسانية إلى حيوانيته، استفاضت ظلمته وشهواته على ما حوله فلن يشهد من صفات الجمال شيئاً بل يرى فى كل شىء من صفات نفسه هو، حتى ليكون الوجود كله فى عين بعض الناس كما يكون الطعام كله فى فم بعض المرضى. ومثل هذا يعشق أجمل النساء فلا يرى فيها جمالاً ألبتة وإن هو خدع نفسه فى ذلك واختدع الناس، وإنما يرى فيها شهوات، شهوات جميلة ليس غير.

أما القلب البهيمى غير المنعكس وهو ذاك الذى تحمله البهائم، فلا يحتفل فيه عقل ولا يحتشد فيه خيال، وما هو إلا أن ينصب الحيوان به على محض المنفعة، لأنه عامل فى الطبيعة يعد من عمالها لا من شعرائها... فليس عنده جمال يقع فى ظاهر الروح

وأخر يقع فى باطنها وثالث متوهم لا يقع ولا يمتنع أن يقع<sup>(١)</sup>؛ وليس يعرف من معنى القبح إلا أن تكون الأنثى قد طاش بها المرض فما تستقل إعياء وضعفًا. وبذلك سلمت إناث البهائم من شر كثير يملأ لغة الحياة النسائية بمعانيه وتجمعه كلمتان: الجمال والقبح.

والناحية الأخرى التى ينظر منها الطفل لأمه الدميمة الشوهاء ناحية الصفات الإلهية، فإن الحب الصحيح الذى يمكن أن يسمى حباً لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق وغيرها مما يظهر البشرية على أتمها وأحسنها فى الشخص المحبب كما يظن الناس خطأ، بل هو فى عكس ذلك أى فيما يخفى البشرية بمحاسنها وعيوبها جميعاً ويظهر فى أمكنتها خصائص الروح المحبوبة وحدها، فمن ثم يبدو لك شخص المحبوب على أى أشكاله وهياته كأنه تمثال سماوى وضع لروحك خاصة فهو مجبول من مادة واحدة هى مادة الفتنة، ولو كان فى أعين الناس كافة تمثال الأرض السفلى يصور كل ما تشئت فيها من القبح . .

فإذا لم تظهر لك خصائص روح المرأة ظهوراً يستفيض على وجهها وجسمها ويجعل كل شىء فيها ذا معنى منه وكل معنى منه ذا معنى فيك، فما أنت من حبها فى شىء ولو ذهبت من جمالها بعقول الناس ولا هى عندك من الجمال فى شىء ولو كانت فى النساء كليلة

(١) رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون وهى: إن الجمال إذا وقع فى ظاهر الروح كان صباحة، وإذا وقع فى باطنها كان فصاحة، فزدنا عليها ما هو فوقهما مما لا يعرف إلا بالتحيل ولا حقيقة له فى الواقع.

البدر فى الليالى ؛ ومن أجل ذلك لا يخلو الحب من بعض معانى الوحى ، ولا تخلو الحبيبة من بعض المادة الملائكية<sup>(١)</sup> فى النفس التى تعشقها ، ولا ملك الوحى إلا قوة المزج السماوى فى نفوس الأنبياء ، وهل روح الحبيبة إلا على قدر من مثل هذه القوة فى نفس محبتها؟ ولعل هذا يفسر لك سرّاً من أسرار الاحتراق فى بعض الأرواح العاشقة التى تيمها الحب ، فإن تلك القوة المزجية متى أفرطت على نفس رقيقة حساسة أذابتها واشتعلت فيها فأكلتها أكل النار للهشيم وتركتها تحترق أسرع ما تحترق لتنطفئ أسرع ما تنطفئ .

قال «الشيخ على» : تلك هى الحقيقة يا بنى فلن يأتى لكائن من كان أن يقسم النساء إلى جميلات وقبيحات إلا إذا طوى فى ذلك معنى القسمة إلى شهوات جميلة وشهوات قبيحة ؛ ومتى انتهينا إلى هذا فقد خرجنا إلى المخاطبة بلغة لا هى من لغة البهائم ولا هى من لغة الإنسانية .

أفرايت قط ألفاظ الجمال والقبح تشيع فى أمة من الأمم وتعلو بالأعين عن النساء وتنزل وتمتد<sup>(٢)</sup> بها وتتقبض إلا أن تكون أمة ضعيفة القوة قد اختلت أجسامها ، أو ضعيفة الدين قد اختلت أرواحها<sup>(٣)</sup> .

(١) نسبنا إلى الجمع للخفة وفرقاً بين هذه وبين النسبة إلى الملك (بكسر اللام) فإنها ملكية (بفتح اللام) .

(٢) يقال : علت العين عن كذا ، أى نبت منه نفوراً فلم تلتصق به ، فاستعملنا منها نزلت كما ترى .

(٣) شئ حنا هذا الرأى فى بعض فصول (السحاب الأحمر) .





انكشف القمر ذات ليلة لرجل اسمه «من عباد الله المقربين» فإذا  
البدر أسود كالحبر وإذا هو مكتوب في وسطه بالنور «أنا وحدي»؛  
فالقمر نفسه لم يمنع كل ضياء الشمس عليه أن يسود في عين  
الرجل الذي ينظر لروحه، فما الذي يمنع من ينظر لروحه  
وخصائصها أن تصير المرأة القبيحة في عينه كالقمر الأزهر؟<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

في البدر ظهرت كلمة الألوهية «أنا وحدي».

وفي وجه الحسناء تقرأ كلمة الألوهية «أنا وحدي».

فهل يمكن أن تقع الدميمة من الحسناء أقبح ويقع ظلام القمر  
من نوره فلا تكون في وجهها هي أيضاً كلمة الألوهية «أنا  
وحدي»؟.

لم يبق في البدر مع الحكمة العليا شيء يسمى الجمال!

ولا المرأة الحسناء يكون فيها شيء أجمل من القمر؛ فهي مثله  
ليس فيها مع تلك الحكمة شيء اسمه الجمال.

أفيمكن أن يكون من الحكمة نفسها في وجه القبيحة شيء اسمه  
القبح؟.

\*\*\*

(١) هذا تهكم من «الشيخ على» يريد به طائفة فتياتنا وفتياننا ممن يرون الدين  
شيئاً قديماً في لغة قديمة ونفوس قديمة ومذهب قديم، فليهنشهم البلاء  
الجديد الذي حل من أنفسهم محل الدين فجعل الرجل بلاء على المرأة إن  
تزوج بها أو أهملها والمرأة بلاء على الرجل إن كانت له أو لنفسها . . .



## كتاب المساكين

القمر طالع مشرق كما كان .  
والجميلة الحسناء لا تزال فاتنة .  
والدميمة ظاهرة كما هي .  
لم ينقص الكون من ثلاثتها شيئاً .  
ولكن أين عين الرجل الكامل ؟ .

\*\*\*



## الفصل الأخير

الدين ولادة ثانية<sup>(١)</sup>

«قال صاحب المساكين»:

عرفت فيمن عرفت من أصناف الناس أربعة تجرى أمورهم في نفسى على غير مجاريها في أنفسهم؛ وأرى من طبيعتهم موضع الغفلة والحمق فيما يرونه أو يحسبونه موضع السداد والحكمة:

«فالأول» رجل ملحد أديب معنى بجمع الكتب يتعلق بكل نفيس منها؛ وهو يزعم أنه تأمل الأديان فلم يجد طائلاً في شيء وأن له في كل دين ظنة على ريبة؛ ونقداً على مسألة، وثانية على أوله<sup>(٢)</sup> وأنه تبدل الدين بالخلق<sup>(٣)</sup> فما خسر شيئاً وربح الحقيقة، ثم يحذو بعد على هذا الحذو كما يفعل الملحدون في صفة أنفسهم وهى دائماً لا يأخذون من الكلام إلا بجملة اليدين إذ من العجيب أن لا تقع لهم الكلمة الصحيحة المفردة.

هذا الذى خرج من الأديان ومن نهيها وأمرها إلى الأخلاق وعهدتها وأدبها «قال لى ذات يوم وقد خضنا فى أمر الكتب: إنى لأمقت السرقة والغصب والخديعة ولا أبيع منها شيئاً ولا أمرها لأحد! غير أنى إذا وجدت كتاباً نفيساً وعجزت عنه أو ضاقت به

(١) هذا الفصل من زيادات الطبعة الثانية.

(٢) كناية عن التعدد وأنه لا يكتفى بواحدة.

(٣) بمعنى التغيير لا الاستبدال.



ذات يدي أمكنتني فرصة من الغفلات لم أتورع أن أسرقه . . . ولو غصبت ولو خدعت .

قال هذا فلم أفهم من كلمته شيئاً إلا أن لقب «اللس» يكون من الشرف أحياناً بحيث يسمو كثيراً على الرجل الملحد . . .

«والثاني» رجل متفلسف انقلبت عقيدته إلى زيغ فله رأيان في أمور الحياة: واحد ينزع فيه طبيعته فيستمتع ما وجد متاعاً في حرام أو حلال وفي معروف أو منكر . والآخر يرجع به إلى ضميره الإنساني وما هو الأشبه بعلمه وعقله وفلسفته فيألم ويتململ إذ يرى أنه لا يزن من لذاته لا بمقادير الخير ولا بمقادير الشر، وأنه يبيح لنفسه ويحرم على غيره؛ فإنما الرأي والحق والعدل أن لا ينطلق في كل إنسان تاريخه الوحشي كما يفعل هو ليقوم النظام على أصوله وتحقق الإنسانية في أهلها، ولو فعل الناس ذلك فوسعتهم الفلسفة لما وسعتهم الطبيعة بل هي تسرع حينئذ فتطلق لكل حيوان مع أكيلته التي يغتذى بها آكله الذي يتغذى به .

لم أفهم من فلسفة الرجل أنه فيلسوف، بل عرفت من علمه أن الرجل من الناس قد يكون سافلاً حتى من الجهة العالية فيه، وقد يكون فاسداً حتى من بعض جهاته الصالحة . . .

«والثالث» رجل يزعم عند نفسه أنه مصلح ويتولى أمور الناس فيداورها ويلتمس لكل شيء ما أتى يتسبب منه إلى إصلاح فيهم حتى إذا وثق الناس به واستكانوا إليه صاروا في حال الغرة وفي قياد





الأمن ، صدعهم في أديانهم وأخلاقهم وركبهم بمزاعمه وخرافات  
وبث أوهامه في مذاهب أقدارهم وتصاريق أمورهم وظن الدين  
كلمة تضع في موضعها كلمة غيرها وحسب اليوم من أيامه في عمل  
الدهر كالיום من أيام الله في خلق السماوات . . . فهو يطرد الأزمنة  
ويمحو العادات ويغير الطباع ويسن لفروع الشجرة سنة جذورها  
فلا يذهب الفرع طالعاً بل يغور نازلاً ، ثم يريد أن يقيم على طريق  
التاريخ مجازة أو قنطرة ليمشى بالناس فوق التاريخ فيقطع بهم ألف  
سنة في ألف يوم ، وكأنه زاد في الطبيعة ناموس نهيه وأمره . . .

أنا لا أقول في مثل هذا إنه مصلح ؛ بل أقول يا عجباً لسخرية  
الأقدار من القوة ، ألا يرتع النسر في الجو ليبحث أين تكون  
الجيفة . . .

«الرابع» ذاك الذي جعلته الكتب عالماً وقسمت له ما شاء ولكن  
الله تعالى لم يقسم له شيئاً من كرم الضريبة وشرف العرق ولا ألقى  
معاني الذهب في سلسلة آبائه<sup>(١)</sup> فهو رثة<sup>(٢)</sup> لا يجيء في معاني  
الناس بطباعه وأخلاقه إلا كالثوب الخلق من فتوق ورقع ، ويغطي  
عليه العلم كما تغطي القشرة النضرة على الثمرة المرة ، فإذا كتب  
للناس ارتطم في طباعه ونزع مأخذه وتجاذب داخل نفسه  
وخارجها ، فيذهب ينكر ويعترض ويسفه ما عليه الناس من دين  
وخلق وينزو بهم في نوازيه ودواهيته ، ويرد كل ما في الطبيعة من

(١) في الأثر : لا تعلموا أولاد السفلة العلم (أولاد السفلة) فقط .

(٢) أي من البقايا التي لا خير فيها .



الجمال وكل ما فى النفس من الحق إلى تأويل مادي بحت، كأن الزهرة الخارجة من الطين هي طين مثله . ويسقط عنده كل ما عمل الشعاع والماء فى الذرة الأزلية التي انبثقت منها النبتة فخرجت توحى عن السماء وحي النور واللون .

أنا لا أفهم أن مثل هذا عالم ولكنه فى الناس كبعض النبات فى النبات يرزق من النمو قوة يفسد بها وما حوله، فإذا هي ظهرت فيه لم تنبه على قيمته بأكثر مما تنبه الناس إلى وجوب اقتلعه واستئصاله . . .

\*\*\*

لا ثقة لى بمخترق لا دين له ؛ فإن الخلق يصله بحظ نفسه أكثر مما يصله بواجبات الناس ، ولا فيلسوف ملحد ؛ لأن الفلسفة تمزجه بالمادة أكثر مما تمزجه بالإنسانية ، ولا بمصلح ينسلخ من الدين ، لأن إصلاحه صور من غروره، ولا بعالم جاحد، لأن علمه كهندسة الشوكة كلها من أجل آخرها . . . أولئك لا يدرون أنهم من هذا العالم فى حدود أغراضهم الصغيرة الفانية إذا كان كل منهم يتناول الكون من حيث يحب هو لا من حيث يحب عليه ، ثم يفسر الأشياء فى جزء منها لا فى مجموعها، ويعتبر الزمن عمراً كعمر الفرد وهو تاريخ لا يموت، وينظر إلى الغاية من الوجود كأنها داخله فى الحد مع أنها لو حدث لبطلت أن تكون غاية .

كل منهم صحيح فى ذاته لكنه فاسد بموضعه من أغراضه أو من أغراضنا؛ وما أشبههم بالأشجار فى المقابر لا تجد لها فى المقبرة ما



تجد لها في الحديقة، كأنها لما قامت في موضع الموت قامت حية ولكن ماتت روح الحديقة فيها.

لا تسمو حياة الفرد إلا إذا كان جزءاً من كل، ولا يجتمع الكل إلا إذا كان تاماً فيما هو كل به، السبيل أن يدفع الفرد أبداً إلى خارج حدوده الذاتية الصغيرة. وفكرة الكل هذه لا يصورها ولا يستوفى معانيها إلا الدين الصحيح إذ هو خروج بالفرد من شهواته التي تفصله من غيره إلى واجباته التي تصله بغيره، وانتزاع له من ذاتيته إلى إنسانيته ودفع بالإنسانية نفسها إلى الكل الذي هو أسمى. فكأن الإيمان في حقيقته إن هو إلا دربة لهذا الإنسان على الدخول في اللانهاية فهو من أجل ذلك يقضى على الفرد أن يتسع ويمتد في إنسانيته لا في شخصيته فيتخلق بالأخلاق التي تعم دون أن تخص؛ وفي صورة صغيرة من جعل المحدود في ذاته أعظم من ذاته ودفع ما ينتهي في سبيل ما لا ينتهي.

فإذا عمل الفرد على أن يقفل حدوده عليه ويستغلق بها ويمتنع من ورائها صار كالقلعة المحصنة لا تصلح إلا حرباً لما حولها ودفاعاً عما فيها فلن يضع هو أمره إلا على هذا المعنى، ومن ثم فلن يكون له ممن يصادمونه إلا حكم واحد هو تخريبه وهدمه واقتحامه؛ فإذا كانت الحياة غير باقية على فرد من الناس فمن الحمق أن تكون هذه هي صورة الإنسانية فيها، وإذا كان ذلك حمقاً فالحمق ولا جرم بعض المعاني التي يقوم الإلحاد عليها.

\*\*\*



ليس فى الأرض إنسان لا أجداد له ثم ليس على الأرض إنسان فى نفسه بل إنسانية فقط ، إنسانية متصلة مفرغة إفرغاً ليس للفرد بينهما موضع لذاته بل موضعه لاتصاله بسائرها كمنزلة الخلية الواحدة بين الملايين من الخلايا المتلازمة فى جسم واحد قائم من جميعها صالح للوجود بصلاحتها وفسادها معاً .

أما إنها لعجيبة أن تلقى بسؤالين متناقضين لا يلتزمان ثم لا تجد ولن تجد عليهما إلا جواباً واحداً لا يختلف ، سل الحكمة ، لم صلح هذا؟ فالجواب ليكون شيئاً ضرورياً فى الوجود . وسلها لم فسد ذلك؟ فالجواب كذلك ليكون شيئاً ضرورياً فى الوجود . هى الحلقة المفرغة ، لما غاب طرفاها صار كل موضع فيها طرفاً وعلت كلها ونزلت كلها .

فليس إلا النوع لا الفرد ، والكل لا الجزء ، والإنسانية لا الإنسان وإنما يقع كل شىء فى الحياة -بل فى الوجود كله- تدرجاً لتحقيق هذه الوحدة كيلا ينفصم أحد منها ، فهى أبداً ذاهبة بالجسم والعقل والمعرفة والعمر من جزء إلى جزء ، من الأصغر إلى الصغير ، إلى الكبير إلى الأكبر ، إلى الأوسع إلى الأسمى ، لأن تلك هى علامتها فى حركتها وتسحبها ، وهى طريقة برهانها بالنهاية على أنها لا نهاية .

بيد أن خطأ الغريزة فى الإنسان يظهر فى اعتبار الفرد نفسه كلاً تاماً وشيئاً متميزاً فلا يريد لنفسه إلا أمراً تاماً ووجوداً يتميز فيه ، وبذلك يقتحم سواه ويستبيح وجوده ، فيقع النزاع والعدوان . وكأنه يضيق بمقدار ما لا يستطيع أن يتسع ، لأن دفعه لكل ما حوله مردود





عليه بدفع مثله مما حوله ، فتتبدل صورة الإنسانية في شكل دخله الغلط على كل جهاته ، وههنا موضع الدين الصحيح فما هو إلا الناموس القائم من كل إنسان على الواقع في ذاته والواقع في غيره ليصل بين الواقعين المختلفين بنظام مختلف متحد يكون له في النفس ما يكون لنظام المد والجزر .

وبهذا كان واجباً حتماً أن تكون العقوبة جزءاً من نعيم الدين ، وأن يكون القيد شقاً من حرية العقيدة ، وإلا بطلت في الإيمان قوة الجذب والدفع معاً يبطلان إحداهما ، لأن مدّاً بلا جزر هو أفحش الغرق من ناحية وجزراً بلا مد هو أفحش الغرق من الناحية الأخرى .

تعجبني كلمة في الإنجيل لا أعرف أحداً أحسن تأويلها وبلغ حقيقتها . قال «يجب أن تولدوا ثانية» ووضعها في هذا المقال هو تفسيرها فإن الفرد يولد من الفرد ولكنه لا يصلح على ذلك ، بل يجب أن يولد في صفاته وأخلاقه من المجموع الإنساني لتقع الملائمة . ثم إنه من أبويه يخرج من الحيوانية بغرائزها ولن يفلح بها إنساناً فيجب أن يولد مرة أخرى من جنسه الاجتماعي بغرائز مكتسبة ، ثم إنه يولد مهياً للإقرار بنفسه وحدها فيجب أن يولد الثانية مهياً لإنكارها وحدها .

على هذه الأرض . إما الإقرار بالنفس وإيثارها والاعتداد بها ، ومع كل ذلك : الحيوانية والشيطان ؛ وإما إنكارها والإيثار عليها والمهاونة بها ، ومع كل هذه الإنسانية والله .



لن تطاق الحياة إلا إذا تبدلت فاتخذت لها أسلوباً غير أسلوبها  
الآتى من تركيب المادة . وإنما صراع الأرض كلها حول إقامة هذا  
الأسلوب الجديد أو هدمه أو ترميمه : أسلوب كل الأخلاق والطباع  
الشديدة التى لا تطيقها الحيوانية فتسميها إنسانية ، وتكبرها الإنسانية  
فتسميها الإيمان . بالأسلوب الأول تكونون بالحياة فى موضعها ،  
وبالثانى تسمون بالحياة عن موضعها « فيجب أن تولدوا ثانية » .

\*\*\*

كل ما يراد به أن يسد فى الإنسانية مسد الدين ويغنى عنه فإنما هو  
فى رأى كطعام أهل الجحيم ، لا يطعمون فيها كما يطعمون فى  
« نزل » لشبع و سمن بل طعاماً كما جاء فى القرآن الكريم ( لا يسمن  
ولا يغنى من جوع ) أى لإحداث الجوع و كلبه واستمراره<sup>(١)</sup> .

والطبيعة نفسها تهيب الإنسان للدين بأسلوب غريب هو هذا  
الحب الذى يخلق فطرة على أنواع مختلفة متعددة لا يخلو منه أحد  
فلا معدل عنه ولا محيص . وإنما هو فى مظهره - أيها كان - دربة

(١) انظر إعجاز هذا التركيب وكيف بدأ حين أراد وصف طعام أهل الجحيم وما  
هى بدار طعام بل دار عذاب ، فقال : « لا يسمن » فينخدع الحس بالكلمة فتظن  
أن هذا الطعام إن لم يسمن فربما ذهب بالجوع وإن لم يذهب به فربما أغنى منه  
ولو شيئاً فقال : « ولا يغنى من جوع » فيصدم الحس هذه الصدمة وينعكس  
عليه التأثير الذى توهمه قبل ثم يشتد هذا التأثير و يبلغ مبلغه حين يتأمل الحس  
البليغ هذا التركيب الدقيق فلا يخرج له إلا أن طعام هؤلاء إذا كان لا يحدث  
نتيجة ألبته مما هو من خصائص الأطعمة لا فى سمن ولا شبع ولا الغناء من  
جوع ، فما هو إلا طعام منعكس لإيجاد الجوع واستمراره ، ثم وتسميته على  
ذلك ( طعاماً ) مع أن لهذه الكلمة فى النفس عكس ذلك العمل يكون أشد  
على النفس فى العذاب وفى التهكم ؛ فتأمل كيف يكون الإعجاز .



للنفس الإنسانية تصعد به درجات من الفضائل، كالإخلاص، والإيثار، والاتصال الفكري، والانبعاث الروحي، والشوق الخيالي ونحوها مما هو في الحقيقة إيجاد للحياة النفسية في أعمالنا، وفيض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لإحداث الملامسة بين الأرواح والأشياء، والترابط بين الجاذب والمنجذب، وكل ذلك تهيئة للدين وعمله في النفس ليكون قائماً على أساسه في الطبيعة. فالحب دين على أسلوب خاص ضيق؛ ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقع في الدين من المؤمن به على وتيرة واحدة، إذ لا يرضى القلب في هذا ولا هذا غير رأى واحد. فكيفما قلبنا الحياة رأينا في كل جهة منها وجهاً من وجوه الإيمان وباعثاً من بواعثه وحكمة من فلسفته، فالمصلحون الذين يحاولون تجديد الأمم بصور ملونة من الغرائز تطمس على الدين، هم الذين يرجعون بهذه الأمم في غالبية الأمر إلى الحيوانية، لأنه ليس في طبيعة النفس إلا شيئان: هوى هي دائماً أعظم منه، وإيمان هو دائماً أعظم منها.

تم بحمد الله تعالى

\*\*\*



## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تقديم .....
٩	مصطفى صادق الرافعى .....
١٩	فاتحة .....
٢٩	من كمال النبوة وأخلاق سيد الخلق .....
٣٠	صفحة من الغيب .....
٣١	صفحة من الحكمة .....
٣٣	مقدمة الطبعة الثانية .....
٤١	مقدمة الطبعة الأولى .....
٥٥	غرض الكتاب .....
٦٠	١- الشيخ على .....
٧٤	٢- فى وحى الروح .....
٨٧	٣- الفقر والفقير .....
١٠٧	٤- مسكينة! مسكينة! .....
١٢٠	٥- لؤم المال ووهم التعاسة .....
١٤١	٦- وهم الحياة والسعادة .....
١٦٤	٧- سحق اللؤلؤة .....
١٦٦	الرجل البخيل .....





## كتاب المساكين

١٧٩	.....	فى الحب
١٨٠	.....	فى الحفلات
١٨٠	.....	فى الرقص
١٨١	.....	فى الموسيقى
١٨٤	.....	يا ليل
١٩١	.....	فصل خامس فى السنة
٢٠٧	.....	شهر النحل
٢١٢	.....	وبعد
٢١٥	.....	٨- الحظ
٢٣٠	.....	٩- الحرب
٢٤٤	.....	على الكوكب الهاوى
٢٥٤	.....	١٠- الجمال والحب
٢٦٩	.....	الفصل الأخير - الدين ولادة ثانية
٢٧٩	.....	الفهرس

\*\*\*

